الرسالة الأخيرة..



الكتاب: الرسالة الأخيرة

المؤلف: مصطفى عبدالعزيز

رقم الإيداع: ١٩١٤٩ \ ٢٠٢٠

الترقيم الدولي: ٥ - ٨٠ - ٦٧٤١- ٩٧٧- ٩٧٨

***

دار الميدان للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية

هاتف ٠١٢١٠٣٤٣٥٩٣/٠٥٥٢٣١١٤٠٨

Website: www.daralmidan.com

E- mail: almidan@daralmidan.com

FB: fb.com/dar.almidan



" نحن هنا جميعًا لفترة قصيرة جدًا.. جدًا.."

مصطفى عبد العزيز

إهداء

لأغلى مَن وهبني ربي إياهم.. أبنائي

محمد

سارة

إسراء

ياسمين

الرسالة الأخيرة

في حالة وجود أيّ تشابُه بين أحداث الرواية أو الأسماء التي وردت بها، فهي بمحض الصدفة.. فالشخصيات وما جمع بينهم من أحداث كلها من وحي خيال المؤلف.. لذا وجب التنبيه..

مقدمة

يعيش بيننا صنفٌ من الكائنات أو ربما حولنا، ملامحها هي نفس الملامح المُمَيَّزة للبشر من الشعر والعينين والأنف والفم، حتى الجلد بصبغاته المختلفة، ولهم يدين وقدمين وكل ما للبشر من أعضاء.

في العموم لا تستطيع العين المجرّدة أن تُفرَق بينهم وبين البشر، فهم ينخرطون بينهم دوماً... فتجدهم في الطوابير أمام المخابز أو مُندفعين وسط جحافل البشر لداخل إحدى عربات المترو أو داخل المصالح الحكومية، ويعملون في شركات القطاع العام والشركات الإستثمارية الضخمة، فمنهم الفقير والغني والمتزوج والأعزب.. السمين والرفيع.. منهم مَن يعيش بأفخم القصور والفيلات ومنهم من قد افترش أحد رصفان الشوارع لينام أو يأكل.. يتزوّجون ويتناسلون.. يتحدَّثون بالهواتف المحمولة ويشاهدون التلفاز، وأحياناً يذهبون لمشاهدة أحد الأفلام التي تعرضها شاشات السينما.. منهم المشاهير وأكثرهم لم يسمع بهم أحد، ولن يحدث.. تجدهم في المساجد والكنائس وغيرهم من دور العبادة.. منهم مَن لا نسب له وبعضهم ينحدر من سلالات العائلات العريقة وأكثرهم من عائلات بسيطة، فلم ولن يستطيع أحد تمييزهم للشبه الكبير بينهم وبين البشر سواء في التشابه الجسدي أو نمط الحياة..

تواجَدوا على مرّ العصور والأزمنة ولكن أعدادهم تتناقص بشكل مستمر بمرور الزمن ليس نتيجة لخلل في تناسلهم إنما لتشتّتهم في بقاع الأرض المختلفة وتزاوجهم من البشر و لذلك نسلهم ليس مثلهم تماماً فيكون كالهجين، فاختلاط الجينات يتسبب أحياناً في فقدان أصالة الجينات أو تشوّهها.

هؤلاء الكائنات لهم منهجيّتهم الخاصة بهم والتي تختلف عن منهج عموم البشر، وبالرغم من إتقانهم للغات واللكنات واللهجات التي يتحدث بها البشر بالبلدان والمجتمعات المختلفة، ومع ذلك لا يفقه أحد حديثهم.. وهنا فقط يتعرف البشر عليهم، وحينها يتعرضون لأبشع أنواع التنكيل والتعذيب اللاإنساني في محاولة للتخلص منهم وتحطيمهم، لعلم أكثرية البشر بأنهم يمثّلون خطراَ حقيقيّاً عليهم والبعض الآخر من البشر يخشاهم لما جبلوا عليه من الخوف من المجهول، أو ربما لخوفهم من إحتمالية كون هؤلاء يتخفّون وراء أقنعة ليظهروا وكأنّهم بشر حقيقيون، ولو نزعوها لبرزت وجوههم الحقيقية والتي ربما هي أقبح ما يكون. كالكائنات ذات الثلاث عيون وبلا أنف أو ربما بعين واحدة كتلك الوجوه التي جسّدتها شاشات هوليود، أو ربما كونهم أحد أنواع الزواحف المتحولة أو الكائنات الرمادية أو الشبه رمادية.. أو نوع من أنواع الروبوتات التي تحوّلت لأشباه بشر بعد المرور بعدد من التجارب التكنولوجية، والتي لا تزال سرا تحتفظ به الدول المتقدمة تكنولوجيا وعندما يعودون لمنازلهم يقومون بإعادة شحن أنفسهم عن طريق كابل سلكى يتدلّى من قابس كهربي يتواجد في الجزء السفلي الخلفي لجمجمتهم.

لذلك قد فطن هؤلاء بأن صمتهم هو أحد أفضل الحلول وأضمنها لعدم معرفتهم وكشف هويّتهم الحقيقية.

تطوّر هذا الصمت إلى أن أصبح انعزالًا محدودًا أحيانًا أو كُلّيًا أحيانًا أخر ى إلا عندما يقابلون بعضهم بعضًا، فحينها فقط يتعاملون بحرية كاملة ودون أيّة قيود، و الكل يفيض بما في جعبته دون حرج أو خوف.

أهم ما يميز هذا الصنف من الكائنات هو عدم التدرّج النمطي الطبيعي المألوف لدى البشر، فهم يستبقونهم بخطوات كثيرة في فهم

وقراءة الأحداث من خلال بعض الشواهد البسيطة أو معرفة ما يفكر به البشر من مجرد كلمات قليلة يتفوّهون بها أو من مجرد ملاحظة نظرات أعينهم، كذلك رؤيتهم المُختلفة لسير الأحداث والتي كثيراَ ما تشذّ مع منطق البشر وتضاد معه، ومع ذلك غالبَا ما تُثبت الأيام صحتها ولو بعد حين.

لذلك يعتقد البشر أنهم عباقرة ومنهم من اعتقد بأنهم يمتلكون عقل اصطناعي مُبرمج كالحاسوب، على عكس ما يعتقده هؤلاء أنفسهم عن ذاتهم.. فيرونِ أن ما يرونه أو ما يؤمنون به واضح كشمس النهار، وأن البشر هُم مَن يتمتعون بنسبة عالية من الغباء الذي أفقدهم أبصارهم وأعمى بصيرتهم.

سرعان ما يتسلَّل الملل إليهم عند استماعهم للحوارات والأحاديث التي تدور بين البشر، لما تحمله من التفاهة والسطحية من وجهة نظرهم، ولكِنهم وعلى مضض يحاولون إخفاء ذلك بل ومحاولة التأقلم حتى لا يتعرضون للنقد، والأهم حتى لا تنكشف هويتهم..

قوة الملاحظة التي يتمتَّعون بها تفوق تصوّر البشر، فهم يلاحظون كل شيء وأيّ شيء.. يقرأون السطور وما خفي بينها، ويحلِّلون ويستنتجون ويضعون الحلول وبدائلها.. يعرفون النهايات من البدايات وكأنهم يستعينون بالعوالم الخفية لمنحهم بعض القدرات الخاصة التي تُمكِّنهم من استشراف بعض أو كثير من الأحداث، وذلك ما يزيد رعب البشر منهم أكثر وأكثر.

لولا أنهم تعايشوا بين البشر وبالتالي أصبحت لهم ما للبشر من احتياجات كالطعام والكساء والدواء وغيرهم، وما يتبعه ذلك من احتياج للمال وبالتالي الاحتياج للعمل وكسب الرزق لرحلوا لأقاصي الأرض أو احتموا بقمم الجبال، أو لربما تمنَّى بعضهم لو استطاع أن

يتَّخدوا أحد سُحُب السماء ملجئًا لهم.

كل ما يتمتعون به من صفات وَلَّد لديهم نظرةِ دونيّة للحياة وبمَن فيها من بشر، لذلك فضَّلوا أن تكون هويّتهم سرًا فيما بينهم حتى لا يُنبَذَون رُغمًا عنهم.. ويفقدون عملهم أو تُشَتَّت عائلاتهم وإلى غير ذلك من الأهوال التي من شأنها أن تُزيد إلى معاناتهم معاناة.

هذا الصنف لم يخضع لأيّ عملية جراحية لزرع شريحة مغناطيسية للتحكُّم به عن بُعد أو حتى عن قُرب، ولم تُزرع به شريحة حاسوب رقمي كبديلِ للمخ لمنحه ذكاءًا غير اعتيادي، وبالتأكيد هم ليسوا زواحف متحوِلة ولا كائنَات جوف أرضية، ولا مخلوقات هبطت من السماء، وليس لهم أيّ إتصال بأحد العوالم السرية.

البشر وتلك الكائنات يشتركون معًا في الخوف من الموت والمرض والجوع والأشباح وغيرهم الكثير والكثير.. البشر يحاولون طيلة حياتهم تجنُّب تلك الأشياء التي تُخيفهم أو تجنب أسبابها، أما هؤلاء لم يفعلوا مثل البشر إنما حاولوا -وما زالوا- قتل الخوف نفسه داخلهم أو تجنّبه، وبالتالي فلن يكون هناك وجود لتلك الأشياء من الأساس.

غالبًا ما يتمسّكون بالمُثُل العُليا والمعاملة الطيبة للبشر ليس فقط إنطلاقًا من إلتزام ديني إنما هي مجموعة مبادئ قد ترعرعوا عليها أو اكتسبوها على فترات متقطعة من حياتهم واحتكاكهم بالأحداث وآمنوا بأن الأصل هو محاولة الحفاظ على ما تبقَّى من مبادئ ومُثُل عُليا.

دؤوب هو سعيهم وراء معرفة الحقيقة الكاملة، وبرغم يقينهم بأنه لا حقيقة كاملة من الأساس لكنهم لا يستطيعون مقاومة ذلك السعي، والذي تحوّل إلى إدمان على مرِ السنين..

دائمًا ما يتعايشون بسلام ويتعاملون بحرص مع الجمِيع، مُجتهدين في الحفاظ على مسافة متساوية من الجميع حتى مع مَن يختلفون معه في رأي أو نمط حياة. الخطأ الذي دائمًا ما يقعون في فخِّه أنهم يتوقعون المعاملة بالمثل من البشر وهذا هو الشيء الوحيد ربما الذي يفشلون دومًا في استنتاجه أو توقعه رغم تكراره ولذلك دائمًا ما يتعرضون لصدمات متتابعة من أفعال البشر ولذلك يحاولون مُجتهدين أن يتجنبوا الوقوع تحت طائلة مشاعر الظلم أو الغضب لأنهم يعلمون أن حينها فقط سيتعرضون لضغط عصبي سيتولَّد عنه رد فعل كالحمم البركانية التي لن يستطيع أحد ان يخمد نيرانها أو أن يوقف سريان لهيبها.

شراسة الهجمات النفسية التي تهبّ عليهم من وقت لآخر تزداد عنفًا، وما يَزِيد من عتُوِها تقارُب الفترات الزمنية بينها، ولذلك كثيراَ ما يلجأون سراَ لأطباء الصحة النفسية علَّهم يجدون دواءَا يشفي جراجهم النفسية التي تزداد عُمقًا واتِّساعًا مع الوقت أو على الأقل لمعرفة تشخيص مرضهم إذا ما كان مرضًا من الأساس، ولا يجدون غير إجابة واحدة من كل الأطباء وهي حتميّة التأقلم مع البشر وقواعدهم وقوانينهم، وبالطبع يكون ردَّهم المنطوق أحيانًا أو الصامت كثيرا داخل ثنايا عقولهم: "كيف لي أن أتأقلم مع النفاق والكذب والوصولية والذل والإذلال واللامبالاة والخداع والخيانة وغيرهم..؟"، وبالتالي يغادرون بخُفَّيّ حنين بعد إحباط تولّد ممّا سمعوه، ولكم تمنَّوا بأن يكون العلم قد تطوّر في غفلة من الزمن وتوصّل إلى عقار ليتناولوه بصورة منتظمة ليتحوّلوا تدريجيّا لبشر.

هؤلاء هم بشر بالفعل كأيّ بشر خلقه الله ولكنهم فقط مختلفون عن بقية البشر في تفكيرهم وتعاملهم مع الحدث وما وراء الحدث وأفعالهم وردود أفعالهم، إن جاز التعبير سأطلق عليهم الآخرون..

الآخرون هم بشر مكتملين، جريمتهم الحقيقية التي يُعاقبون عليها كل يوم أنهم مختلفون عن الأغلبية.. ذلك الإختلاف الذي يدفعهم دوماً للدخول في صراع علني أو ضمني.. صراع خفي أو صريحٍ مع مَن دونهم والذي بالطبع تكون فيه الهزيمة حليفهم الوحيد لأقليتهم.

غالبَا ما ينفضّ البشر عنهم لنقدهم اللاذع وإدراكهم لحقائق موجعة ومُفزعة للبشر، لا يعلمون عنها شيئاً ولا يريدون أن يعلموا.. فالبشر يُفضِّل تجاهل المشكلات لا حلَّها، ويميل للإستكانة لا للمواجهة، أما هؤلاء فهم على النقيض تماماً.

سيظلّ هذا الصراع قائمًا بين البشر والآخرين ما دامت الحياة، ولكن الغلبة دائمًا في الحياة للاكثرية أيّا كان حالهم أو توجّهاتهم في ظل إختفاء المعجزات، فكما قال أسلافنا: "الكثرة هزمت الشجاعة"، وأزِيد عليهم "أن الأكثرية قد سحقت الشجاعة سِحقًا، بل وقهرتها قهراً"، ولهذا سيظلّ البشر منتصرين ليس لميزة تمِيّزهم أو أسلحة يتدرّعون بها أو دروع يحتمون خلفها إنما فقط لأنهم الأغلبية الساحقة.

أحد هؤلاء الآخرون كان "سعدي نحلة" بطل قصتنا...

مارس ٢٠١٣ .. بعد صلاة المغرب..

تعالَت آيات من الذكر الحكيم من داخل السُرادق المُقام لأخذ عزاء المهندس "عمر نحلة"، الذي تُوفِّيَ على إثر إصابته بجلطة في المخ بأحد المستشفيات الحكومية بالقاهرة عن عُمر يُناهز التاسعة والخمسين عامًا.

كان معظم المؤدِّين لواجب العزاء من أهالي المنطقة البسطاء حيث كان يَقطن بإمبابة وبعض زملاء العمل المُقَربين،حيث كان يعمل بأحد الوحدات المحلية المُلحقة بوزارة الإسكان كمهندسٍ معماريً، وتَقدّم العزاء ما تبقى من الأقارب على قيد الحياة أو ممّن تَسنَّتْ لهم ظروفهم لحضور العزاء بشخوصهم -وهُم قليل- وتولت "إبتسام" ابنته الكبرى -تَلقِّي واجب العزاء للسيدات بمنزلهم المتواضع...

السُرادق كان منتصباَ أمام منزل المهندس عمر ذلك المنزل المكّون من خمسة طوابق وقد بدت عليه علامات الزمن بوضوح تام وقد اكتسى باللون الرما دي ذلك اللون الذي لم يكن طلاءاَ إنما تكّون بفعل تراكم طبقات من عوادم السيارات على مدار سنوات، وكذلك الغبار الذي هو جزء لا يتجزّأ من المكونات الكميائية للهواء في أغلب المناطق والذي اعتاد غالبية الناس على ا ستنشاقه دون إستشعارهم لأيّ مُكوَن غريب أو مُستَحدَث.

كان السُرادق بطول و عرض الشارع الذي يَطُلّ عليه المنزل وهو شارع صغير مُتعرَج كغالبية شوارع المنطقة بكل ما تحمله من عشوائية وعدم الإعتناء برصفها منذ عشرات السنين، أغلق أصحاب المتاجر الصغيرة أبوابها ذاك المساء لإعطاء السردق مزيد من المساحة، حيث

أن أصحابها قد اعتبروا أن الطريق المُلاصِق والمُواجِه لمتاجرهم هو جزء لا يتجزأ من المتجر ذاته، وأن ما يعرضوه من بضاعة خارج المتجر أكثر بكثير مما يُعرَض بداخلها.

كان المهندس "عمر نحلة" من المهندسين الأكفاء، من ذوي الدخل المحدود كعموم الناس طيلة عمره المهني والذي استمر لقرابة الثلاثين عامًا وبالرغم من ذلك إلا إنه آثر أن يظلَّ شريفًا عفيف اليدين ولم يحدث قط طيلة فترة خدمته الوظيفية أن حذا حذو البعض، أو ربما الأكثرية من زملائه من تلقِّي الرشوة سواء كانت مادية أوعينية، بل لم تطرأ الفكرة على ذهنه من الأساس.

عكف الرجل بعد أن وافت زوجته المنيّة منذ ما يقرب من العشر سنوات بعد معاناة مع مرض عُضال استمر مُلازمًا لها قرابة الخمس سنوات على تربية أبنائه (إبتسام وسعدي) ولم يَكُفّ يومًا عن إحصاء الأيام والليالي بلا ملل أو حتى كَلل حتى ينال ولديه الشهادة الجامعية، لم يكن يومًا من ذوي الطموح الزائد في الحياة حيث تجسّدت كل أحلامه -كسائر العائلات المصرية- في الإطمئنان على مستقبل وليديه الدراسي وتحصيلهما للعلم والحصول على الشهادة الجامعية لتكون بالنسبة إليهما كالمُعين على صعاب الحياة وشدائدها والسلاح في مواجهة قسوتها وما يتخلَّلها من ظروف شرسة والدرع الواقي من عصفات الأيام -هكذا اعتقد المهندس عمر- وشعر بأنه قد أتمّ ما عليه بعدما أنهيا دراستهما الجامعية، حيث تخرّجت إبتسام في كلية الألسن، وتخرّج سعدي في كلية الحقوق..

بالرغم من كونه مهندسًا ولكن نظرًا لطبيعة عمله الحكومي ذو الدخل الثابت والمحدود، والذي لا يكفي إلا لسد فجوة الإحتياجات الأساسية بصعوبة بالغة، وبعد تدبير وتدابير وحسابات شديدة التعقيد وبخاصة مع مرض زوجته والذى أتى على الأخضر واليابس، والتي لم تكن إلا ربة منزل.. بالإضافة لعدم امتلاكه لأيّ مدخرات أو أموال أو أراضي ورثها عن أبويه، وبالتالي لم يمتلك شيئًا ليورثه لأبناءه، فكانت حياته تسير يومًا بيوم، فكلما انقضى يوم حمد الله على انقضائه.

رغمًا عن رغبته الباطنية في أن يمتهن ابنه أو ابنته مهنة الهندسة كحلم أيّ أب أن يمتهن أبناؤه، أو على الأقل أحدهم نفس فصيل عمل أبيهم، وخاصة إذا كانت المهنة مرموقة إجتماعيًا -أو هكذا كانت- لكنه آثر ألَّا يتدخَّل لا من قريب ولا بعيد في اختيارهم المسار التعليمي الذي يرغبان به بالرغم من حصولهما على الدرجات التي كانت تؤهِّلهما للإلتحاق بإحدى كليات القمة في ذلك التوقيت.

كان العامل الرئيس لتغيير تلك العادة المُكتسبة من توريث الأبناء لمهنة الآباء هو دخله المحدود من ناحية وإرتفاع تكاليف الحياة من ناحية أخرى وإزدياد أعباءها اليوم تلو الآخر إلى ذلك الحد الذي لا يقصم ظهر البعير وحسب بل يقتله أيضًا وببطء شديد، لذلك قررت إبتسام إيهام الأب بأنها لا ترغب بالإلتحاق بإحدى تلك الكليات المُرهِقة دراسيًّا لها والتي تحتاج لمجهود ذهني كبير لإجتيازها دون الرسوب بإحدى سنواتها الدراسية.. تلك كانت حجّتها التي حاولت إقناع أبيها بها تقديرًا للحالة المادية الغير ميسورة التي يمر بها، وخلفها

سعدي في ذلك.

كان سعدي وبالتزامن مع دراسته الجامعية يعمل مساءً من السادسة إلى الثانية عشر، وأحيانًا لساعات متأخرة عن ذلك قد تصل للثانية صباحًا بأحد الكافيهات الراقية ليساعد والده في الإنفاق إنطلاقًا من إحساسه بالمسئولية تجاهه.. بل وتجاه عائلته كلها، فبالرغم من تفوّقه في الثانوية العامة فضّل أن يلتحق بإحدى الكليات -رباعية السنوات- حتى يُخفِّف الأعباء ولو بقدر عن كاهل أبيه، وخاصة أنها كلية نظرية وما يرتبط بذلك من إنخفاض تكاليف الدراسة على غير الكليات العملية كالطب والهندسة، والتي تحتاج الكثير من الأدوات الخاصة بالدراسة، وما زاده رغبة في الإلتحاق بكلية الحقوق على وجه الخصوص والتحديد عشقه للقانون وانجذابه منذ نعومة أظافره لقصص وسيرة المحامين الأفذاذ بالرغم من انتقاد والده له في هذا الإختيار خوفًا على مستقبله المهني، حيث لم يكن خفيًا على أحد نسبة البطالة العالية لصغار المحامين، لكن المهندس (عمر) وبعد إصرار سعدي قد نزَل على رغبته ووافق على إلتحاقه بكلية الحقوق.

بالرغم من عمل سعدي مساءً لكنه كان من المتفوقين وطالما لفت إنتباه أساتذته لما كان يتمتع به من ذكاء وفطنة وسرعة بديهة فطرية، بل إن بعضهم كان يُلَقِّبه بالمستشار، كنوع من التحفيز أو تنبؤًا بمستقبله الباهر القريب.

كما كان مُتَوَقع؛ أتمّ سعدي دراسته الجامعية بتقدير إمتياز مع مرتبة الشرف.

كان يحلم بأن تفوّقه يؤهله للإلتحاق للعمل بالسلك القضائي ليصبح

واحدًا من القائمين على تحقيق العدالة وتنفيذ القانون أو للعمل الجامعي ليصبح واحدًا من أستاذة القانون، لكن أمله خاب بعد فشله في ذلك بعدما اجتهد في ذلك كثيرَا باللجوء للعديد من الجهات وتقديم العشرات من الشكاوى والإلتماسات بل بمحاولة الإستعانة ببعض أ ستاذته الذين كانوا يعرفونه جيدًا ويُقدِّرون كفاءته، وهم مَن كانوا يُلقِّبونه بالمستشار، وما قد زاد الطين بِلّة أنه قد نما إلى علمه إلتحاق بعض مَن سبقهم بالترتيب النهائي التراكمي بالسلك القضائي أو الجامعي ممّن كانوا ينتمون لعائلات أغلبها من كبار رجال الدولة أو صفوة المجتمع.

بعدها فضّل أن يبتعد تمامًا عن كل ما له علاقة بالقانون ويستمر بعمله بالكافيه الفاخر وأصبح يعمل بدوام كامل إلى أن أصبح مديرَا له بعد عامين فقط من تخرجِه.. وما قد ساعده على ذلك إتقانه للعمل وتفانيه فيه وتعامله الخاص جدًّا مع كل الزبائن بإختلاف أطيافهم، فلم يكن يومً فظًّا مع أحدهم أو شديد النعومة مع إحداهن، فبمرور الأيام أصبح صديقًا للجميع دون إستثناء، بالطبع لم يكن خفيّا أن وسامته من طول مناسب وجسد رياضي وملامحه الوسيمة شديدة الرجولة المُمتزجة بنفحة من براءة وصفاء الطفولة وبخاصة إسترسال شعره وحُسن تصفيفه له كان أحد أهم الأسباب ليَختار كواجهة للمكان.

كان الكافيه هو مصدر رزقه الوحيد، خاصة وأنه قد أخذ عهد على نفسه بألا يتقاضى أيّة نقود من والده وكذلك كان أحد موارد الدخل لإعالة أسرته الصغيرة بجانب راتب والده، بل أصبح بالنسبة له بمرور

الوقت بمثابة المكان الذي يهرع إليه يوميًا هروبًا من البكاء على أطلال أحزانه.

غاب سعدي عن عزاء والده على غير المعتاد في مثل تلك الأحوال، خاصة وأنه الابن الذكر الوحيد الذي حبا الله به المهندس عمر لعدم قدرته على ترك قبر والده بعد دفنه أباه الذي طالما عشقه واعتبره دومًا بمثابة الصديق والقدوة، بل والمثل الأعلى..

***

وحيدًا كان هناك جاثيًا على ركبتيه، مُستندًا برأسه وبكلتا راحة يديه على القبر، باكيًا كما لم يبكي من قبل ومُحدِّثًا جثمان أبيه وكأنَّه حيّ يُرزق وسط ظُلمة ووحشة ليل المقابر ورهبته التي لفَّت وغطَّت كل شيء، فلم تظهر إلا بعض شواهد القبور المتناثرة وسط الظلام:

- "خلاص يا حاج عمر.. سيبتني لوحدي في الدنيا.. هعمل إيه من غيرك بس!!.. طيب كنت خدني معاك والله ما كنتش هقولك لأ"..

ثم ابتعد خطوة للوراء أو ربما خطوتين على الأرجح عن القبر موجهًا له نظرةعتاب ومواصلًا حواره المنفرد:

- "مش كنا متفقين ما نسيبش بعض مهما حصل!!..غيّرت رأيك ليه؟.. ده حتى كان إتفاقنا إني لو اتجوزت كنت هعيش معاك وتربِّي ولادي زيّ ما ربِّتني.. أنا زعلان منك أوي.. زعلان أوي أوي ومش هبطّل زعل إلا لما أجيلك وأنام جنبك وتحضنِّي زيّ زمان وأسند راسي على كتفك وأحكي إللي عمري ما بقدر أحكيه لحد

غيرك".

صمت قليلًا محاولًا جمع كل ما لديه من قدرة وطاقة ليواصل حديثه:

- "تعرف يا بابا أنا ليه ما روحتش عزاك؟.. أولًا لأني مش قادر أسيبك وكمان لأني مش مصدق إنك مُت خلاص أو يمكن لأني مش عاوز أصدقإنك خلاص مش هتبقى موجود تاني.. مش هقدر أصدَّق إني لما أصحى من النوم الصبح مش هلاقيك علشان أصبَّح عليك وأفطر معاك وأغلِّس عليك زيّ كل يوم.. أيوة والله مش مصدَّق ومش هعرف أصدق، ومهما حصل هتفضل عايش معايا وجوّايا وهفضل سامع صوتك في ودني ليل ونهار..الصوت إللي كان دايمًا بيقوّيني على ظلم السنين وقسوة الأيام".

انقضت قُرابة الأربع ساعات، قضاها بين صمته ومناجاته ودعائه وبكائه إلى أن نهض عازمًا على المغادرة وقبيل ابتعاده عن القبر، نظر إليه بعينين ملؤهما الدموع، رافعًا كفَّيه للسماء داعيًا:

- "ربنا يرحمك يا أبويا.. ربنا يرحمك يا أغلى الناس، يا رب خليك عارف إن الراجل ده عمل حاجات كتير أوي لنا.. يا رب إنت أدرى أد إيه الراجل الطيب ده عاش نضيف ومات نضيف.. يا رب أبويا حرم نفسه بإرادته من كل حاجة في الدنيا حتى لو بسيطة علشان ولاده وبيته"...

ثم مضى عارجًا خلال ممرات المقابر الضيقة ومع كل خطوة كان يخطوها كان يلتفت برأسه للخلف لإلقاء نظرة على القبر إلى أن اختفى عن نظره ولم يكن ليرى إلا شواهد بعض القبور التي انغمست وسط ظلام دامس وغيمة مرعبة..

بعد مضيّ أسبوع على وفاة المهندس (عمر)....

بنقرات خفيفة متتابعة، طرقت إبتسام باب غرفة أخيها، بعدها اضطرت للدخول بعدما يئست من إجابته واقتربت ببطء من مخدعه حيث ينام، وبعد أن جلست بجانبه على حافة سريره أخذت تُربِّت على كتفه بلطف، مُتجنِّبة أن توقظه مذعوراً هامسة في أذنه:

- مش ناوي تقوم يا سعدي ولّا إيه؟.. وبعدين معاك بقا!.. سعدي.. سعدي...

وهو ما زال مُغمِض جفنيه ومحاولًا إبعاد يدها عنه، ردّ وقد شاح بوجهه عنها:

- والنبي يا إبتسام سيبيني أنام.
- يا حبيبي بقالك أسبوع نايم.. حرام عليك ما ينفعش كده..
- عاوز أنام وإنتي كده بجد بتضايقيني، لو سمحتي طفّي النور ده وإطلعي بره..

وهي تداعب شعره بأطراف أصابعها،استطردت:

- طيب وشغلك؟!.. صاحب الكافيه اتصل على التليفون الأرضي أكتر من عشر مرات بعد ما يِئس إنك ترد على موبايلك واضطريت أقوله إنك عيّان شوية.. ده غير أصحابك إللي كل ساعة والتانية بييجوا يسألوا عليك..

انتظرت قليلًا آملة أن يُجيبها بلا فائدة، فأردفت:

- يا سعدي لو سمحت قوم، في موضوع مهم لازم نتكلم فيه وما ينفعش يستنّى أكتر من كده..

- خير بس يا إبتسام؟ مفيش حاجة بقت مهمة خلاص..

- خير، كله خير.. قوم بس اشطف وشك بشويّة ميّة واتوضَّى وصلي ونتكلم وإحنا بنشرب الشاي بلبن زي زمان.

رد متثائبًا:

- حاضر.. هقوم أهو.. بقيتي زنّانة أوي وزيادة عن اللزوم.

تُعقِّب ساخرة:

- أنا برضو إللي بقيت زنانة زيادة عن اللزوم!! ولّا حضرتك يا أستاذ إللي بقيت كسلان وبزيادة عن اللازم؟

بعد أن استيقظ.. خفضت إبتسام صوت المذياع قليلًا والذي لم يتوقف عن التشغيل وتحديدًا على موجة إذاعة القرآن الكريم منذ وفاة والدها، ناولت أخاها كوب الشاي وتناولت هي الكوب الآخر وأمسكته بين كلتا راحتيها وكأنها تحاول امتصاص بعض الحرارة منه وجلست مواجهة له على المقعد الأسيوطي التصميم، ذو الكسوة البَنيّة اللون، والذي طالما كان مقعد أبيها المُفَضل، وبدأت بالتحدث:

- إزيّك دلوقتي؟

- مش كويس.. تقدري تقولي زفت والحمد لله.. غياب بابا قاطع فيّا أوي..

- ومين سامعك؟! كان الأب والصاحب والسند، الله يرحمه.. بس الحياة لازم تستمر ولا إيه رأيك؟

- للأسف، عندك حق..

- بما إن عندي حق.. فاكر أستاذ أحمد الصعيدي زميل بابا في الشغل؟

- أيوة طبعًا.. ماله؟!.. ما يكونش مات هو كمان؟!

- لا.. هو كويس وعدّى علينا إمبارح..

عقَّب مُندهشًا:

- هو كان لسه ما عزّاش في بابا؟!

- بالعكس، الراجل كان من أول الناس إللي جت تعزي، بس هو جه إمبارح لسبب تاني خالص..

- خير؟

- خير.. كله خير.. الراجل جه يِطلب مبلغ بيقول إن بابا الله يرحمه كان سالفة منه من فترة.

- وده وقته برضو؟!.. الناس جرالها إيه بس؟!

(قالها ووضع كوب الشاي على منضدة أمامها ولم يرتشف منه إلا رشفتين أو ثلاث)

- الراجل معذور يا سعدي.. بيقول إن كتب كتاب بنته كمان شهر وإنه مزنوق في فلوس جهازها وكان مكسوف وهو بيطلب الفلوس وفعلًا حسِيت من كلامه ونظراته إن الراجل في ورطة وقالّي إنه عارف الظروف وكمان إن الوقت مش مناسب وعلشان كده قال قبل ما يمشي لو الفلوس مش جاهزة مفيش مشكلة وإنه هيحاول

يتصرّف بطريقة تانية..

- كام المبلغ؟
- خمسة وعشرين ألف جنيه..
- يا خبر أبيض.. و بابا يستلف مبلغ زيّ كده ليه؟!

(قالها بعد أن انتفض من مقعده ضاغطًا بكفه الأيمن على جبهته)

استطردت إبتسام سردها:

- أنا كمان اتخضِّيت نفس خضتك دي ويمكن أكتر، وعشان كده بعد أستاذ أحمد ما مشي دخلت جري أوضة بابا وبصِّيت في أجندته إللي كان بيكتب فيها كل حاجة ولقيته فعلًا كاتب إنه استلف المبلغ ده علشان يدفع فلوس عملية عمك في البلد.
- القلب المفتوح؟!!..
- بالظبط كده..
- هو عمي جه العزا؟
- لا.. بعت تلغراف..
- والله عجيبة يا دنيا!!.. الله يرحمك يا بابا كنت أصيل مع إللي يستاهل وكمان إللي ما يستاهلوش للأسف..
- إنت عارف بابا، ما كانش بيهمّه بيعمل الخير لمين، وكان بيقول دايمًا الخير ربنا هيجازينا عنه خير..
- عارف.. الله يرحمه كان طيّب زيادة عن اللازم.. وهنعمل إيه؟
- فكرت، إنه ممكن تكون له مكافأة نهاية خدمة وفعلًا اتصلت

بواحد من زمايله- المهندس عيّاد – ما إنت عارفُه، عشان يسأل لنا عن موضوع المُكافأة أو حتى إذا كان لبابا أيّ فلوس عند أي حد من الزُملا وأي مستحقات من أي نوع، الراجل ما اتأخَّرش بصراحة وردّ عليّا تاني يوم "بإن كل مُستحقاته اتحجزت لإنه كان عامل إستبدال معاش" زيّ ما إحنا عارفين، ده غير إنه اتوفى قبل سن الستين..

- وإيه علاقة سن الستين بإللي بنتكلم فيه؟..

بعد تنهيدة وشت بالكثير من الهّم والحزن، أجابت:

- لايحة العمل يا سيدي، فيها بند صريح إن الوفاة قبل الستين ولو بيوم واحد بتمنع ورثة الموظف إنهم ياخدوا حقوقه كاملة.

بعد أن غطَّى وجهه براحتيه وعاود الجلوس مُجددًا وكأنَّه قد شعر بدوار مفاجئ، عقَّب:

- يعني تلاتين سنة شغل مش كفاية إن أهله ياخدوا حقوقه كاملة؟!

- بالظبط، ده إللي وضَّحهولي المهندس عياد، وكتبت كل إللي قاله بالتفصيل في أجندة بابا الله يرحمه، علشان لو عاوز تفهم أكتر.

- والعمل؟

- أنا محوّشة ١٠٠٠٠ جنيه وإنت شايل معايا زيّهم، ده غير إني هقبض مبلغ مش بطّال كمان يومين بعد ما أسلِّم رسالة الماجستير للمكتب إللّى بتعامل معاه وكان باعتهالي عشان أترجمها..

- وهنعيش إزاي ومنين؟!

- ربنا هيفرجها.. المهم نفُكّ دين الحاج عمر ونفُك زنقة الراجل إللي مالوش ذنب في أي حاجة.. الراجل لا له ذنب إن بابا استلف منه، ولا ذنب في عملية عمك، ولا له يد في وفاة بابا طبعًا..

صمتت قليلًا في محاولة منها لمنحه فرصة للتفكير ومراجعة النفس، ثم أكملت:

- وعلشان كده لازم ترجع شغلك، لإننا محتاجين لكل قرش دلوقتي.. وكفاية أسبوع راحة وحزن..

قالتها وصمتت تمامًا مُنتظرة الإجابة التي تتمناها، لكن فترة صمته لم تكن قصيرة، إذ كان سعدي شاردًا في صورة أبيه المُعلَّقة على الحائط المواجه له، ذاك الحائط الذي امتلأ بالشروخ وتجلَّى من خلال بعضها بعض ظلال الطوب الأحمر الذي بُنِيت به الحوائط وبهتت ألوان طلائه كسائر حوائط منزلهم البسيط بفعل عوامل الدهر وعدم الترميم لفترة طويلة من الزمن، إلى أن نظر إليها وقال:

- وعلشان كده مش لازم أرجع الشغل..

- بتقول إيه بس؟! ربنا يهديك..

- قوليلي.. بعد ما نسدِّد فلوس الراجل، هيتبقى معاكي كام؟

- مش كتير..

- كام يعني؟

- حوالي ٣٠٠٠ جنيه

- كويس.. حضّري ألفين جنيه، ولا أقولك خليهم ٢٥٠٠ وقومي إلبسي علشان هنروح مشوار.

- ليه ٢٥٠٠ جنيه؟ ومشوار فين؟!

- هننزل نشتري بدلة وقميص وكرافت وشوز.

عقبت بانفعال واضح:

- إنت اتجننت..؟ إحنا في إيه ولّا إيه!!

- أنا عقِلت.. قومي بس إلبسي ويلّا بينا..

(قالها وهو ينهض وأمسك بيدها ليَنهضها رغمًا عنها)

- يا سعدي.. الله يكرمك إرحم نفسك وارحمني.. أنا والله مش ناقصة.. ده لا هو وقت جنان ولا أفكار مالهاش لازمة.. إحنا مديونين وفي ورطة ومش عارفين بكرة شايل لنا إيه..

- إسمعي كلامي بس وهبقى أفهِّمك بعدين.

- هقول إيه بس!!.. أمري لله.. حاضر...

قالتها بعد تنهيدة عميقة، كانت كَلَفحة صهدْ يوم صيف حار جدًا...

***

بعد مرور ثمانية أيام على وفاة المهندس (عمر)...

في الطابق الثاني من ذاك المبنى الشاهق المُطلّ على شارع التسعين بالتجمع الخامس بالقاهرة، الذي تَمَركَز فيه غالبية كبار الأطباء وأشهرهم على وجه الإطلاق وكذلك مراكز التجميل ذات الصيت والسمعة والتي لا يرتادها إلا ما يُطلق عليهم صفوة المجتمع، بينما احتلت العديد من محلات التسوق لأشهر التوكيلات والماركات العالمية أدوار الميزان منه - كان مركز الدكتور أحمد شلتوت للمحاماة والإستشارات القانونية- والذي يُعدّ واحدًا من أعلام المحامين وأذيعهم صيتًا، بل أكثرهم شهرة على وجه الإطلاق والعموم، كان عميدًا لكلية الحقوق جامعة القاهرة قبل بلوغة السن القانونية للتقاعد وبعدها تَفرَغ لإدارة مركزه ولم يُفكر حتى أن يستمر بعمله بالجامعة كأستاذ غير متفرغ كحال أقرانه..

المركز كان على مساحة تقترب من الخمسمائة متر مربع واحتوى على ما لا يقل عن خمسة عشر حجرة، كان أكثر ما يميزه هو بهو الاستقبال والذي من رحابة مساحته لا تستطيع العين المجردة الإلمام بجميع تفاصيله إلا بعد فترة طويلة من النظر والتأمل..

أثاث المركز كان راقيًا للدرجة التي تُشعرك إنك تتجوّل داخل متحف صغير للأنتيكات والتحف النفيسة، بالإضافة لبعض قطع من الأثاث النادر، كذلك كان جمال وروعة النقوش على الجدران والتي حُفر أغلبها يدويًا بالتأكيد على يد أحد كبار الفنانين التشكيليين، إضافةً إل تَنوّع مصادرالاضاءة التي وُزِّعت بأرجاء المكان بمنتهى الدقة والتنسيق لتبرز روعة الديكورات وفخامة أثاثه، ناهيك عن فخامة السجاجيد بمقاساته المختلفة ذات النقوش البارزة والألوان الزاهية والتي تُشعرك بأنها نُسِجَت لتُعَلِّق على الحوائط لا لتطأ عليها

بالأحذية والتي افترِش بها أغلب مساحة البهو.

كذلك كانت الموسيقى السابحة عبر أرجاء المكان والمنُبعثة من خلال نظام صوتي مُجسّم قد وُزِعت السماعات الخاصة به في جميع زوايا المركز بإحترافية شديدة حتى تكاد تُعطيك الإيحاء بأنك داخل قاعة سينمائية ذات تكنولوجيا صوتية عالية.

على طرف بهو الاستقبال وتحديدًا على يسار مدخله، ووراء مكتب إستقبال ضخم، كان يصطفّ ثلاث من السكرتيرات، أقل ما يوصفن به بالفاتنات، رائحة عطرهن تفوح في كل جنبات المكان وكأنَّك داخل متجرٍ لبيع أفخر وأثمن أنواع العطور، ناهيك عن تناسق زيّهن وتوحّده.. كذلك الشارة الصغيرة التي اعتلت صدورهن مُشيرةً إلى الاسم الأول لكل منهن، كُنَّ تبدُنَّ تمامًا وكأنهن جزءاَ مُكملًا لجمال المكان وروعته من حيث أثاثه أو تصميمه وديكوراته..

كل تفصيلة كانت تعطي الإيحاء وتزرع في يقين أي زائر للمكان أنه على وشك أن يقابل شخصاً غير اعتيادي، شخص من نوعية البشر الذي لا تمنحك الحياة فرصة للإلتقاء بهم إلا قليلًا.. وقد لا تمنحك إياها أبدًا.

لم يكن هناك شيئًا من قبيل الصدفة أو لمجرد الزهو أو العبث، ولم تكن لتُنفَق تلك الأموال إلا لما هو أكبر وهو حصاد أضعاف الأموال التي أنفقَت، والأهم هو جني المزيد من العلاقات والتي بدورها تمنح ذاك المَزيج السحري من النفوذ والمكانة الإجتماعية.. تلك هي الحصانة الحقيقية التي يسعى إليها الغالبية، تماماً كالمصل الواقي من أشد الفيروسات فتكًا وأكثرها انتشاراً.

مع دقات الساعة، مُعلنة الخامسة والنصف مساءَ..

عرَج سعدي لداخل المركز مُتأنِّقًا بخطوات شديدة الثبات ومُبتسمًا تجاه أحد السكرتيرات، مُحدِّثًا إياها:

- مساء الخير..

اعتدلت قليلًا في جلستِها، وبإبتسامة رسمية ردت التحية:

- مساء الخير يا فندم.
- لو في إمكانية.. كنت عاوز أقابل دكتور شلتوت.
- قضية ولَّا موضوع شخصي؟
- قضية، وفي نفس الوقت حاجة شخصية.
- في ميعاد سابق؟

(سألت وهي تسترق النظر لشاشة الحاسوب وكأنها تراجع جدول مواعيد الدكتور شلتوت..)

بنحنحة خفيفة رد سعدي:

- للأسف لأ.
- وللأسف برضو الدكتور مش بيقابل حد من غير ميعاد سابق، ده غير...

قاطعها سعدي، مُسرعًا:

- بس الموضوع فعلًا عاجل ولا يحتمل التأخير أو الإنتظار ليوم تاني علشان نحدد ميعاد..

ألقت نظرة سريعة مرة أخرى على شاشة الحاسوب ومع نظرتها للحاسوب كانت ترمقه خلسة بطرف عينها في محاولة منها لإستنتاج أي نوع من الأشخاص هو، حيث اعتادت أن يرتاد المكان العديد من الناس الذين يطلبون إعانات أو خدمات شخصية وإلى غير ذلك من السخافات.. أشاحت بوجهها عن شاشة حاسوبها، وبعد أن اكتست ملامحها بإبتسامة متصنعة قالت:

- في ميعاد كان محجوز واتلغى قبل حضرتك ما تيجي بدقايق..
- تمام.. كويس جدًا.

(قالها بعد أن تنهّد بإرتياح)

- بس للأسف قُدَّام حضرتك على الأقل ساعة ونص إنتظار و...

قاطعها سعدي مجددًا:

- ساعة ونص!!
- ده على الأقل، ولو مستعجل ممكن تقابل أستاذ جمال – مساعد الدكتور- ..
- مع كامل إحترامي لمساعد الدكتور، بس أَفَضَّل أقابل الدكتور شخصيًا.. مفيش مشكلة.. هستنّى...

جلس على أحد مقاعد البهو الوثيرة التي تُشعرك بأنك تجلس على كرسي عرش أحد المملكات الصغيرة، مُنتظرًا موعد المقابلة، مُتأمِّلًا للجالسين حوله الذين جمع بينهم أناقة الملبس ذو التكلفة الباهظة والأرستقراطية، لكنهم اختلفوا فيما بدا على وجوههم من إنفعالات، فمنهم مَن كان عابسًا.. وآخر شاردًا.. وقلة بدا عليها بعض دلالات

الإرتياح، كذلك قضى وقته مُتأمّلًا التفاصيل المُختلفة لبَهو الإستقبال وخاصة تلك الساعة الكلاسيكية القديمة الطراز ذات البندول الذهبي الذي يُصدر رنينًا مُدويًا كل ثلاثين دقيقة كجرس الكاتدرائيات الضخمة.

بعد قُرابة الساعتين، اقتربت منه إحدى السكرتيرات، لم يشعر بقدومها إلا بعد أن امتلأت أنفه برائحة عطرها التي كانت تفوح منها، حيث كان شاردًا ما بين تأمّل جمال المكان من ناحية والتفكير في المُقابلة التي على كان وشك أن يُجريها لتُخبِرهُ بحلول ميعاد مقابلته ومُصطَحبَة إياه لحجرة مكتب الدكتور شلتوت..

بمجرد ولوجه لداخل الغرفة وبإبتسامة رسمية كست وجهه، بادره قائلًا:

- مساء الخير يا دكتور.
- مساء الخير..

قالها وهو يشير بيده باتجاه أحد المقاعد المواجهة لمكتبه ذو السطح الزجاجي واستطرد:

- إتفضل استريّح.. خير؟
- خير إن شاء الله، أنا سعدي نحلة وكنت جاي أقابل حضرتك وطمعان إني أكون واحد من ضمن فريق المحامين المحظوظين إللي بيشتغلوا عند حضرتك..

كان الرجل ذو هيبة وصوت أجش رصين وشعر أسود ذو سوالف اكتسى معظمها بالشيب.. بشكل عام كان يبدو كباشوات ما قبل ثورة

يوليو الذين صوّرتهم لنا الأفلام المصرية الكلاسيكية.. كان يتحدث بتمهّل وكأنه يفكر بكل حرف قبل أن ينطق به.. بعد أن طبّق بيده اليمنى على أنامل يده اليسرى ومستندًا بهما على سطح زجاج المكتب، قال:

- للأسف، ما عنديش مكان لأي حد جديد..

بعد لحظة صمت، استطرد بلهجة حملت كثير من الإستياء:

- وبعدين السكرتيرة بلَّغتني إن مقابلتك بخصوص قضية..!!

عقَّب سعدي مُسرعًا:

- قضية وموضوع شخصي، وسألتني لو كنت عاوز أقابل مساعد حضرتك..

- ماشي.. ماشي أيّا كان.. بالنسبة للموضوع الشخصي، أعتقد خلاص.. إيه هي القضية؟

- يا افندم.. هو في قضية أهم من مستقبلي؟! وإني أكون واحد من ضمن فريق العمل التابع لحضرتك؟ أعتقد دي أهم قضية بالنسبالي وأنا جاي لأحسن وأكبر محامي في مصر علشان يُفُكّ لي طلاسم القضية دي..

بعد أن لَمِحهُ سعدي يحاول إخفاء إبتسامة قد هَمّت أن تعتلي وجهه، استطرد وكأنه لم يُرِد إستنزاف لحظات سخونة الحديد ليستكمل طرقه وهو ساخن:

- أنا مش عاوز ولا طالب مرتب، ولا حتى مكتب ومش هبالغ لو قلت أنا مش عاوز حتى كرسي أقعد عليه..

- أومال؟!
- مش عاوز غير تدريب، وكفاياني شرف إني أكون تلميذ لأستاذ القانون دكتور أحمد شلتوت..
- وإيه كمان؟
- مفيش يا افندم.. إللي قلته هو كل حاجة..

ابتعد عن مكتبه قليلًا بمقعده القابل للحركة والدوران، ثم استند برأسه على خلفيته ومستندًا بساعديه على كلتا مقبضيه، وسأل سعدي:

- إنت دفعة كام؟ واشتغلت قبل كده ولاّ لأ؟ وعندك كام سنة؟
- للأسف ما اشتغلتش قبل كده، وعندي ٢٥ سنة، واتخرجت من سنتين بتقدير إمتياز مع مرتبة الشرف.
- وما اشتغلتش قبل كده ليه، طالما متفوق و من أوائل دفعتك؟
- لأسباب تقدر حضرتك تعتبرها شخصية.

لحظات من الصمت قضاها شلتوت متأمِّلًا في قسمات وجه سعدي والذي كان بدوره شاخصًا للأرض ولا تزيغ عينيه لا يمينًا ولا يسارًا، أمسك بسماعة الهاتف مُخاطبًا مديرة مكتبه:

- إنجي.. عاوز جمال..

التفت شلتوت له مجددًا، مُحدِّثًا إياه:

- موافق، وما تفتكرش إني وافقت علشان تقديرك أو ترتيبك على الدفعة أو علشان الكلمتين المزوّقين إللي مليانين نفاق إللي قلتهم

من ثواني دول.. أنا وافقت بس علشان شايف في عينيك إنك مشروع محامي ممكن يكون كويس.. ممكن، مش أكيد.

- يا رب أكون قَدّ الشرف ده وقَدّ مسئولية مكان بالحجم ده..

بمجرد أن أتمّ سعدي جملته دخل جمال، فبادره شلتوت بلهجة آمرة وهو يشير بيده باتجاه سعدي:

- سعد، محامي صغير..

سعدي، مُقاطعًا:

- "سعدي" يا افندم.

- ماشي.. المُهِم إنه هيبدأ معانا من بكرة وهيكون تحت إشرافك إنت شخصيا..

ثم التفت مجددًا لسعدي آمرًا:

- بُكرة وإنت جاي هتجيب معاك شهادة التخرج وشهادة مُفصّلة بدرجات كل المواد، وطبعًا فيش وتشبيه، وأستاذ جمال هيقول لك على الباقي..

بعد أن شاح بوجهه عنه قليلًا والتقط بعض الوريقات من على سطح مكتبه محاولًا إعادة ترتيبها، رمق سعدي بنظرة أخيرة وكأنّها الأمر بالإنصراف، قال مُقتضبًا:

- بالتوفيق..

- ألف شكر، وإن شاء الله أكون عند حسن ظن حضرتك.

- عاوزك تكون مع جمال طول الوقت، زيّ ضِلّه بالظبط، وهو إللي

هيبلَّغني أخبارك إيه..

- أمرك، وإن شاء الله كل إللي سعادتك هتسمعه عني هيكون خير.. أستأذن أنا...

(قالها وهو ينهض عن مقعده).

ثم تَبِع جمال بنفس وتيرة خطواته إلى أن خرجا معًا...

***



ذات اليوم ليلاً ....

حيث كانت إبتسام تقوم بإعداد وجبة العشاء بمطبخهما المتواضع، تُفَاجَأ بسعدي يقف خلفها، مُحاولًا مُفاجأتها وإخافتها كعادته دائمًا، ومُتسائلًا:

- إتخضيتي، صح؟

- مش هتبطّل تستغل إني لما ببقى في المطبخ ما ببقاش سامعة باب الشقة وهو بيتفتح، حمد الله على سلامتك.. ربنا ما يحرمني من دخلتك عليّا حتى لو كنت بتحب تخضّني..

- الله يسلمك ولا يحرمني منك أبدًا يا رب.

- وبعدين إيه الشياكة دي كلها!

قالتها بعد أن التفتت إليه وأردفت مُتهكمِة:

- فرحك كان النهاردة ولّا إيه؟!

عقَّب سعدي مُبتسمًا:

- حاجة زيّ كده..

- طيب روح غيّر هدومك ودقايق وهيكون العشا جاهز ونتكلم وإحنا بناكل علشان مش مرتاحالك..

(قالتها وهي ترمقه بنظرات لا تخلو من خبث أنثوي واندهاش مُجتمعين)

أضاف سعدي قبل أن يمضي:

- وهصلّي العشا بالمرة علشان أبقى فاضيلك...

- ما تنساش تدعيلي في سجودك..
- من غير ما تقولي، وليّا مين غيرك تاني أدعيله؟

على مائدة بلاستكية مستديرة متوسطة الحجم وبسيطة التصميم، جلس الأخوان وقد انتهت إبتسام من إعداد وجبة العشاء، وبدءا بتناول الطعام في صمت، إلى أن سألته:

- مش هتقولّي إيه بيحصل؟
- قررت أشتغل محامي..
- بجد!
- اه والله، ولقيت شغل كمان.
- أكيد بتهزر!! أو بتستغل سذاجتي زيّ عادتك.
- لا والله.. زيّ ما بقولِك كده بالظبط.
- برافو عليك.. ولقيت شغل فين؟
- في مكتب (أحمد شلتوت)..

سألت وهي تناوله رغيف خبز:

- هو ده المحامي المشهور إللي اسمه كل يوم والتاني في الجرايد؟!
- وفي برامج الفضائيات كمان.
- بجد يا سعدي؟!.. ألف مبروك.. ربنا يوفقك يا رب.. أيوة كده فتحت نفسي على الأكل.
- بس في مشكلة..

- خير؟
- هاشتغل فترة ما اعرفش قّد إيه تحت التمرين ومن غير مرتب..
- وماله..؟ دي مش مشكلة خالص.. المهم البداية وإنت عارف رأيي من زمان إنك حرام تبقى من أوائل دفعتك وتشتغل في كافيه حتى لو كنت مديره..
- بس هنصرف وهنعيش منين؟ والحياة هتمشي بينًّا إزاي؟
- ما تشغلش بالك.. أنا عندي غويشة دهب هبيعها، الغويشة إللي كان الحاج الله يرحمه جابهالي هدية التخرج، فاكرها؟
- أكيد فاكرها.. فاكرها لأن مفيش غيرها أصلًا..
- وكما ن عندي شوية حاجات بترجمها هتدخَّلنا شوية فلوس مش بطّالّة.. المهم، إنت تركز في شغلك الجديد وسيب تدبير أمور البيت علياّ..

وأضافت متهكمة:

- أنا مش أختك الكبيرة وبس.. أنا وقت اللزوم أخوك الكبير كمان..
- إنتي كل حاجة يا إبتسام أصلًا..
- مبروك ليك ولياّ.. ياه الحمدلله يا رب.. أخيراَ سمعت خبر حلو..

بعد أن فرغا من تناول عشائهما، مضى كل منهما إلى غرفته ولم ينفكّ سعدي بعد أن استلقى على سريره من التفكير في أخته التي تتنازل عن كل شيء كبير كان أم صغير في سبيل تحقيق أحلامه، التي لا تتردد لحظة واحدة في التخلّي عن الزهيد أو النفيس من أجله وبصفاء نيّة

نادر الوجود، فظلَّ يُتمتم:

"لو كان فيكي يا دنيا خمسين أو ستين إبتسام، كانت يمكن كل مشاكل العالم اختفت.. لا مش يمكن.. أكيد.. أكيد.. أكييييد"...

ثم غطَّ في نوم عميق..

***

أمضى سعدي شهره الأول في العمل مُتفرجًا مُراقبًا للأحداث عن بُعدْ، متعمِّدًا عدم التدخل أو التداخل، لا من قريب ولا من بعيد، لا في إحداث أو حتى نقاش.

كان يقضي صباحه من كل يوم عمل ووصولًا لقُرب وقت العصر بين أروقة المحكمة ما بين مُرافقًا لأحد المحامين القُدامَى من فريق عمل شلتوت، أو مُختلسًا بعض الوقت لمتابعة بعض الجلسات الجنائية بالإستماع، بل والإستمتاع أيضًا ببعض المرافعات لمحامين آخرين..

في نفس الوقت لم يدَّخر جهدًا ولا طاقة في محاولة التقرَب والتعرَف بل والتودَّد في كثير من الأحيان إلى كل مَن استطاع التواصل معه من طاقم سكرتارية الجلسات أو الإداريين العاملين في مختلف التخصصات وكذلك المُحضَرين، حتى حُجّاب المحكمة لم يُستثنوا من ذلك، وعُمّال البوفيهات، فكان على يقين بأن لكل شخص مهما صَغُر شأنه أهمية كبيرة في وقت ما ربما آجلًا أو عاجلًا.

عبر كل لحظة من اللحظات التي كان يقضيها يوميّا داخل المكان والذي من المُفترض به أنه المنوط بتحقيق العدالة واستقامة الميزان،

كان يزداد تيقُّنه من أن القانون كثيراَ ما يقف عاجزاً عن إعطاء الحق لذويه بسبب التلاعب أو كثرة الإجراءات وتعقيداتها، أوبسبب ثغراته والتي يستغلَّها الكثيرون للنفاذ عبرها لينتصروا للباطل، كان دائمًا ما يُثير تَعجّبه بل واندهاشه وذهوله ذلك السؤال الذي قلَّما فارق ذهنه: "إذا كان الكل على علم بتلك الثغرات، فلماذا لا يُحرك أحد ساكنًا لسدَّها؟!" وكان يفترض الإجابات "هل هو الروتين أم الإعتياد عليها أم أن من مصلحة البعض الإبقاء عليها لاستغلالها في الوقت المناسب". بالرغم من اختلاطه بالعديد من المحامين الشرفاء من خلال تعاملاته اليومية بالمحكمة ويقينهُ بأنَّ الغالبية العظمى من المحاميين على قدر كبير من الأمانة المهنية، لكن لتواجد قلة يعرفون كيف يستغلون تلك الثغرات يُسيئون للكل، كنقطة الحبر إذا ما سقطت داخل كوب من الماء النقي فلوّنته بالكامل.

دائمًا ما كان يتذكر كلما وطئت قدماه دار العدل ذلك المكان المنوط به الحفاظ على العدالة وسلامتها من أيّ خلل أو تشوّه، كيف غابت العدالة عندما ضاع حلمه بسبب انتمائه لعائلة بسيطة لم تكن يومًا ضلعًا من الأضلاع ذات الشأن؟، بجانب تَذَكُّره لأب أضاع عمره كاملًا مُتقاضيَا الفُتات بسبب نزاهته، وكيف أنه ظل طيلة حياته داخل دائرة المعاناة من كثرة الهموم وتراكُم الأعباء المالية بسبب راتبه الضعيف والذي كان من المُفترض أن تحيا عائلته الصغيرة عليه، وكيف أنه وزوجته ظلَّا لسنوات طوال يلبسان نفس الملابس والتي قد بليَ معظمها لإنعدام قدرتهما على إقتناء الملابس الجديدة حتى ولو كانت زهيدة الثمن، وتفضيلهما له ولإبتسام، ويكفي القول أنه لو كانت

ملابسهما لديها القدرة على الكلام لصرخت صرخات سمعها القاصي والداني من كثرة ما ذاقت من آلام وخز إبرة الحياكة وهي تخيط ما تَمزّق منها نتيجة لكثرة الإستخدام والغسيل المتكرر.. ناهيك عن الطعام وكيف أنهما طوال الوقت كان يدَّعيان بأنهما أكلا نصيبهما من اللحوم -إذا وجدت- قبل الغذاء، ليتركاها للطفلين، وغير ذلك الكثير والكثير..

كان هذا صباحه يوميًا، أما عن فترة المساء، فكانت في مكتب المحاماة من السادسة وحتى الحادية عشرة مساءً اعتاد أن يقضي منها قرابة الساعتين في غرفة الأرشيف، تلك الغرفة المُخصّصة لحفظ ملفات القضايا التي انتهى تداولها بساحات المحاكم، كان يقرأ فيها بنهم، مهتمًا بكل تفصيلة من تفصيلاتها ومُدَوِّنًا ملاحظاته وأيضًا إعادة ترتيب الملفات من جديد على حسب الأهمية ثم الأقدمية وكأنه يقوم بأرشفتها من جديد..

أما ما تبقى من الخمس ساعات التي يقضيها يوميًا هناك، فكان يُلازم جمال كظلِّه حسب تعليمات شلتوت، مُنفِّذًا لكل ما يطلبه منه جملةً وتفصيلًا دون إبداء رأي أو إعتراض أو نقاش أو حتى مماطلة أو تأخير.

جمال سعد الدين - مدير المركز- ذو الملامح المصرية الكلاسيكية الأصيلة وامتلاكه لحس الدعابة، هو يمثل ذلك المثال المُتجسِّد للشاب الذي بدأ حياته العملية من الصفر بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فبعد تخرّجه ونتيجة لعدم امتلاكه لأي مُدخرات كان يذهب للمحكمة يوميًا لاجتذاب بعض قضايا الفقراء أو حتى القيام ببعض الأعمال اليسيرة لبعض روّاد المحكمة من الإستعلام عن موعد دعوى

قضائية أو إستخراج نسخ رسمية من بعض المستندات، و بمرور الوقت تعارف على بعض المحاميين الآخرين فكان أحيانًا يحضر بالنيابة عنهم في بعض الجلسات إذا ما تغيّب أحدهم أو كانت لدى أحدهم عدد من الجلسات بدوائر قضائية مختلفة بنفس التوقيت، مما أكسبه بعض الخبرة التي لا بأس بها، ظل هكذا ما يقرب من السبع أعوام الى أن نما إلى علمه بأن أحد المحاميين الكبار على وشك أن يفتتح مكتب للمحاماة و ينتوي أن يوظِف عددًا من شباب المحاميين، وبالفعل حاز على وظيفة في ذاك المكتب الذي هو مركز شلتوت للمحاماة بعد أن اجتاز عدد من الإختبارات الوظيفية، وبعد خمسة أعوام من العمل مع شلتوت أصبح مديراَ للمكان.

كانت أهم الأسباب لانتقاء شلتوت له لهذا المنصب هو أمانته والكتمان الشديد الذي يتمتع به بالإضافة للطاعة العمياء التي يتميز بها.. برغم كونه مديراَ للمركز كان وما زال شديد التواضع مع كل من حوله ولا يبخل على أحد بأي معلومة أو إستشارة وهذا ما جعله محبوبًا لحد كبير من العاملين..

دائمًا ما كانت أنوثة وأناقة مديرة مكتب شلتوت -إنجي- يلفتان انتباهه، وكذلك أسلوب إدارتها للمكان، ومع ذلك لم يحاول قطّ التقرب منها أو حتى مجرد التحدَّث معها، إنما كانت فقط النظرات من بُعد، بالرغم من أن نظراته إليها كانت خاطفة كسرعة البرق، مع ذلك كانت فاحصة مُتفحَصة، ومع كل نظرة كان يُسجِل بعقله كل تفصيلةمن تفصيلاتها حتى ولو كانت صغيرة وغير مُلفتة للكثير سواء من العاملين بالمركز أو روّاده، ثم يجمع تلك التفاصيل داخل ثنايا

عقله لِيَكوِّن صورة كاملة لها، تماماً كاللعب بالبازل.. تلك الصورة الكاملة التي لم تُغِب عن خاطره ولو للحظة.. ولن تغيب.

بمجرد مغادرته لحجرة الأرشيف، لم يكن مسموحاً له بتدوين أي معلومة عن أي قضية أيّا كان حجمها من القضايا التي لا تزال يتم تداولها بالدوائر القضائية المختلفة، إنما كان يُتابع حديث المحامين عن مُختَلف القضايا التي يقوم المكتب بإدارتها، ومن حينٍ لآخر يُسمَح له بقراءة ملف قضية يختارها له جمال بنفسه ثم التشاور معه فيها وأحياناً لإبداء الرأي ليتمكَّن من تكوين فكرة واضحة عن مدى استيعاب سعدي للعمل ومنظومته، تحسّباً لأيّ إستفسار من شلتوت عن مستواه ومدى كفاءته..

بلغ عدد المحامين العاملين في مركز شلتوت، العشرون محامي معظمهم كان من الذكور، عدا اثنتين وانحصر تخصصهما في إدارة قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بكبار الشخصيات وخاصة النساء منهم..

بالطبع لم يكن يَخفى على سعدي، بأن شلتوت هو المستشار القانوني لصفوة المجتمع وكبار رجال السياسة ولم يَخفى عليه أيضًا مدى وقدر حرصه بشكل عام على سرية العمل وخاصة في بعض القضايا التي تمسّ الرأي العام أو تلك التي تتعلَّق بأحد كبار الشخصيات، فلم تكن ملفاتها لتفارق مكتبه شخصياً ولم تكن مُتاحةً لأحد غيره، حتى جمال لم يَكُن ليطَّلع عليها إلا بوجود شلتوت نفسه وبالقدر الذي يُحدِّده هو..

إعجابه كان جليّا بالإلتزام الذي تمتَّع به العاملون في المركز، إبتداءاَ بأناقة ملابسهم الرسمية والتي لم يَكُن مسموحًا بإرتداء غيرها خلال ساعات عملهم، وكأنهم مدعوون لحفل بدار الأوبرا ومرورًا بإلتزامهم بالنظام الإداري وخاصة مواعيد العمل، وبالرغم من هذا كله، كان جليّا له المستوى المتواضع أو الشبه متواضع لغالبية المحامين هناك ولم يستثني من ذلك جمال ذاته، ودائمًا ما كان يدور بخلده سؤال مشروع: "هل يُعقل أن يكون شلتوت عاجزًا عن توظيف مَن هُم أكثر موهبة وذكاءاَ من شباب المحامين؟".. وخاصةً أن المركز يمثِّل عامل جذب لغالبية المحامين الذي يأملون للعمل به والإنتساب إليه.

بوجه عام.. كان الكل يتفانى في عمله نظراَ لرواتبهم الضخمة إذا ما قورنت برواتب الآخرين سواء العاملين مع كبار المحامين أو ممّن يعملون بشكل مُنفرد، بالإضافة للسمعة الطيبة التي يحظون بها لمجرد انتسابهم للعمل ضمن فريق عمل شلتوت..

بالرغم من منعه من تدوين أي شيء، لكن فطنته وتركيزه بالإضافة إلى قوة ملاحظته ساعدوه على تَذكُر جميع التفاصيل التي تقع عليها عينه من تواريخ الجلسات، لأسماء المُتهمين، حتى الدوائر المُنعقدة من خلالها مختلف القضايا لم تكن لتغيب عن ذهنه..

كان دائم الترقُّب لتلك اللحظة التي سيَعلن فيها عن نفسه كتربّص الأسد بفريسته لالتهامها ولكي يُفسح لنفسه المجال ليكون ضمن فريق العمل الأساسي، وكان يقينه يُخبره بأن الأوان قد أوشك على الإقتراب.

لم يسعفه الوقت طيلة أيام الاسبوع -عدا الجمعة- للإلتقاء بإبتسام؛ لعودته متأخراَ ومغادرته باكرَا، لكنه لم ينسَ يومًا وقبل خلوده للنوم

أن يطمئن عليها ولو بنظرة وهي نائمة خيفة إزعاجها، رغبةً منه في عدم إيقاظها بعد يوم يعلم أنه أحد أيامها الطويلة والمليئة بالإرهاق الناتج عن قيامها بجميع أعمال المنزل.

لم يغِب عن ذهنه قط كم من المجهود الذي تبذله يوميًا لتحافظ على سير الأمور بصورة طبيعية، أو على أقل تقدير بصورة تبدو طبيعية..

وككل ليلة وقبل أن يدخل غرفته لينام، يستقر أمام صورة أبيه مُتأمِّلًا هامسًا إليه ببعض الكلمات والتي تتكرر يوميًا..

***

إبتسام ذات السابعة والعشرين ربيعًا والتي تكبر سعدي بعامين، وهبها الله من الجمال قدرًا وافيًا، فكانت ذات بشرة بيضاء ذلك النوع من البياض الذي اكتسى بالقليل من الحُمرة الطبيعية التي تُزِيَده جمالًا وتوهُّجًا، كان طولها متوسط كأغلب الفتيات ومع ذلك امتلكت قوامًا مُتناسقًا لحد بعيد وبدون الخضوع لأيّ من برامج الحمية الغذائية التي تخضع لها أكثرية الفتيات والتي أصبحت صيّحة من صيّحات العصر..

كان أكثر ما يُميِّزها، ذلك الشعر الكستنائي اللون الطويل الذي يكاد طوله يصل لمنتصف عمودها الفقري، وكذلك اللون الوردي لشفتيها، وتلك الإبتسامة التي لا تغيب عنهما أبدًا.. تلك الإبتسامة الصافية التي تزرع السكينة و الطمأنينة في نفس كل مَن يراها.

رغم جمالها الذي طالما حُسِدَت عليها من أقرانها وأقربائها والذي

جذب إليها العديد من مُريدي الإرتباط بها إلا أنها فضَّلت أن تقوم مقام الأم بعد وفاة والدتهما وكان قرارها حاسمًا بألا تترك أباها وحيدًا..

لم يُشعَرها قرارها يومًا بالندم أو الحزن، حيث كانت على قناعة بأن الله قدَّر لها أن تكون سيدة المنزل بعد غياب الأم، وساعدها في ذلك إيمانهـا الفطري بأن كل ما يُقدّره الله لعباده هو خير وإن بدا غير ذلك.

لم يكن قرارها فقط تقديراً لوالدها ولكن أيضًا لأخيها، فكان لها الصديق قبل كونه الأخ الوحيد والصدر الحنون الذي كان دائمًا على أتمّ الإستعداد لاحتضانها إذا ما احتاجت إليه.

أُختصرت الحياة لديها، لتكون ربّة المنزل البسيط بإمبابة وأن تقوم مقام الأخ والأب إذا ما اقتضت الأحوال ذلك، وكذلك الأمر لم يخلُ من بعض الأعمال التي تُسنَدلها لترجمتها من حينٍ إلىحين حتى تكون سندًا لاحتياجات المنزل إذا ما لزم الأمر.

***

بحلول منتصف الشهر الثالث منذ بدء عمله بمركز شلتوت...

بمجرد وصوله مساءَ للمركز، لاحظ حركة غير عادية، حركة مضطربة، فكان الجميع يهرول لحجرة شلتوت وكأنه مشهد الحشر العظيم، وما أن لمحته إحدى السكرتيرات، أخبرته وهي تهرول بدورها لِتُخبر ما تبقَّى من المحامين:

- الدكتور عاوز كل المحامين في إجتماع حالًا.
- ليه خير؟
- إنت لسه هتسألني!!.. بسرعة روح لأن الدكتور شايط.. واضح كده إن في حاجة جامدة، ويا رب ما تكونش مصيبة..

انطلق سعدي مُسرعًا قدر إمكانه، بمجرد أن استقر أمام حجرة شلتوت، حاول قدر ما استطاع التسلل بهدوء حتى لا يَلفت إنتباه شلتوت، محاولًا ببطء شديد استكشاف مكان له بين زحام المحامين بالداخل، إلى أن انزوى بين عدد منهم بأحد أركان الحجرة.

كان جمال يتقدَّم الجمع وقد تصبَّب عرقًا من هول الموقف، وقد اقترب المشهد ممّا نسمعه من المشايخ عن أهوال يوم القيامة..

كان شلتوت ثائرًا ثورةً عارمةً ومُوجهًا توبيخه لجمال بكل الكلمات والألفاظ التي دنت بشدة من البذاءة، وبنبرة كادت الحوائط أن تتشقَّق من عنفها وبدت كطلقات نارية تندفع من مسدس آلي مُتعدِّد الطلقات، وجّه حديثه للجميع:

- عاوز أعرف هو أنا مشغّل محامين ولّا شويّة مساطيل؟!..يعني إيه جلسة تتنسي!.. إنتوا بتستهبلوا!.. أنا غلطان إني مشغَّل شويّة

أشباه محاميين.. حد يقوللي يعني إيه أسأل سي زفت جمال عن أخبار قضايا النهاردة.. البيه يقوللي "إن في جلسة اتنست"..؟!

خلال تلك اللحظات خرج شلتوت عن طوره الهادئ الرصين وقد خلع عباءة الباشوات وارتدى ثوب بائع البرتقال الذي يعلن عن بضاعته بصوته الجهير..

بعد لحظات من الصمت عمّت المكان بأكمله، حاول جمال الرد على إستحياء:

- يا افندم...

بينما استطرد شلتوت غير مُكترث به أو بحديثه:

- لو ما بقتش مركز يا جمال ومش أد المسئولية.. قول.. كمان الإستهتار ما يجيش غير في قضية لسواق وكيل مجلس الشعب.. أقول للراجل إيه؟..ما ترد يا سي زفت..

لم ينبت جمال ببنت شفة خيفة أن تناله المزيد من الإهانات أمام من يُديرهم وعاد الصمت ليكون هو العنوان الرئيسي، فلم يكن باستطاعة أحد سماع حتى صوت أنفاس الحضور رغم كثرتهم، وإذا بصوت قطع هذا السكون - كان سعدي-:

- ممكن يا دكتور أقول حاجة لو حضرتك هتسمح؟

- مش عاوز كلمة من أي حد.. كلام إيه إللي هيتقال..؟ ولاّ هسمع شويّة مبررات فارغة وكلام بتاع شوية عيال صغيرة...

صمت للحظات، قضاها ناقراَ على سطح مكتبه الزجاجي بقبضة يديه، تلك النقرات التي عكست مدى شدة الغضب الذي يموج بداخله

والتي كادت أن تُهشِّم الزجاج من عنفها، ثم التفت لمصدر الصوت، قائلًا:

- ها كنت هتقول إيه؟

بعدما تقدم خطوة للأمام، أجاب سعدي:

- يا افندم الجلسة ما اتنستش..

ظهرت علامات الإندهاش على شلتوت، وتساءل:

- تقصد إيه؟ وإنت مين أساسًا؟

وقبل أن يستمع لإجابة، التفت لجمال مُتسائلًا:

- مين ده؟!

بصوت متحشرج وشبه منعدم، رد جمال:

- سعادتك، ده سعدي نحلة، المحامي الجديد إللي حضرتك أمرت من فترة إنه يتدَّرب في المكتب..

- آه .. افتكرت.

التفت مجددًا لسعدي، مُتسائلًا:

- إزاي ما اتنستش؟! وضّح كلامك وبسرعة يا أستاذ.. قبل ما أكسر المكتب بإللي فيه على دماغتكم..

- حضرتك، أنا يوميًا بروح المحكمة الصبح..

قاطعه شلتوت:

- بسرعة.. إنت هتحكيلي قصة حياتك..!

- حاضر.. أنا بس بحاول أشرح لسيادتك الموضوع جه إزاي..

بالطبع كان سعدي يحاول أيضًا إبراء ذمته ليس فقط لشلتوت إنما للجميع وبالأخص جمال، فكأنما كان يحاول اصطياد مجموعة من الطيور بطلقة واحدة.

تنهّد شلتوت قائلًا:

- ها.. قول..

- أحيانًا لما بلاقي وقت فاضي بحضر شوية جلسات عشان أتعلم وآخد خبرة.. بالصدفة وأنا بقرأ الرول، لمحت اسم كان أستاذ جمال إداني الملف بتاعه علشان أقراه وأتناقش معاه فيه، ولما ما لقتش أي حد من الزملا حاضر مع المتهم، حاولت أتصل عليه، بس للأسف موبايله كان غير مُتاح وما كانش قُدامي أي إختيار لما سمعت حاجب الجلسة بينده على اسم الموكل بتاعنا غير إني أحضر معاه..

اعتدل شلتوت في جلسته وقد بدت عليه القليل من علامات الإرتياح، سأل:

- وحضرت معاه إزاي من غير توكيل؟!

- يا افندم، من ٣٥ يوم بالظبط أستاذ جمال عَمل لي تفويض قضائي عشان أقدر أعمل شوية حاجات بسيطة زيّ استخراج صور رسمية من القضايا أو المحاضر إللي محتاجينها أو أصوّر بعض الأحكام أو الصيَغ التفيدية لقضية معيَنة إللي هو بنفسه بيَحددهالي..

شلتوت مقاطعًا:

- ها.. وطلبت تأجيل الجسلة للإطلاع ولّا عملت إيه؟

- طبعًا.. لا..

قاطعه شلتوت مُنفعلًا، مُصيحًا:

- الله يخربيتك.. أومال عملت إيه؟

- المتهم خد براءة يا سعادة الريس.

انتفض شلتوت من مقعده غير مُصدِّق لما قد استمع إليه توًّا وقد عاود الدم السريان في عروقه، وتساءل في ذهول:

- إزاي؟!

وهنا تقدم سعدي المزيد من الخطوات بثبات وببطء شديدين وأجاب بلكنة لا تخلو من ثقة:

- الموضوع كان بسيط.. لمّا قريت الملف كنت عارف إن في خطأ واضح في إجراءات الضبط وقدِّمت الدفع* ده قُدام هيئة المحكمة والقاضي حجزها للحكم في آخر الجلسة واستنيت للساعة تلاتة ونص تقريبًا لحد ما عرفت إنه حكم بالبراءة وإخلاء سبيل المتهم من سراي النيابة..

بعد أن هدأ روعه تمامًا ومعه هدأت حدة نبرته، سأله مُجددًا:

- وليه ما بلغتش جمال بإللي حصل في القضية؟

- يا أفندم زيّ ما شرحت لسيادتك إني استنيت في المحكمة لحد ما

* الدفع: هو أوجه الدفاع الموضوعية أو القانونية المختلفة التي يثيرها الخصم لتحقيق غايته في الدعوى القضائية.

إتأكدت من الحكم، وأول ما وصلت المركز لقيت السكرتيرة بتبلَّغني وأنا لسه على الباب إن حضرتك عامل إجتماع لكل المحاميين.

- برافو عليك.. قولتلي إسمك إيه؟

- سعدي عمر نحلة.

نظر شلتوت لجمال والذي كان في حالة من الذهول كادت أن تصل به لحد الإغماء وأمره:

- يتعمل لسعد عقد النهاردة.

قاطعه سعدي، مُسرعًا:

- سعدي.. بالياء سعادتك..

بإبتسامة خفيفة علت وجه شلتوت، أكمل أوامره:

- يتعمل لسعدي عقد مع المركز بمرتب ٦٠٠٠ جنيه في الشهر.

وبالتفاتة صغيرة لسعدي، سأله:

- عاوز حاجة تانية؟

أجاب على إستحياء:

- يا ريت بس لو مكان أقدر أقعد فيه.. ده لو كان في إمكانية ولو مفيش، مفيش مشكلة خالص.

شلتوت رامقًا وآمرًا جمال مجددًا:

- يتشاف له مكتب يقعد عليه..

رد جمال وهو يحاول التغلُّب على الحشرجة التي منعت خروج صوته

من حنجرته ومحاولًا أيضًا تجفيف عرقه المتصبَب:

- حالًا يا دكتور..
- ومؤقتًا يتصرفله ٢٠٠٠ جنيه حالًا مُكافأة.
- حالًا يا دكتور.. أوامرك.
- وكل واحد يتفضَّل على شغله..

قبل أن ينصرف الجمع، نقر على مكتبه بأنامله كإشارة منه للفت انتباههم وتحدَّث لجمال بلهجة تحمل الكثير من التوبيخ والتقليل من شأنه، بل والإهانة:

- دي تاني غلطة خلال ست شهور.. غلطة كمان وما تزعلش مني..

ثم صمت وكان صمته دلالة على رغبته بانصرافهم جميعًا.

بدأ الجميع بالإنصراف واحدًا تلو الآخر، وإذا بجمال يحاول اللحاق بسعدي حتى اقترب منه هامسًا:

- مش غريبة إن ما تتبعتليش رسالة إنك حاولت تتصل عليّا؟!

أجابهُ سعدي، هامسًا أيضًا:

- غريبة فعلًا..

ثم استطرد ساخرًا:

- أنا رأيي نرفع قضية على شركة المحمول.

بإبتسامة غلب عليها الضجر والريبة، عقّب جمال:

- انت شايف إن ده وقت هزار وخفة دم!

واختفى الجميع..

***

بعد انتهاء فترة العمل المسائية، انطلق سعدي كالطفل الذي استطلع توّا ولادة هلال العيد وكأنَّه الوحيد الذي اكتشف ولادته وأراد إعلام كل مَن على سطح الأرض.. كانت السعادة تتملّك من كل خلجة وكل خلية فيه ولم يسيطر عليه إلا رغبته العارمة بإخبار إبتسام -رفيقة حياته- بما حدث توّا وإسعادها بتلك النقلة النوعية في مسار حياته المهنية، بعدما غابت عنهما السعادة لفترة طويلة..

كانت المسافة الزمنية بين عمله في التجمع الخامس ومسكنه ما يقرَب من الساعة والنصف بالمواصلات العامة، لكنه عاد لمنزله بعد ما يقرب من الأربع ساعات، فلم يستطع العودة دون أن يَمُر على المكان حيث يستقر جثمان أبيه -المقابر- المكان كان مُوحشًا والظلام الذي احتوى كل شيء وغلَّف المكان من جميع جنباته فزاده توحّشًا ورهبة، لكن تلك الأجواء لم تكن لتُثنيه عن الوصول لقبر والده، وما أن استقربه الحال أمام القبر جثى على ركبتيه، مُتحدثًا:

"جيت علشان أفرّحك يا حاج عمر.. ابنك النهاردة ابتدى المشوار إللي طول عمرك بتحلم بيه يا حاج، وقريب أوي هجيب حقك وحقي"..

ثم استطرد بينما تنهمر الدموع من عينيه:

"ما تعرفش أد إيه محتاجك جنبي في إللي جاي.. إللي جاي صعب أوي.. إدعيلي.. والنبي تدعيلي كتير وتدعي لإبتسام كمان، وعلى فكرة إنت واحشها أوي.. كنت عاوز أشتكيلك منها.. إبتسام بتتعب نفسها زيادة عن اللزوم.. يا ريت تقول لها براّحة على نفسها وتبَص لحالها ولمستقبلها.. هي مش واخدة بالها إنها بتكبر وكل البنات إللي في سنها

وإللي أصغر منها كمان اتجوزوا وعندهم بدل الولد اتنين.. بالله عليك تقولّها.. ما تنساش يا حاج بالله عليك، أنا مش عاوز أكون السبب في وقْف حالها، بس هي دماغها ناشفة زيّ ما أنت عارف، بس هي هتسمع كلامك علشان بتحبك ومش هي بس أنا كمان بحبك.. بحبك أوي.. تعرف يا حاج عمر مش هكون بكدب عليك ولا ببالغ لو قولتلك إنك واحش حيطان البيت والكراسي وكل حاجة فيه.. ساعات كتير بحس إن كل حتة وكل حاجة في بيتنا زعلانة إنك مش موجود، وزعلانة أكتر لأنك مش هتبقى موجود تاني.."

أثناء استرساله في الحديث وكأنه يتحدث لشخص حقيقي يقف أمامه، انتبه ليد تُربِت على كتفه -كان حارس المقابر- ليَخبره "أن الوقت تأخر ويتوجّب عليه الرحيل".. انصاع لتوجيهات الحارس ولكنه استدار مُجدداً لقبر أبيه وكأنه نسى شيء هام كان يريد إخباره به وقال:

"على فكرة يا حاج، أنا كل يوم بكتبلك رسالة، بحكيلك فيها على كل حاجة بتحصل وبالتفصيل زيّ زمان بالظبط وبشيلها في نفس المكان إللي إنت عارفُه.. لو عاوز تقراهم إنت عارف المكان..معلش كان نفسي أقعد معاك أكتر من كده بس لازم أروّح دلوقتي وهجيلك تاني.. تاني وتالت يا أغلى الناس.. خليك فاكر إنك واحشني أوي وخليك عارف إنك مش هتبطل توحشني، ولو غبت عليك شوية في الزيارة خليك عارف إنه هيِبقى غصب عني، أنا عارف إنك فاهم ومقدر..مع السلامة يا أبو إبتسام".

مضى سعدي في طريقه مغادراً محاولًا تجفيف دموعه بأطراف أكمامه والتي كلما جفَّف بعضها انهمر المزيد منها، ولم ينفكّ من النظر خلفه كلما خطا بضع خطوات في طريقة لخارج المقابر، لقبر أبيه، إلى أن

ذهب بعيدًا...

مع دقات الساعة مُعلنةً الحادية عشر مساءَ من نفس ذات اليوم...

مع ولوجه لداخل منزله، وجد إبتسام قابعة على نفس ذات الكرسي الأسيوطي المُحبّب إليها وقد غلبها النعاس وقد اتصل بها هاتفيًا قبيل مغادرته للعمل، طالبًا منها انتظاره، فاقترب منها مُحدِّثًا إياها بصوت شديد الإنخفاض يكاد لا يصل لدرجة الهمس خيفة ألا يفزعها كما تفعل معه تمامًا:

- إبتسام.. بسومة.. بسومتي..

فتحت إبتسام جفنيها بصعوبة بالغة، إلى أن تحققت من أنها ليست في غياهب حلم من أحلامها، وأجابت:

- إيه أخرَك كده يا أستاذ؟
- أبدًا عديت على بابا.. قولت أسلم عليه وأفرّحه..
- وهو عامل إيه؟ وقولتله إنه واحشني ولا لأ؟
- أكيد قولتله..
- ومش ناوي تفرّحني أنا كمان..؟ ولاّ أنا ماليش نفس أفرح (قالتها وهي تمسح دموعه بأطراف أصابعها).. مش كفاية إنك خلتني أستناك كل الوقت ده؟
- النهاردة اتعيّنت رسمي وبقيت محامي أساسي عند شلتوت، والمرتب ٦٠٠٠ جنيه.

- ياما أنت كريم يا رب.. ألف حمد وشكر ليك يا رب.. مبروك يا حبيبي.. ألف مبروك.. ألف ألف مبروك.. أيوة كده، كان نفسي أفرح من زمان.

قالتها وانخرطا في موجة من البكاء الذي صاحبه عناق الإخوة الصامدين في مواجهة قسوة الأيام وتلاطُم أمواج الحياة، حالهما كحالة جميع الضعفاء، كانت الدموع هي التعبير عن الفرح كشأنها في التعبير عن الحزن، وكأنَّ الضحكات قد استحوذ عليها علية القوم ولم يتركوا منها شيئًا لغيرهم، حتى الفُتات منها.. فالناظر للبسطاء من بعيد لا يستطيع أن يُميِّز بين وفاة عزيز لديهم أو ولادة طفل لعزيز لهم من فرط بكائهم في كلتا الحالتين.. هكذا هم بسطاء الناس..

إلى أن همست في أذن أخيها وهي تحتضنه:

- بقولك إيه.. يلّا بينا نقوم نتوضا ونصلي ركعتين شكر لله..

- حاضر..

(قالها وهو يُخرج من جيبه مبلغ المكافأة كاملًا مُعطيها إياه) وحدّثها محاولًا التظاهر بالفرحة:

- تنزلي تجيبلك طقم حلو كده يليق بأحلى إبتسام في الدنيا.. لا دنيا إيه.. في الكون كله.

- إيه دول يا سعدي؟

- ٢٠٠٠ جنيه مكافأة عن شغل عملته.

- لا يا أستاذ.. حضرتك تاخدهم وتجيب بيهم بدلة شيك بدل البدلة

إللي نازل طالع بيها دي.

- والنبي بلاش تتعبي قلبي.. كفاية أوي تعبك معايا، وبعدين ده مش طلب ده حكم قضائي واجب النفاذ وأيّ إعتراض منك هبعتلك الجماعة الحلوين بتوع تنفيذ الأحكام وهُمّ هيعرفوا يخلُّوكي تنفذي..

بعدما ارتسمت إبتسامة على شفتيها بعد مُزحته، عقبت:

- يا سعدي يا حبيبي.. أنا هعمل إيه بس بالطقم الجديد؟ أنا تقريباَ مش بخرج من البيت.. إنت أولى مني، وبعدين إنت خلاص بقيت محامي أد الدنيا دي كلها.

- أد النيا مرة واحدة؟! عمومًا لو سمحتي إعملي إللي بقولك عليه، على الأقل يا ستي حسِّسيني إني عارف أقدملك أي حاجة.. أنا بقيت حاسس إني ماليش لازمة ووجودي زيّ عدمه بالظبط وبقيت عالة عليكي وعلى الدنيا كلها كمان.. وكمان يا ستي ما تقلقيش عليّا.. قريب أوي هجيب بدل البدلة عشرة..

- إوعى تقول كده.. كفاية دخلتك عليّا، دي بالدنيا وما فيها، وعمومًا حاضر يا سيدي، هاخدهم وبكرة أو بعده هبقى أنزل أشتري حاجة جديدة..

بعد أ ن وضعت قُبلة على جبينه، قالت:

- ربنا ما يحرمني منك.. مش هتقوم بقى تتوضى وتصلي ركعتين شكر لله وأنا هحصّلك حالًا..

- طبعًا وكمان هصلِّي العشا بالمرة.

أثناء انشغاله بالوضوء، خرجت من شقتها بخطى سريعة على أطراف أنامل قدميها متفاديةً إصدار أي صوت يُلفت إنتباهه، ونقرت طرقات سريعة متتابعة على باب الشقة المقابلة لها -شقة الحاجة إكرام - وما أن فُتح الباب، ناولتها إبتسام مبلغ المكافأة كاملًا -٢٠٠٠ جنيه- شاكرة إياها لمساعدتها بالأحوال الصعبة التي تمر بها، وما كان من الحاجة إكرام إلا أن أبت أخذ المال، قائلة:

- جرى إيه يا بنتي!!.. مستعجلة ليه؟ والله مالهمش حاجة دلوقتي خالص..

- كتَّر ألف خيرك.. ربنا فرجها والحمد لله.

- يا بنتي لو تعرفي أد إيه المرحوم الله يرحمه وقف جنبي وجنب جوزي الحاج الله يرحمه، كنتي هتعرفي إني ما عملتش أي حاجة.

- تسلمي يا ست الكل.. خليهم معاكي ووعد إني لو احتجت حاجة هقولك..

دسّت النقود في يد الحاجة إكرام دون إرادة منها وقالت في عجلة من أمرها:

- معلش أنا لازم أرجع علشان سعدي لسه واصل ولازم أحضَّرله العشا.

- إتفضلي يا ست البنات، وما تنسيش تسلميلي على سعدي..

- حاضر..

ثم دخلت شقتها مسرعةً وأوصدت بابها بهدوء، مُتجنِّبةً لفت انتباه أخيها لخروجها، وبنظرة سريعة منها عليه، اطمأنت أنه لم يلاحظ شيئًا، ثم أدَّت صلاة الشُكر وبعدها خلدت إلى نوم عميق بعد أن أعدَّت وجبة العشاء له..

***



صباح اليوم التالي...

كالمعتاد، بدأ سعدي يومه بالذهاب للمحكمة صباحًا وبأحد الأروقة، قابل أحد المحاميين من زملائه في مركز شلتوت وتبادلا أطراف الحديث:

- ماشي يا سيدي.. أكلت الجو كله إمبارح وخلِّتنا كلنا عاملين زي لمواخذة (الكيل....) ولاّ أقولك خلينا مؤدَّبين ومشيها زيّ الإيشاربات الحريمي..
- لا جوّ ولا حاجة.. ربك بيسبَب الأسباب مش أكتر ولا أقل.
- ماشي يا عم المتواضع.. بقولك إيه.. أنا أعرف شلتوت من زمان.. صحيح مش بتعامل كتير بشكل مباشر إنما من نظراته لك إمبارح كانت بتقول إنك دخلت دماغه من أوسع أبوابها، بس خلّي بالك لأن إللي بيقِرب من الدكتور مالوش غير حالة من اتنين..
- هما إيه؟
- يتلسع بناره أو ينعم في جنته.. مفيش وسط يا صاحبي.
- وأنهو الأقرب؟
- الأيام لوحدها إللي تقدر تجاوب على سؤال زيّ ده.
- ربنا يستر..

وما أن هَمّ كل منهما للمُضي في طريقه لإنجاز عمله، التفت المحامي مجددًا لسعدي، قائلًا:

- بس خلّي بالك كله إلا إنجي.. إنجي أكبر قضية عند شلتوت.. قضية مش بتنتهي.. قضية مفتاحها الوحيد في جيبه هو بس..

- إيه جاب سيرتها دلوقتي؟!

- أبدًا.. إنت يا سعدي من الناس إللي تتحب بسرعة علشان في حالك ومش مُقرف زي معظم الناس، وعلشان كده حبيت أنبَهك إن أي حد بيكبر عند شلتوت بيبتدي يُعجب بيها وهي بصراحة تعجب الباشا وعلشان كده قلت أوعِّيك مش أكتر، علشان ما تقعش في غلطة ناس قبلك وقعوا فيها..

- ما تقلقش، أنا مش واخد بالي غير من شغلي بس.

- كده تمام..

- تمام.. عمومًا كتَّر خيرك على النصيحة.

- مش نصيحة ولا حاجة، بس إسأل مجرّب ولا تسأل طبيب..

- ويا ترى إنت جربت؟

- لا.. بس شوفت إللي جرّبوا وشوفت إللي حصلهم وكان أسوأ من إنه يتحكي.

- تسلم ومش هنسى كلامك..

ثم انطلق كل منهما...

***

في تمام السادسة مساءَ من نفس ذات المساء...

ما أن لمحته إحدى السكرتيرات القابعات على يسار المدخل أثناء ولوجه للداخل، بادرته قائلة:

- أستاذ سعدي..

- أفندم!!

- لحظة بس هَوَصّل حضرتك لمكتبك الجديد..

بقدر ما أعطاه الله من قوة، حاول الحفاظ على ضبط النفس وعدم إظهار أيِ إنفعال لحظي يدل على الفرحة أو المُفاجأة.. تلك الفرحة التي تشبع بها كيانه وأراد عدم البوح أو التصريح بها.

تقدمته السكرتيرة لتُرشده لمكتبه الجديد تنفيذًا لأوامر شلتوت وتبعها هو بخطوات هادئة شابَها الحذر والفضول معًا، كان يعلم بأن تلك الخطوات ربما هي البداية الحقيقية لخطوات أكثر وربما أبعد بكثير نحو طريق مجهول على وشك أن يسلكه..

حجرة المكتب الجديدة التي أعدَت له كانت تلك المجاورة لحجرة إنجي والتي بدورها المُلاصقة لحجرة شلتوت، كانت مُغلَّقة منذ عدة سنوات وأحيانًا كان يتم استغلالها كغرفة لإجتماعات شلتوت إذا ما لزم الأمر..

خطى داخلها ببطء شديد، تابعًا للسكرتيرة الفاتنة ومُمعنًا النظر في كل ركن من أركانها ومُتأمِّلًا كل تفصيلة من تفصيلاتها ..

كان كل شيء متناسقًا، بدءاَ من الأثاث ومروراً بكل شيء فيها.. تركيزه

في التفاصيل وروعتها طغى على كل شيء، إلى أن تحدثت السكرتيرة:

- لو في أيّ حاجة ناقصة في المكتب يا ريت حضرتك تقولّلي علطول.

وقبل أن يرد، استطردت:

- وأيّ حاجة حضرتك محتاجها، أيّا كان حجمها، عندي تعليمات إن حضرتك تطلبها منى مباشرة.

- أكيد.. أكيد إن شاء الله.

- حتى لو كوباية ميا.. أنا عندي تعليمات بكده..

رد باقتضاب دلَّ على رغبته بإنهاء الحوار:

- مفهوم..

ما إن خرجت السكرتيرة حتى استقر على مقعده الجديد خلف مكتب خشبي ضخم بدا عليه أنه لم يُستخدَم قط، محاولًا التأقلُم عليه من ناحية والإستمتاع برفاهيته من ناحية أخرى.. بعد أن أراح ظهره على خلفية المقعد، تمنَّى أن يكون والده بجانبه في هذه اللحظة ليسعد ولو لمرة في حياته ويرى بنفسه ما قد حقَّقه ولده، وابتسم إبتسامة خفيفة عندما تخيَّل أن لو والده كان بحضرته الآن، لكان أول ما طرأ على ذهنه "أن ثمن ذلك الكرسي قد يُعادل ثمن أثاث بيتهما البسيط مجتمعًا" .

كان كل شيء مُتناسقًا ومُكتملًا ومُتكاملًا، كما لو أنه قد اختار كل شيء فيه بنفسه وأكثر، ما زاده سعادة هو قُرب حجرته من حجرة إنجي.. فالظاهر من الأمر بأنه لا يفصل بينهما إلا حائط، إنما الحقيقة كانت

أن الحاجز بينهما أضخم بكثير مما قد يبدو عليه الأمر.

شرد بعيدًا وهو يستند برأسه على حافة خلفية مقعده وهو يتأرجح به بهدوء لـ لخلف والأمام ويتمايل بالمقعد يمينًا ويسارًا في ماضٍ عاشه ومستقبل مجهول لا يعرف كنهته ولا يستطيع التكهّن بما يحمله له ولم يُسعَفه خياله أن يستطيع أن يُحدِّد أبعاده، فكل شيء كان قابل للحدوث أو إستحالة الحدوث، فكل الإحتمالات واردة.. فالأمر يحتمل كل الإفتراضات وعكسها في آنٍ واحد، إلى أن رن جرس هاتف مكتبه - كانت إنجي- تُخبره بأن شلتوت يريد الإجتماع به..

***

إبتسام.. كانت على نفس حالها، والذي لم يمسّه تغيير يستحق الذكر، فأيامها متطابقة لحد بعيد.. كانت كما هي دائمًا كالجندي المجهول، الذي يُحارب من الصفوف الخلفية والغير معروف إلا لقلة قليلة من البشر، وبالرغم من ذلك فأهميته لا يُدركها أحد إلا عند اختفائه أو سقوطه -كالكثير من البشر في الحياة- فقد يَسقط جيش بأكمله بسبب فقده لبعض أو كل الجنود الحامين للصفوف الأمامية من الخلف، لكن المُدرِكون لهذه الحقيقة قليلون.. فهؤلاء الجنود يعملون دون إرادة حقيقة منهم في هدوء وصمت، ويقضون ما تبقى لهم من حياة في هدوء، والأهم أنهم عادة ما يرحلون بهدوء أشدّ حتى دون أن يعرفهم أحد أو حتى دون أن تُكتَب أسماءهم على قبورهم.

هكذا كانت إبتسام.. دائمًا ما تحاول الحفاظ على ما تبقى من حياة

أخيها وحياتها دون أن يدري أحد ولا حتى هو، كانت تُهيّئ المناخ المناسب له -بقدر استطاعتها- حتى يتمكن هو من شقّ طريقه في تلك الحياة التي لا تُبالي ولا تكترث بأحد وخاصة صغار البشر وضعافهم..

أخذت عهد على نفسها بألَّا تُفكر في شخصها إلا بعد الإطمئنان الكامل عليه، ولهذا كانت ترفض كل محاولة للإرتباط حتى ممّن يُمثلون فرصة عظيمة للزواج من حيث السمعة الطيبة والمستوى الاجتماعي المُناسب والحالة المادية الميسورة أيضًا، بل لم تراودها نفسها ولو لمرة واحدة بأن تحيد عن ذاك المبدأ، بل والإختيار.. فكما اختارت سابقًا وبكامل إرادتها أن تقوم مقام الأم بعد وفاتها لتظل سندًا لأبيها، قد اختارت طوعًا أن تقوم مقام الأم والأب بعد وفاة أبيها حتى تظل سندًا لسعدي.

كانت إحدى أهم أولوياتها الإهتمام بتفاصيل المنزل حتى ولو كانت صغيرة، فكانت تلعب دور سيدة المنزل باقتدار وأيضًا دور الخادمة بإحتراف..

قيامها بدور الخادمة، لم يكن ليَثنيها يومًا أو كان عائقًا عن اهتمامها بأنوثتها.. تلك الأنوثة الطبيعية التي وهبها الله إياها.. فاعتادت بعد إنجازها أعمال المنزل المختلفة والمتعددة - تلك المُتعلَّقة بالإعتناء بالمنزل وبتفاصيله التي لا تنتهي من حيث النظافة وإعادة النظام إليه وإعداد الطعام وغيرهم -أن تجلس أمام مرآتها الصغيرة بغرفتها المتواضعة الأثاث، مُتأمِّلةً قسمات وجهها، واضعة القليل من مساحيق التجميل، فلم تكن بحاجة للكثير منها، حيث كانت تتمتع ببشرة نضرة

وردية اللون وحُمرة شفتيها ضاهت جمال أفخم أنواع الرَوج وأغلاها ثمنًا..كان إهتمامها الأكبر ينصبّ على الإعتناء بيديها، حيث كانت تؤمن أن أحد أهم أسرار الأنوثة يكمن في نعومة ملمسها وجمال منظرها، فكانت حريصة كل الحرص على المحافظة على نضارتها وحمايتها من آثار مسحوق غسيل الأطباق والملابس وغبار التنظيف وما شابه، ولعدم قدرتها على شراء كريمات التجميل الباهظة الثمن، كانت تستخدم قطرات من زيت الزيتون لتدليك يديها في الصباح وقبل النوم.. كذلك كان اهتمامها بجمال أظافرها وتناسقها وطلائها اهتمامًا خاصًا لتبرز جمالهن ولتُزِيدُهن حُسنًا..

حتى ذلك اليوم، الذي قررت تنسيق وتنظيف غرفة سعدي، فبدأت بتنظيف الشيش الخشبي للنافذة الوحيدة بالغرفة والتي تقع على يسار سريره، مع بداية التنظيف تطاير الكثير من الغبار ليستقر الكثير منه على وجهها لتُسرع بنفضه بيدها، ثم همَت بتغيير ملاءة السرير وكذلك كسوة وسادته وتلميع إطاره الخشبي، وعند استدارتها لتنسيق وتلميع سطح مكتبه الخشبي المتوسط الحجم والقديم الطراز والملاصق مباشرة للسرير وكذلك لترتيب الأوراق المبعثرة أعلاه، اصطدم ساقها بطرف درج من أدراجه لم يكن مُحكم الغلق، فمالت بجذعها قليلًا لتُغلقه.. فلمحت المئات من الأظرَف البيضاء اللون والتي امتلأ بها الدَرج عن آخره فتُتَمتِم هامسة لنفسها:

- يااه يا سعدي!! إنت لسه زيّ ما إنت!!.. كنت فاكراك بطلت الحكاية دي من زمان..

تذكرت كيف كان سعدي منذ كان طفلًا -ولا يزال- يُعبر عن كل ما

أراده من خلال رسائل يكتبها.. فكان اعتقاده منذ نعومة أظافره أن الرسائل حتى وإن محى الزمن حروفها وبهتت الأحبار التي كُتبَت بها، فتأثيرها سيظل باقيَا مهما عفى عليها الزمن ووطئت عليها السنون، فالرسائل هي الشاهد الحقيقي على العصر وفي الكثير من الأحيان تكون همزة الوصل بين أجيال متعاقبة أو حتى بين أجيال لم يقابل أحدهم الآخر.

الرسائل عادة ما تنقل لنا من أخبار الماضي الكثير وتُعرفنا بأشخاص لم ولن نتعرف عليهم وتفتح لنا بابًا للمستقبل إذا ما قرأناها جيدًا واستوعبنا سطورها وما خفي بينها.

فكان عندما يقع بحب فتاة ولا يجد الجَرأة في نفسه لمصارحتها، كان يكتب لها رسالة يُعبَر فيها لها عن مدى حبه وإعجابه وهيامه بها.. أو عند تعرّضه لأذى أو ظلم ما سواء كان في مدرسة أو جامعة أو حتى عمله ولا يستطيع المواجهة أو حتى الشكوى لعلمه من خلال تجربة له أو لآخرين أو ربما بفطنته بعدم جدوى خوض معركة يعلم مُقدمًا حتمية خسارتها..

فقد علمته الحياة أيضًا أن الخيار بالإستمرار داخل الحرب رغم الخسائر، أحيانًا يكون أفضل من الإنسحاب والإعلان الصريح للهزيمة، لربما تتغير الأحوال ولو بعد حين، بل كان يصل الأمر به أحيانًا كثيرة بأن يكتب خطابات لأمه أو أبيه يشكو فيها من شيء ما أو يعتذر عن شيء ما، أو ربما يتمنى منهما شيئًا.. حتى عندما كانت تراوده بعض المشاعر المُختلطة والتي لا يستطيع تفسيرها أو تحديد هويتها، فكان يُعبَر عن ذلك بمجموعة من الخطوط المُتشابكة والمُشابهة للشخبطة

إلى حدٍ بعيد أو بعض الحروف الغير مفهومة، كان دورها مُنحصرًا في تفريغ شحنة ضاق صدره بها أو مشاعر لا يستطيع البوح بها..

العشرات بل المئات من الرسائل التي لم يُرسل رسالة واحدة منها طيلة حياته ولم ينتوي، إنما كان مكانها دائمًا وأبدًا أحد أدراج مكتبه..هكذا كان سعدي..

أعادت إبتسام إغلاق الدرج بإحكام ولم يخطر ببالها قَطّ محاولة تَصفُّح إحداها حتى ولو من باب الفضول، والفضل يعود في ذلك لأبويها، واللذان علَّماهما منذ الصغر احترام خصوصيات الآخر وعدم التدخل في شئون الآخرين، اللهم إلا إذا طُلب منهما ذلك..

بعد أن قامت بترتيب جميع الأوراق التي بُعثِرت على سطح المكتب، كنست السجادة الصغيرة البنية اللون التي توسّطت الغرفة بمكنسة يدوية ثم عبثت بأطرافها مُزحزِحةً إياها يمينًا ويسارًا إلى أن أعادتها لوضعها السليم، كذلك أعادت استقامة وضع تابلوه صغير - تَوَسَطِ حائطِ الغرفة المقابل للمكتب- نُقش عليه "لعن الله قومًا ضاع الحق بينهم"، ثم أطفأت الأضواء وأغلقت باب الغرفة ومضت...

***

داخل مكتب شلتوت، بعد أن استدعته إنجي..

جلس سعدي مُنتَصِب الظهر على حافة المقعد المقابل لمكتب شلتوت وعيناه لا تزوغ عن الأرض مُنتظراَ أن يبدأ شلتوت بالتحدث معه فيما استدعاه له، والذي كان يعبث ببعض الأوراق بداخل ملف للقضايا، غير مُكترِث بسعدي وكأن لا وجود له (كشأن الوجهاء أو مَن يعتبرون أنفسهم كذلك، دائمًا ما يَسعَدون بإذلال صغار القوم بتعمّد عدم الإنتباه لهم وإهمالهم لبعض الوقت بحجة القراءة أو التحدُّث عبر الهاتف أو ما شابه)..

بعد برهة من الوقت اقتربت من الخمس دقائق نحّى شلتوت الملف جانبًا ووَجّه حديثه لسعدي:

- باختصار.. إنت عجبتني ورأيي فيك زيّ ما قولتلك أول مرة شفتك فيها؛ إنك مشروع محامي كويس..

ثم صمت قليلًا مرتشفًا من قدح قهوة وُضِع أمامه، ثم واصل حديثهُ:

- المكتب هنا مكتب كبير.. كبير أوي.. وطبعًا ما أقصدش مساحته.. كبير بحجم أعماله وأهمية عُملائه وله سمعته زيّ ما شفت بنفسك الفترة إللي فاتت، وعلشان المكتب كبير، فللأسف الغلطة الواحدة ممكن تكلفنا تمن إحنا مش قده..

رد سعدي وهو لا يزال ناظراَ للأرض:

- أولًا ألف شكر.. ورأي حضرتك فيّا ده وسام على صدري، وثانيًا أنا مقدّر طبعًا طبيعة المكان وتمن أي غلطة فيه حتى لو كانت صغيرة.

- تفتكر أنا أقصد إيه بالتمن؟

- التمن؟ ممكن يكون أتعاب قضية نخسرها أو سمعة مكان بتتهز أو عملاء بنخسر التعامل معاهم أو حد يضيّع مستقبله أو عمره بسبب إننا ما قدرناش نجيبله حقه أو نمنع ظلم وقع أو هيقع عليه..

- بس ؟!

- أعتقد..

ثم تدارك نفسه، مُكملًا:

- يا ريت سعادتك توضَّحلي أكتر.

- التمن إللي قلته يا سعدي يتقدر عليه بشكل أو بآخر، سواء كان فلوس أو زبون يضيع.. أما بالنسبة لمنع الظلم أو الحاجات إللي قولتها في الآخر...

صمت لثانية أشعل خلالها سيجارًا وأكمل بإبتسامة لم يفهم سعدي مغزاها:

- إعتبر إن نصيبهم إنهم يتظلموا أو مكتوب لهم كده.. لكن أنا أقصد التمن إللي ما حدش يقدر عليه..

هنا اعتدل سعدي في جلسته متوجّهًا بنظراته لشلتوت ومُبدِيًا إهتمامًا مصطنعاً بالحديث، واستطرد شلتوت:

- المكتب ده، العملاء بتوعه أكبر ناس في البلد وده مش سر ولا

حاجة بتعرفها لأول مرة.. ومعنى إنك تخسر قضية لشخصية من دول معناها النهاية.. أو على الأقل خالص بداية النهاية..

- النهاية!!!

- أيوة.. النهاية.. وده التمن.. لو حد من العملا إياهم دول خسر قضية بيزعَّل.. وزعل الناس دول وحش، وممكن جدًا إن زعلهم يوصل لدرجة إنهم يقعَّدوك في البيت.

- للدرجة دي!!.. على حد علمي إنه شيء طبيعي في أي مكتب محاماة كبير أو حتى مكتب صغير إن في قضايا تتخسر ومفيش حاجة من إللي سعادتك قولتها دي بتحصل.. لا نهاية ولا حاجة..

- كلامك مظبوط بس في حالة واحدة..

- حالة إيه؟

- لما يكون الموكِّل إنسان عادي من الناس إللي بتشوفهم ماشيين جنبك في الشارع أو جار من جيرانك..

- تمام.. بس للدرجة دي خسارة قضية ممكن نتيجتها تكون قاسية أوي كده؟!!

- وأكتر.. علشان كده طول الوقت لازم عينيك تبقى في نص راسك، مفيش حاجه اسمها مش مهم ومفيش موضوع صغير.. الكلمة مهمة والحرف أهم، كل تفصيلة لازم تتدرس وتتشاف بعناية وتتحسب توابعها وكل حاجة، حتى لو صغيرة لازم يتعملّها كذا سيناريو ويكون جاهز وقت اللزوم.. الشغل هنا مش مجرد قضية

بنترافع فيها.. لأ خالص.. هنا عادة القضية وراها موضوع وقصة وممكن قصتين أو تلاتة وغالبًا ما بتكون القصص متشابكة وبِتمسّ الأهم من القضية نفسها..

- أهم من القضايا!!!

- طبعًا.. زي الدولة أو النظام والناس المهمة إللي فيها..

بعد أن أدرك شلتوت من ملامح سعدي صعوبة فهمه لحديثه، سأله:

- إنت فاهم أنا بقول إيه؟

- بصراحة، مش أوي.. بس عندي سؤال لو حضرتك سمحتلي..

- اسأل..

- وليه لما الكُبار دول بيخسروا قضية ما يبقاش ده نصيبهم وقدرهم كده؟!

- تقدر تقول إن الناس الكبيرة قدرها إنها تكسب طول الوقت وإلا ما كانوش كبروا أصلًا..

بعدم إقتناع رد سعدي:

- تمام..

- وبعد كده بلاش تستذكى عليّا، وخصوصًا إن في أسئلة كتير بتكون إجابتها ضمنية أو بين السطور.. وعلشان كده في أسئلة في الدنيا مش المفروض تتسئل أصلًا..

- حاضر.. وآسف..

ثم استطرد سعدي:

- سعادتك كنت بتقول إن في الأهم من القضايا، إتفضل كمل..

- يعني مثلًا لو في قضية لعميل عندنا، بس الخصم بتاعه حد من الناس الكبار و التُقال في نفس الوقت، وقتها الحسبة لازم تتحسب كويس، ووقتها كمان ممكن يكون القرار لينا، نكون مع مين ونقف ضد مين. ...

- تمام..تقريباَ فهمت قصد سيادتك، بس عندي سؤال كمان..

- اسأل..

- الناس إللي حضرتك بتتكلم عليهم دول طالما إن إيدهم طايلة أوي كده، أعتقد إنهم مش محتاجين لا لقضايا ولا لقانون.

ثم استدرك نفسه سريعًا وعقَّب على نفسه قبل أن ينطق شلتوت بحرف واحد:

- بعتذر تاني لو سؤالي من نوعية الأسئلة إللي المفروض إنها ما تتسئلش..

- هههه.. مع إني بفترض إنك إنسان ذكي والمفروض تكون الإجابة عندك، بس هجاوبك لأن السؤال ده تحديدًا مفيد جدًا في شغلنا..

- أكون شاكر جدَا لحضرتك.

- الناس دول أحوج ما يكون للقانون..

قاطعه سعدي على إستحياء:

- غريبة!!

- لا مش غريبة.. ده طبيعي جدًا وخاصةً إن الشكل القانوني مُهم حتى لو كان مجرد مظلة لشيء مش قانوني وحاجة تانية مهمة.. إن الناس دول العين عليهم طول الوقت..

- عين؟

- أيوة، ما تنساش إننا في دولة قانون والناس دول دايمًا مرصودين من الأجهزة الرقابية إللي في الدولة وكمان الإعلام بكل أشكاله، صحافة وتليفزيون والأهم مواقع التواصل الإجتماعي إللي ما بتسبش حد في حاله اليومين دول.. علشان كده لازم يكون كل شغلهم بالقانون، ومش بس شغلهم.. وحياتهم كلها كمان..

- أعتقد إني فهمت.

بابتسامة حملت بعض السخرية، أكمل شلتوت:

- أعتقد إنك ما فهمتش أوي، وفي لسه حاجات كتير أوي محتاج تفهمها، بس عمومًا دي حاجات هتيجي مع الوقت..

مال شلتوت بجذعه قليلًا لليسار والتقط زجاجة مياه معدنية من ثلاجة المكتب الصغيرة وهو يرتشف منها نظر لسعدي من أسفل عويناته وسأله:

- إيه رأيك في مكتبك الجديد؟

- هايل وكتير عليّا كمان.. متشكر جدًا.. خصوصًا كمان إنه جنب مكتب سعادتك..

- إنت محظوظ يا سعدي لأنها ما كانتش حاجة مُتعمدة إنك تاخد المكتب إللي جنبي، بس دي الأوضة الوحيدة إللي كانت فاضية وتقريباَ جاهزة وكنت ناوي أنقل جمال فيها بس قاللي إنه مرتاح في مكانه وبالتالي إنت بقيت هنا..

- الحمد لله..

- ومع إنها صدفة أو حظ أو سمِّيها زي ما تحب، إنما أنا شايف إنها حاجة كويسة بالنسبالك وخصوصًا إني هحتاجك جنبي كتير في الفترة الجاية..

- وأنا تحت أمر حضرتك

- عمومًا هنشوف بلاش نسبق الأحداث..

قالها، ومد يده جاذباً الملف الذي نحّاه جانبًا منذ قليل وناولهُ لسعدي واستكمل حديثه:

- ده ملف قضية لوكيل وزارة مُتَّهم بالرشوة والتهمة لابساه لحد كبير.

- طالما لابساه يا سعادة الريس، يبقى مطلوب مننا إيه؟!

- شفت بقى إنك لسه ما فهمتش!.

- آسف.. معلش..

- مطلوب إننا نثبت إنه أشرف راجل في مصر.

- بعد إذن سعادتك، سؤال بس..

- قول..

- حضرتك قريت الورق؟

- أكيد..

- ورأي حضرتك إيه؟

- أنا جاوبت وقلت إن التهمة لابساه.

- ولما هي لابساه ...

هنا قاطعه شلتوت، مُصَوِّبًا إليه نظرة حادة كسهم من سهام الغزوات الحربية:

- سعدي.. قبل ما تقول كلام مالوش أي معنى بالنسبالي.. الراجل مُتَّهم ومش مُدان، وزيّ ما علمناكم في الكلية، إن أي مُتهم برئ حتى تثبت إدانته، هنا مكتب محاماة مش محكمة.. وإحنا محاميين مش قُضاة، يعني مهمتنا نقف جنب المتهم لآخر المشوار.. فهمت؟

- كنت أقصد إن حضرتك وبكل خبرتك الطويلة، رأيك إن الراجل فعلًا مُدان.. أنا إيه إللي ممكن أضيفه بعد رأي سعادتك؟

- رأيي الشحصي مش مهم.. ولا حتى رأيك.. الملف معاك.. قُدامك ٤٨ ساعة وتقولّلي الراجل ده هياخد براءة إزاي، ومش معنى كده إني مش عارف إزاي هعرف أطلَّعه منها، بس عاوز أعرف إنت هتفكر إزايّ.. وإذا كنت هقدر أعتمد عليك بعد كده ولّا إيه

هيكون الوضع..

- إعتبره خدها سعادة الريس.

- كده أعتقد إنك بدأت تفهم..

ثم مضى مُغادرًا حجرة شلتوت، حاملًا ملف القضية..

***

قبيل عودته للمنزل عرج لداخل مقهى عم سلامة بإمبابة والتي تَبعُد بضع خطوات قليلة من منزله، جلس على إحدى الطاولات واضعًا أمامه ملف القضية التي استلمها من شلتوت، بينما انسابت نغمات ألحان رياض السنباطي من خلال مذياع المقهى -كانت أغنية فات الميعاد لأم كلثوم-.. كانت تُنشِد "عاوزنا نرجع زي زمان، قول للزمان إرجع يا زمان"...

كان المقهى كما كان -وسيظل- يعجّ بالزبائن من مختلف الأطياف والأعمار، منهم مَن انهمك في لعب الطاولة وآخرون كانوا يتجاذبون أطراف الحديث مع بعضهم البعض، والأكثرية كان شغلها الشاغل التأمل وتدقيق النظر في العابرين من أمام المقهى وخاصة في النساء منهم بل ومغازلتهم في كثير من الأحيان.. وقليل منهم كان فرادى إما متصفِّحًا لإحدى الجرائد المسائية أو مستمعًا ومدندنًا مع النغمات المُنسابة عبر المذياع..

المقهى كما كانت دائمًا ولا تزال ما تُمثل لسعدي مجتمعًا صغيرًا كالمرآة

العاكسة للمجتمع الكبير.. فعادة ما تكون مسرحًا للعديد من الحوارات حول الأحد اث السياسية التي تتأجّج من وقت لآخر، سواء بالإتفاق معها أو بالإختلاف حولها ولا يخلو الأمر من محاولة البعض عرض أفكاره ومحاولة الترويج لها بهدوء أحيانًا أو بعصبية وانفعال في كثير من الأحيان، كما لو كانوا يشتغلون بالسياسة منذ نعومة أظفارهم ، وكم تبدو هي سلاسة الحلول من وجهة نظرهم، للدرجة التي قد تُشعرك أحيانًا بأن تتمنى لو كانت إدارة هذا العالم من خلال هذا المقهى أو ذاك..

أحيانًا أخرى يكون المقهى منبرًا لمناقشة بعض الأمور الدينية وتحديدًا التي تكون محور خلاف بين فقهاء الفتوى وعلماء الدين، لكن المقهى كانت للكثير من مُرتاديها وأكثرهم من فقراء المنطقة بمثابة النادي الإجتماعي لهم، ليناقشوا فيه أمورهم الإجتماعية ومشاكلهم اليومية حتى الشديدة الخصوصية منها.. كانت أيضًا ملجأً للكثيرين ممّن لديهم تلك الرغبة العارمة في الهروب من المنزل ومن مسئولياته المختلفة وصراعاته العنيفة أحيانًا.. وبالطبع لا يخلو المشهد أبدًا من بعض الباعة المتجولين، الذين يحاولون عرض بضائعهم على رواد المقهى والذين يعتبرون ساحات المقاهي بالنسبة إليهم موردًا أساسي للرزق..

كالعادة، ما إن وجده جارسون المقهي اقترب منه، مُتسائلًا:

- القهوة المانو المتظبطة آخر حاجة؟

- يا ريت يا حسن.

- كوباية ولا فنجان؟

- كوباية ودوبل يا أبو علي.

- إيه يا باشا!!.. المزاج مش رايق ولا إيه؟

- لا أبدًا.. كله تمام.. شوية صداع مش أكتر..

- تؤمر يا مُستشار.

رد سعدي مُبتسِماً:

- مُستشار حتة واحدة!!.. روُح.. روُح الله يكرمك، هاتلي كوباية القهوة.

- آه طبعًا مُستشار ونص، وهُمَّ المستشارين أحسن منك في إيه يا سي سعدي؟ مع إني والله مش فاهم يعني إيه مستشار، بس بسمعهم بيقولوها للناس الكُبارات..

بعد أن استعدل وضع طاقية غطَّى بها رأسه لتحميه من برودة نسمات المساء ولتُخفي الصلع الذي قضى على معظم شعر رأسه حتى يحتفظ بفرصته الضئيلة لإعجاب إحدى النساء به، أردف:

- بالمناسبة.. ما تفهِّمني يعني إيه مستشار ينوبك فيا ثواب..

- يا حسن، روح هاتلي القهوة وهبقى أفهِّمك بعدين.

ذهب حسن وهو يصيح بصوت جهوري حتى يسمعه عامل الرمّالة"عُثمانلي مانو دوبل .."

أثناء انتظاره عودته بقدح القهوة انخرط بين ثنايا حوار دار على أحد

طاولات المقهى المواجهة له..جلس حولها رجلَين بدا من علامات الزمن المُرتسمة على وجهيهما أنهما على مشارف الستين من العمر أو ربما تجاوزها بقليل وكان أحدهما يتحدث للآخر مٌنفعلًا:

- المقاول الله لا يسامحه استخرج قرار من الحي بهدم البيت إللّى زيّ الُفل وبلغنّا إنه هينفِّذ أول الشهر، يعني كمان كام يوم..

واستطرد بسخرية:

- وهيدفع لكل واحد فينا ٤٠٠ جنيه في الشهر لحد ما يسلِّمنا شقق في البرج الجديد.

- ٤٠٠ جنيه!! دول ما يأجّروش أوضة في سطح عمارة بتقع فعلًا..

(قالها وهو يرتشف من كوب قد امتلأ عن آخره بالشاي).

بينما استطرد الآخر سرد شكواه بنبرة حملت الكثير من القهر:

- جبروت أعوذ بالله.. وأصلًا كمان ناس كتير بتقول إنه هيهِدّ البيت ويسقّع الأرض وبعدين يبيعها ولا هيبني ولا يحزنون.

- وبعدين؟

- ولا قبلين!!

- ما روحتوش الحي تشتكوا أو تعملوا محضر في القسم؟

- عملنا إللي ما يتعمل، بس إحنا ناس غلابة ما حدش بيسمعلنا.. والحيتان دول معاهم بدل المحامي عشرة وكل خطوة نعملها أو حتى نحاول نعملها نرجع بعدها ورا عشر خطوات..

- مفيش حق بيضيع طالما بتجروا وراه..

عقب الرجل ساخرًا:

- ده كان زمان، إنما اليومين دول ممكن تجري وراه طول عمرك وما تلحقوش.. يا سيّدي الفاضل، البشر دول القانون لعبتهم والعلاقات حامياهم لأبعد الحدود.

ارتشف من كوب الشاي رشفة طويلة ذات ذلك الصوت المُمَيز، واستطرد:

- الجماعة دول لهم عيون في كل مكان وناس بتنقل لهم الأخبار أول بأول.. يعني يقدروا يبوّظوا أي حاجة في وقتها ومن غير تضييع وقت.. إنما إحنا عشان نعرف نقابل موظف أو مسئول علشان نتكلم معاه، ممكن ناخد يومين أو تلاتة وممكن ما نعرفش نقابله أصلًا.. يا صاحبي إحنا غلابة أوي.. أوي..

- وهتعملوا إيه؟

- العمل عمل ربنا.. أهو إللي عنده شقة تانية هينقل فيها وإللي هيروح يقعد عند حد من قرايبه أو حد من عياله.

- وإنت؟

- أنا ما عنديش غير بيت بنتي، وطبعًا مش هسلم من غلاسة جوزها أو دوشة ولادها، أو أرجع البلد لإخواتي.. وأكيد مش هيبقى ليّا مكان هناك بعد الزمن الطويل إللي قضيته هنا وخصوصًا إن كل واحد منهم استقر هو وعياله وغالبًا هعيش إللي

فاضل من عمري ضيف تقيل على حد منهم، وعلشان كده قررت إني مش همشي.

- إزاي بس؟!

- أنا في كل الأحوال ميت.. أموت في بيتي أرحم، خليهم يهدَّوه فوق دماغي وأرتاح من الدنيا باللي فيها، وأهو أبقى ضربت عصفورين بحجر واحد..

- مش فاهم!!

- يعني، أبقى ما شيِلتش هَمّ العزال والمكان الجديد وكمان خلصت من الدنيا بقرفها وأروح لرب كريم..

- ومنين بقا تعرف بعد الدنيا إنك هترتاح؟.. حد ضامن آخرته؟!

- ربك كبير ورحمته واسعة وأكيد هو أحنّ بكتير من الخلق إللي عايشين معاهم ليل ونهار.. شويّة الظلمة إللي ماصِّين دمنا ودم ولادنا.. إن شاء الله أكون عملت أي حاجة في حياتي حتى لو صغيرة وبسببها ربنا يغفرلي وأدخل الجنة.. يا أخي حتى لو كنت في مرة ابتسمت في وش واحد ما أعرفوش.

- يا عمنّا ربنا يدّيك طولة العمر، بالله عليك بسّطها على نفسك يا صاحبي، أهي فترة وتستلم عقد شقة جديدة في برج فيه أسانسير ومدخل من إللي بيقولوا عليه فُندقي من إللي بنشوفهم في الأفلام..

بإبتسامة ساخرة رد صديقه:

- هاهاي.. ضحّكتني والله.. شقة جديدة وفُندقي كمان!!.. إنت بتحلم.. الحدَّاية يا صديقي ما بترميش كتاكيت.. العقد ده شوية كلام على ورق، دول أساتذة ورق، ودكاترة كلام، على رأي شيخ البلد في فيلم الزوجة الثانية "الورق ورقنا والدفاتر دفاترنا يا حضرة العمدة"، ساعة الجد، آخرك هتفرش ورق العقد على الأرض علشان تنام عليه أو تاكل عليه علشان تلمّ فيه فرافيت الأكل إللي هتقع منك.

- يا ساتر على السواد والتشاؤم.

- لا سواد ولا تشاؤم.. سير الأحداث وسمعة المقاول وكل حاجة بتقول إن ده أقرب سيناريو، وبعدين يا سيدي حتى لو كان ملاك بيرفرف وصادق في كلامه، تفتكر إن العمر فاضل فيه تلت سنين لحد ما أستلم شقة جديدة؟.. يا صاحبي دي دومينو وقفلت...

- هقولك إيه بس..؟ ضاقت ولما ا ستحكمت حلقاتها فُرِجت..

- ربنا يفرجها علينا كلنا.. الحلقات مش استحكمت وبس.. دي لفِّت حوالين رقبتنا لما بقى النفس إللي بتنفِّسه إنجاز.

- مش عارف أقول حاجة غير حسبنا الله ونعم الوكيل.

- ما تشغلش بالك بيّا يا صاحبي.. كل إللي ربنا كاتبه هيكون، وأنا راضي بيه أيّا كان..

- كنت عاوز أسألك.. هو إنت عندك مدفن؟

- مَدفَن!! بالذمة ده سؤال!!

- آه، مَدفَن..

- مش لمّا ألاقي شقة أسكن فيها، أبقى أشوف قبر أموت فيه..

قطع تركيز سعدي وانجذابه للحوار، عودة حسن -جارسون المقهى- بكوب القهوة، وما أن وضعه على الطاولة، سألهُ سعدي:

- الحساب كام؟

- حساب إيه يا باشا؟

- القهوة..

- هو إنت لسه شربت علشان تحاسب، وبعدين إنت صاحب مكان يا أستاذ.

- إعتبرني شربتها.. ما بقاش ليّا نفس يا أبو علي..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. ربنا يريّح بالك يا أستاذنا.

- ما تحطش في بالك.. أنا كويس.. كام الحساب؟

- خمسة جنيه وخلّي علينا خالص.. خيرك علينا سابق والله..

ترك له النقود وحمل ملف القضية تحت إبطه ومضى شارداً في طريقه لمنزله..

أثناء ترجّله للمنزل أخذ يتأمل المكان من حوله.. رامقًا شرفات المنازل المتهالكة بطرف عينه.. رأى تلك السيدة التي تتشاجر مع الأخرى شجاراً عنيفًا قد أستبيحت فيه كل الألفاظ بسبب بعض قطرات الماء التي تتساقط من غسيلها المُبتل على غسيل الأخيرة.. آخر يقف

بملابسه الداخلية وينادي بأعلى صوته على بائع الفول ليضع له كيس فول في الحبل الذي تدلَّى من شرفته.. و أخرى يبدو عليها عدم تجاوزها سن العشرين تقف مُتابعة للعابرين يمينًا ويسارًا، بينما جارة لها كانت شاردة مع نظرة عميقة للسماء وكأن شرفتها هي المكان الوحيد الذي تستطيع أن ترى العالم من خلالها.. وآخر ممسكًا بكيس قمامة ومحاولًا التخلص منه خلسة حتى لا يتعرض للنقد من أحد بتركه على جانب الطريق وكلما لاحظ أن أحد ما اكتشف ما انتوى فعله قام بتمثيل أنه يقوم بإعادة ربط رباط الحذاء إلى أن نجح أخيراَ في التخلص منه ليكون كيس قمامته بداية لتل شاهق من القمامة..

كان يركل قطع من الطوب والحجارة التي انتشرت في الشارع بحذائه.. كان شاردًا تمامًا.. ولا يقطع شروده غير صوت كلاكسات التكاتك لتتفادى السائرين ولم يكن هناك ضرورة لها لأن قوة صوت الأغاني الصادرة منها كانت كفيلة بلفت إنتباه الكل سواء كان بشرَا أم جماد..

ظل هكذا إلى أن أدرك منزله وهو يتمتم: "هو أنتم عايشيين ولا ميتين؟! .. أكيد ميتيين بس بيتهيألكم إنكم عايشيين.. إنتوا مش حاسين ولا فاهمين حاجة خالص.. وكويس إنكم مش فاهمين.. ده من حظكم فعلًا".

ثم صعد لشقته حيث كان يقطن بالطابق الثالث...

***

بعد يومين من استلامه لملف قضية وكيل الوزارة..

عند وصول سعدي ككل مساء في تمام الخامسة للمركز، أخبر أحد السكرتيرات بأنه يريد مقابلة شلتوت لأمر هام وأبلغها أيضًا بأنه على علم بذلك..

بمجرد انتهاؤه من إحتساء مشروبه المفضل -الشاي بالنعاع الأخضر- رن جرس هاتف مكتبه، كانت إنجي تُخبِره بأن شلتوت يريد الإجتماع به..

انتفض من مكانه، حاملًا ملف القضية ومضى مهرولًا نحو مكتب شلتوت ونقر الباب إلى أن سَمِع من الداخل الإذن بالدخول..

دخل بهدوء وبإبتسامة صغيرة علت وجهه مُبرزةً خليطًا من الحياء مع الثقة، بادر شلتوت قائلًا:

- مساء الخير يا افندم.

- مساء الخير.. إتفضل.

جلس سعدي واضعًا الملف على ركبتيه، وظل صامتًا إلى أن تحدث شلتوت:

- ها.. إيه الأخبار؟

- تمام، سعادتك..

- قوللي وصلت لإيه..

هبّ من مكانه واضعًا ملف القضية أمام شلتوت ثم عاود الجلوس

على حافة المقعد مُنتصب الظهر وبدأ بالحديث وكأنه يترافع أمام هيئة محكمة:

- القضية دي سعادتك مبنيّة على ٣ أركان و ٣ أشخاص..الأركان هم أذون النيابة العامة ومنصب المتهم والرقابة الإدارية وبالتحديد التسجيلات التليفونية إللي قامت بيها، أما بالنسبة للأشخاص: المتهم ومسئول الرقابة الإدارية وابن عمه..

شلتوت مقاطعًا:

- ابن عم مين؟
- مسئوول الرقابة الإدراية سعادتك.
- إنت واخد بالك إن ابن عمه مش موجود أصلًا في القضية، لا من قريب ولا من بعيد؟
- واخد بالي يا دكتور.. جاي لحضرتك في الكلام..
- طيب، كمل.. كمل..
- القضية دي -في رأيي المتواضع- علشان تبوظ لازم الأركان التلاتة إللي ذكرتهم لسعادتك يبوظوا، ومش بس يبوظوا لازم يتضربوا في مقتل..

شلتوت عاقدًا حاجبيه، مُتسائلًا باستهانة:

- ها.. وهيبوظوا إزاي؟
- قبل ما أكمل كلامي لسعادتك في نقطة في غاية الأهمية..

- إللي هيّ؟

- القضية دي الرقابة الإدارية هي الشاهد الرئيسي فيها وهي إللي مقدِّمة القضية، وزي ما حضرتك عارف الرقابة الإدارية ما بتهزرش ولما بتمسك قضية بتكون كل جوانبها متينة والقضية بتكون مُتماسكة، وعلشان كده...

- ها...

- علشان كده لازم ما ناخدش الشكل التقليدي في الدفاع عن المتهم إنما لازم نفنِّد كل نقطة ونهدمها من أساسها..

- معاك.. ادخل في الموضوع.

- الواضح من الأوراق إللي في الملف إللي قُدَّام سعادتك وتحديدًا في الورقة رقم ١٢ إن وقت حدوث الجريمة كان المتهم بتاعنا مش وكيل وزارة.. أقصد إنه لسه ما كانش على المنصب ده.. إنما كان مدير عام بالوزارة وكان فقط مُرشَّح بقوة إنه يمسك مكان وكيل الوزارة إللي كان على وشك إنه يخرج للمعاش وتحديدًا بعد أسبوعين من الجريمة.. وده ياخدنا لموضوع مهم...

- إللي هو؟

- إن الترشيح مجرد كلام أو إستنتاج، يعني كان ممكن جدًا حد غيره هو إللي يكون وكيل الوزارة وبالتالي ما كانش هتكون معاه أي صلاحيات لا تخاذ القرار في موضوع المُتهم بتاعنا.

- بس ما تنساش إن الراجل واصل وله علاقات كتير وكل حاجة

كانت بتقول إنه هيمسك المنصب، وحتى من غير ما يمسك، هو كان بيعرف بطريقة أو بأخرى إنه يسهِّل حاجات كتير.

- مع كامل الإحترام لسعادتك.. إحنا برضو ما زلنا في دايرة الإحتمالات، والقانون ما فيهوش زي ما سعادتك عارف "إحتمال"، ولو كان الراجل بيسهِّل حاجات عن طريق ناس تانية غيره، فبالتالي الناس التانية دول هم إللي عندهم المشكلة مش هو.

عبث شلتوت بذقنه وتلاها بالعبث قليلًا بإحدى سوالفه، قال:

- كمِّل.. سامعك..

استطرد سعدي بعد نحنحة قصيرة:

- الورقة رقم ٢٥ و ٢٦ و ٢٧من نفس الملف فيها صور رسمية من أذون النيابة، ولو سعادتك ركِّزت فيها شوية، هتلاقي إن تاريخ بعض الأذون قبل يوم القبض على المتهم ب ١٢ يوم بالظبط وفي آخر كلامي هوضَّح لسعادتك أقصد إيه من التاريخ ده.. كمان في حاجة في منتهى الأهمية، الصفحة ٤٦ و ٤٧ فيها سجل المكالمات المضبوطة في تحريات الرقابة الإدارية وإللي بيختلف عن سجل المكالمات الصادر من شركة المحمول التابعة لها شريحة المتهم.. والإختلاف باين في تواريخ بعض المكالمات سواء الصادرة أو الواردة وكمان في مكالمتين زيادة عن تحريات الرقابة..

قبل أن يكمل سعدي سرده، طلب من شلتوت أن يشرب ماء، والذي بدوره انحنى بجزعه قليلًا مُجتَذِبًا زجاجة مياه من المُبَرِّد الصغير وقدمها لسعدي والذي بدوره ارتشف منها الكثير ثم عاود الكلام:

- بناءاَ على إذن حضرتك ليّا، بإني ممكن أتصل بالمتهم لو كان في موضوع مهم محتاج أسأله عليه.. فعلًا اتصلت بيه لأني كنت عاوز أعرف أصوله..

شلتوت مُندهشًا ومُقاطعًا:

- يعني إيه أصوله؟

- يعني هو أصلاً منين..؟ سواء إذا كان من الفلاحين أو الصعيد.

وهو ينقر سطح زجاج مكتبه بقلم (باركر) سأله:

- وده هيّفرق معاك في إيه؟

- إسمحلي سعادتك أ رد على السؤال بإجابة حضرتك رديت عليّا بيها أول إمبارح..

- فكَّرني..

- الصُدفة بتلعب دور كبير في حياتنا.. ده إن صحّ التعبير وسميناها صدفة.. والناس الكبيرة دايمًا محظوظة وحضرتك قولتلي إن قدرهم إنهم ما يخسروش لإنهم لو خسروا ما كانوش بقوا كُبار.. وعلشان كده كنت لازم أدوّر على صدفة أو حتى أخلقها..

ا نتصبت رقبة شلتوت زهواً بنفسه وقال باعتداد:

- معاك.. كمل كلامك..

- قصدي ببساطة إن لو المتهم بتاعنا من قرية ريفية وهنفترض إن له أرض هناك وعاوز يبيعها لشخص ما وجاره رافض إنه يبيع

للشخص ده بعينه وإن الجار ده كمان هو إللي عينه على حتة الأرض إللي هيبعها زيّ عوايد الريفيين دايمًا بُناءًا على عُرف "حق الشُفعة"، والمتهم مش عاوز يبيع لجاره تحديدًا لأي سبب من الأسباب زي السعر مثلًا يبقى جاره ممكن جدًا يكون ضلع في القضية بشكل أو بآخر أو إحنا نخليه ضلع..

بإبتسامة غلبت عليها الفضول والقليل من الإعجاب عقب شلتوت:

- تمام وبعد ما كلمته؟

- كانت المفاجأة إللي تقريبًا خلَّصت على آخر ركن من أركان الإتهام.

- إحكيلي..

- أولاً المتهم من قرية تابعة لمركز بمدينة طنطا وعنده أربع فدانين.

- عادي..

- صحيح، عادي وعادي جدًا كمان، بس لمّا يكون جاره في الأرض اسمه (سعيد أحمد الحلبي)، يبقى مش عادي..

بنبرة صوت غلبت عليها الدهشة من هَول المفاجأة، صاح شلتوت:

- معقول!!.. ده الراجل بتاع الرقابة من عيلة (الحلبي).

- بالظبط.

- بس يمكن تشابه أسماء بس أو حتى لو نفس العيلة وارد جدًا إنهم ما يعرفوش بعض أصلًا.. لا مش يمكن، ده أكيد..

- كلام حضرتك وارد طبعًا وغالبًا دي الحقيقة إن مفيش أي علاقة تربطهم ولا حتى شافوا بعض قبل كده.. بس شغلتنا إننا نستخدم النقطة دي.. حضرتك نسيت إن أوامرك كانت إننا نثبت إنه أشرف راجل في مصر؟..

- لا ما نسيتش، ومين قال إن الراجل كان عاوز يبيع أرضه؟ ومين برضو قال إن التاني كان عاوز يشتري..؟

- ما حدش قال يا أفندم..

- أومال!!

- تفكيري كان إستخدام كل نقطة حتى لو صدفة علشان نخلق علاقة تبدو طبيعية بين المتهم وبين مسؤول الرقابة، مش أكتر ولا أقل.

- تمام، كمل.. كمل..

- قبل ما أكمل، ممكن أسأل حضرتك سؤال؟

- إتفضل.

- حضرتك عاوز الراجل ياخد براءة ولا عاوزه يبان إنه أشرف راجل في مصر؟

- الاتنين..

- لو على البراءة بس دي سهلة ومش محتاجة كل ده.. في أخطاء إجرائية كتير ممكن نعتمد عليها والراجل حتمًا هياخد براءة.. إنما

علشان يبقى أشرف راجل في مصر ده موضوع تاني..

وصل فضول شلتوت لذروة فضوله وأشعل سيجارًا وقد نسى أن هناك سيجارًا مشتعلًا موضوعًا على منفضة السجائر الزجاجية أمامه مباشرة وسأله:

- وبعدين؟

- بعد الإكتشاف ده، هيبان إن الراشي هو نفسه المرتشي، وما تنساش سعادتك إن الراشي نفسه هو كمان في مشكلة كبيرة لإنه مُتّهم في نفس القضية ومن مصلحته إنه يتعاون معانا ويكون في صفنا، وبكده تكون واقعة التلبّس مش موجودة من الأساس لأن الراجل كان بيدفع فلوس الأرض للبايع إللي هو نفسه المتهم الرئيسي.

وهنا أكمل شلتوت بعدما التقط حبل أفكار سعدي وفَطُن لما وصل إليه:

- وبكده يبان قدام المحكمة إن الراجل بتاع الرقابة قد يكون متواطئ مع قرايبه علشان يسجن الراجل أو على أقل تقدير تبقى القضية ورقة ضغط على الراجل بتاعنا والأرض ما تتباعش لحد غيرهم وكمان بالسعر إللي هم عاوزينه..

- بالظبط.. وإسمحلي سعادتك ألخَّص كل إللي قولته.. أولًا إذن النيابة باطل علشان التاريخ زيّ ما وضَّحت لحضرتك قبل كده وحتى لو كان بسبب خطأ بشري غير مقصود وبيحصل أحيانًا، وطبقًا للقانون إنه باطل إن النيابة تستخرج إذن لجريمة

مستقبلية وكمان لإن بعضها بدون توقيع وده استنادًا للمادة ٨ من قانون ٥٤ لسنة ١٩٦٤ وبالتالي كل التحريات المبنيّة على الإذن الباطل هي كمان باطلة، ثانيَا تناقُض سجل المكالمات الخاص بشركة المحمول وبين سجل مكالمات الرقابة يدفع بعدم دقة التحريات أو على الأقل عدم اكتمالها، ثالثًا بالرغم من معرفتنا إن المتهم واصل وكان بيقدر يعمل حاجات كتير، لكن القانون مالوش دعوة بالكلام ده، الراجل قُدام القانون وقت التلبِس ما كانش بإيده أي قرار من النوع ده، لأنه ببساطة ما كانش وكيل وزارة ولا حتى قائم بأعماله، رابعًا الدفع بأن الموضوع كيدي بتورط موظف الرقابة الإدارية لوجود علاقة مشتركة حتى ولو من بعيد بالمتهم..

بعد لحظة صمت، حاول فيها سعدي ابتلاع ريقه واستكمل شراب ما تبقَّى من زجاجة المياه، أكمل:

- وأخيرَا سعادتك وزيّ ما حضرتك عارف وأستاذنا كلنا في القانون، إن القاضي علشان يصدر حكم لازم يكون استقر في يقينُه إن المتهم مُدان فعلًا وبنسبة ١٠٠ % وأعتقد إن كل الكلام إللي فات كفيل بإنه يحقَّق مبدأ "الشك في مصلحة المتهم" إللي هو "مبدأ إن الأصل في الإنسان البراءة" وكمان ده مبدأ أصيل في الشرع "إن الإمام حين يعفو في الفعل إن كان قد وقع، فهو خير له من أن يظلم برئ".

قالها ثم صمت قليلًا مُعطيَا لشلتوت فرصة للتفكير فيما قاله، واستطرد:

- وبالتالي، فإن القاضي الجنائي لو كان بصدد شك في أمرٍ ما، أو في حالة عدم تأكّدُه من نسبة الجريمة للمتهم، فالأصل أن القاضي الجنائي هيحكم ببراءة المتهم من الجريمة المنسوبة إليه.. وطبعًا حضرتك أستاذنا وإللي معلِّمنا الكلام ده كله..

طرق شلتوت على مكتبه بقبضة يده، ثم صاح:

- يخربيتك.. شيطان.. برافو.. فعلًا برافو.

- برافو من سعادتك؛ تكريم كبير.

- فعلًا أول مرة أحس إن في حد بيفهم من المحامين إللي مشغَّلهم عندي.

- ألف شكر، أحب أوضَّح لحضرتك إن توجيهاتك وكمان شغلي بالمركز هما السبب الرئيسي في إني أحل القضية دي..

مع استئذانه بالإنصراف، مدّ يده مصافحًا شلتوت ومناولًا إياه ورقة قد كُتب فيها ملخص لكل ما قاله..

أذن له شلتوت بالإنصراف، فاتجه مُباشرةً صوب باب الحجرة خارجًا منها وموصدًا بابها خلفه.

ثم اختفى بين أروقة المركز...

***

بعد ثمانية أيام...

تناولت العديد من وسائل الإعلام أخبار براءة المتهم بالرشوة وأبرزت براعة شلتوت وكيف هي حنكته وتمكّنه من أدوات مهنته في نفي جميع التُهم عن موكله، ولم يخلُ الأمر من استضافته في بعض البرامج الحوارية الذائعة الصيت و التي لها نصيب الأسد في نسبة المُشاهدات وأيضًا عَقد عدد من الحوارات الصحفية ببعض الجرائد ذات الإنتشار الواسع والتي أفردت للحدث ولشلتوت مساحة كبيرة بصفحة أخبار الحوادث والقضايا.

نال أيضًا وكيل الوزارة نصيب لا بأس به من تلك الحوارات واللقاءات والتي لم يخلُ حديثه فيها عن براعة شلتوت وتمركز حديثه حول أعداء النجاح وكيف هم ينصبون الفخاخ ويحبكون المؤامرات لتصفية الشرفاء وبالطبع لم يسهو أن يشكر القائمين على شئون العدل والعدالة وأيضًا ثناؤه على القانون وكيف هي متانته وصلادته في مواجهة الشر والأشرار.

***

مهنة المحاماة من إحدى المهن القليلة التي قد يعلو فيها شأن أحد المحاميين بسرعة البرق بسبب السمعة التي قد يكتسبها بسبب قضية واحدة أو عدد محدود من القضايا خاصة، وإذا كانت من القضايا التي تمسّ الرأي العام أ و إحدى القضايا المُعقدة والتي تحتاج لبراعة من نوع خاص لا تتوفر لدى الكثيرون للفوز بها وأحيانًا يذيع صيت

أحدهم عندما لا يكون خفيّا أنه وراء إنتصارات كبيرة لأحد المحامين المشاهير ويتناقل الهمس بين الناس وبعضهم ويذيع صيته في فترة محدودة ويزداد مريدوه وحينها لا يحتاج للتدرج عبر سلم وظيفي وإنتظار عدد من السنوات للإنتقال من درجة وظيفية لأخرى قد لا تأتي أبدًا.. على النقيض قد يظل آخرون طيلة عُمرهم من ممارسة مهنة المحاماة في الظل رغم كفاءة البعض منهم لأنه لم ينَل من الحظ ما يكفي للترافع في قضية رأي عام أو لم يستطع الترويج لنفسه بما يكفي، أو لم يكن من أولئك الأذكياء الذين استطاعوا نسج شبكة عنكبوتية من العلاقات التي تمنحهم الشهرة على طبق من فضة...

كان سعدي من الصنف الأول الذي قد قُدِّر له أن يذيع صيته بعد فترة وجيزة من العمل بالمحاماة بسبب كل ما ذُكر سالفًا.

بمرور الأيام، ازداد الهمس داخل أروقة مركز شلتوت بأن الأيام القادمة ستشهد انتقال راية الإدارة من أستاذ جمال لسعدي نحلة وخاصةً بعد سلسلة من الإنتصارات المتوالية له على الساحة القضائية، مما جعله أحد أقرب المقربين لشخص شلتوت، بل إنه وفي كثير من الأحيان كان يقوم مقامه في بعض الإجتماعات الخاصة بكبار عملاء المركز.

الجدير بالذكر أن أحد أهم أسباب عُلُوّ مكانته بالمركز كان طريقة تعاملهُ المحسوبة مع كل العاملين وخاصةً مع شلتوت ذاته، كان يتعامل بدقة لا تقل عن دقة أكثر ساعات العالم شهرة، فكان يفكر في كل كلمة قبل النطق بها، بل كل حرف، وأحيانًا كثيرة كان يميل للصمت ويفضل الإستماع إلى أن يُطلب منه التَحدُث أو إبداء الرأي.

كان أكثر ما يميزه هو إعترافه بجهله ببعض الأمور إذا ما تطلَّب الأمر

ذلك، فكان لا يخجل من أن يجيب "لا أعرف" وكان يؤمن بأن ذلك أفضل بكثير من إظهار المعرفة بلا علم أو معلومة مما أكسبه ثقة كبيرة لدى كل مَن يتعامل معه.. لذا كانت كل خطوة يخطوها وكل كلمة يتلفَّظ بها تُعلي من شأنه درجة وتزيد من مكانته درجات، سواء عند شلتوت أو زملائه.

مع تواتر الأيام وتعاقب الأحداث، الحدث وراء الحدث، ومع ازدياد يقين العاملين بأنه قد حان الأوان لتكون الأولوية فيها لسعدي، كانوا يحاولون زيادة تقرَبهم له لعلمهم بأنه سيكون همزة الوصل بينهم وبين شلتوت وذلك من شأنه إسناد صلاحيات متعددة له من حيث ترشيحهم لمكافآت أو زيادة في الراتب أو إسناد بعض القضايا لهم ذات الأهمية الخاصة والتي بدورها ستزيد من مكانتهم عند شلتوت وتدعم استقرار عملهم بالمركز..

الكل كان يتودَّد له عدا إنجي، الكل كان بانتظار اللحظة المناسبة للتقرَب منه وتجويد علاقته به عداها هي -إنجي-، لكنه بذكائه الفطري كان يحافظ على مسافة متساوية من الجميع وكان حريصًا عليها كل الحرص، حتى برغم كل النجاحات المتواصلة التي حقَّقها وما زال، كان يتعامل مع شلتوت كمحامى مُبتدِئ ولا يحاول إبراز نفسه على الساحة إلا بطلب منه شخصياَ..

كثيراَ ما كان يُظهِر على عكس الحقيقة، عدم علمه ببعض النواحي القانونية، وترك الفرصة لشلتوت ليَرضي غروره وكأنه ما زال يُعلِّمهُ أصول وقواعد العمل ليَحافظ على صورة المحامي المُبتدئ الذي ما زال يتعلم من أستاذه.

سعدي كان يعلم بأن المستقبل يحمل له الكثير ولكنه كان يجهل إن كان خيراَ أم شراَ.. والحقيقة أنه لم يكن منشغلًا كثيراَ بالتفكير فيه لأنه قد اتخذ قراره، وعقد عزمه على المُضيّ قُدمًا مهما كانت النتائج.

حتى علاقته بجمال، حاول الإحتفاظ بها كما هي -علاقة الأستاذ بتلميذه- و لم يُشعره يومًا بأنه تفوّق عليه أو أنه قريباَ قد يحتل مكانه.. بل إنه في أحيانٍ كثيرة كان يُنقذ جمال قبل الوقوع في خطأ قد يؤدي لطرده من العمل وخاصةً أنه لم يكن خفيّا على أحد أن شلتوت كان يَتحيّن الفرصة لإستغلال أي خطأ منه حتى ولو كان صغيراَ ليَقصيه فوراً عن العمل وخاصة بعد أن وجد بُغيته في (نحلة).

هذا ما أثار دهشة جمال، مما جعله يطلب من سعدي اللقاء على أحد الكافيهات القريبة من مكان عملهم بعد إنتهاء فترة العمل المسائية للتحدث معه..

***

داخل إحدى كافيهات التجمع الشهيرة وبعد إنتهاء فترة العمل المسائية...

دخل سعدي مُسرعًا ليجد جمال جالسًا بإنتظاره، ليبادره قائلًا:

- إتأخرت كده ليه يا عم سعدي؟

- معلش والله آسف.. وأنا ماشي دكتور شلتوت طلب مني شويّة مستندات خاصة بقضية الراجل إياه بتاع وزارة الإستثمار.. ما إنت عارف يا أستاذنا الشغل مش بيحلى إلا على آخر وقت، وطبعًا الغلابة إللي زيّي مش هيقدروا يقولوا لأ، حتى لو لَطعني جنبه لنص الليل..

- عارف..عموماً ولا يهمك.. إتفضل اقعد، تشرب إيه؟

- ليمون.

بعد أن طلب جمال الليمون من جارسون الكافيه، نظر لسعدي وسأله:

- الدنيا معاك أخبارها إيه؟

- عادي.. على حطة إيدك.. الحمد لله.. أحسن من غيرنا كتير..

- أنا مستغربك يا سعدي..

- قبل ما أسألك مستغربني ليه.. عاوز أقولك إني كمان مستغرب..

- من؟

- إيه يخلينا نتقابل هنا؟ أقصد يعني كنا اتكلمنا في المكتب.

- عندك حق.. بس هرد على سؤالك بعدين..

- ماشي.. نرجع لكلامك عن إستغرابك ليّا..

- مستغربك لأنك لغاية دلوقتي بتتعامل معايا ولا كأن في أي حاجة.

- ما هو فعلًا مفيش أي حاجة..

جمال مقاطعًا وبلهجة لا تخلو من حدة:

- سعدي، ما تستذكاش عليّا..

- تقصد إيه بس يا أستاذ؟

- أقصد إن كل حاجة بتقول إنك هتبقى مكاني قريب ومع ذلك بتتعامل معايا زيّ أول يوم جيت فيه، مع إن الكل تقريباَ ابتدى يتعامل معاك على إنك بقيت مدير المكان.

- لو ممكن توضَّح كلامك أكتر..

- كنت بفترض إنك تتغيّر أو تتعوج عليّا مثلًا زيّ أي حد لو في مكانك، أو زيّ طبيعة البشر عمومًا، إنما إللي مستغربه إنك ما عملتش كده..

- أستاذ جمال.. زيّ ما حضرتك عارف أنا من أوائل دفعتي وبتقدير إمتياز مع مرتبة الشرف ومع ذلك مع بداية شغلي معاكم كنت ببتدي من الصفر، ولولا مساعدتك ليّا وأمانتك معايا في إنك تعلِّمني ما كنتش بقيت في الوضع إللي أنا فيه دلوقتي.. تقدر

تقول عرفان بالجميل.. ده غير إن مش من طبعي أتعالى على أي حد أيًّا كان..

- ملاك يعني!!..

ارتشف جمال من كوب النسكافيه ثم مدَّ يده ليلتقط منديلًا ورقيًا من على الطاولة ليمسح بعض آثار رغوة النسكافيه التي ارتسمت حول شفتيه، ثم أردف:

- ما بتشربش الليمون بتاعك ليه؟
- زيّ ما تقول كده مش بعرف أعمل حاجتين في وقت واحد.
- مش فاهم!!
- يعني هشرب ولاّ أركز معاك؟

واصل جمال حديثه مبتسمًا:

- إنت ذكي لدرجة مخيفة..

داعب حاجبيه بأنامله، ثم واصل حديثه:

- فاكر يا سعدي يوم القضية إللي اتنست؟
- طبعًا.. ده يوم ما يتنسيش ولا دي قضية تتنسي.
- هو إنت فعلًا حاولت تتصل بيًا ومعرفتش توصل لي؟
- طبعًا لأ..
- تعجبني صراحتك.. طالما إنك كنت مستني فرصة عشان تبان

وتظهر، كان أولى بيك إنك تستغل أي فرصة أو حتى شبه فرصة علشان تُنطُرني من المكان وبأقصى سرعة، ده سؤالي..

- لما ما اتصلتش بيك المرة إللي تقصدها، دي كانت فرصة اتخلقت من العدم علشان أثبت فيها نفسي وده مش عيب لإني كنت لسه ببتدي وفعلًا كنت وقتها محتاج لأيّ موقف يثَبت رجلي في الشغل، ومع ذلك أنا ما خطَّطتش إن حضرتك أو إن غيرك من المحامين ما يحضروش الجلسة، ولا أصلًا كنت أتوقع إن فعلًا ده يحصل..

بعد أن ارتشف رشفة سريعة من الليمون، أكمل:

- ولو فكرت شويّة هتلاقي إني لو حتى كنت اتصلت، ما كنتش هتلحق لا تيجي ولا حتى الوقت كان هيسعفك إنك تبعت حد من المحامين وكانت النتيجة هتبقى واحدة تقريبَا..

- وبعدين؟

- يعني أقصد إن إللي حصل فعلًا مجرد صدفة وأنا استغلتها.. إنما كون إني أكون سبب في إني أقطع عيش حد وأتعمد أعمل كده.. مستحيل.. ده مش أسلوبي ولا عُمره هيكون ولا محتاج لكده.

- هسألك تاني.. ملاك يعني؟!!

- لأ خالص وأبعد ما أكون عن ملاك أو حتى إنسان كويس.. بس أولًا أنا شايلَّك جِميل ومش هنساه مهما طال الزمن وثانيَا وبصراحة...

جمال، مقاطعًا:

- أيوااه، أنا عاوز الصراحة..

- إني أكون مكانك في يوم من الأيام دي حاجة جاية جاية ومن غير قصد ولا تَعَمّد مني، أتعب نفسي ليه؟! وأشغَّل دماغي علشان إيه؟! وليه أبذل مجهود ممكن أستفيد بيه في حاجة تانية وبعدين أنا مؤمن إن كل حاجة بتيجي في أوانها.. وبرغم إني زيّ ما قلتلك، إن مبدأي إني ما أكونش سبب في قطع عيش حد، حضرتك ليك مكانة عندي تمنعني أعمل حاجة زيّ كده.. حتى لو ده هيفيدني.

جمال.. متنهدًا:

- مش خايف من الثقة الزايدة أوي دي؟

- لأ خالص.. أولًا لأن مفيش حاجة أخاف عليها أو منها، ثانيًا دي مش ثقة أصلًا، دي مجرد رؤية لسير الأحداث مش أكتر.. تحب أقولك كمان على حاجة يمكن هتستغرب لما تسمعها؟

- يا ريت.. إتفضل..

- بالنسبالي وضعي الحالي هو أفضل وضع ليّا.. إن حضرتك تكون المدير وأنا زيّ ما أنا.. لأن رأيي إن أفضل وضع في الدنيا إنك تكون الراجل التاني مش الرجل الأول، لأن ده في حد ذاته بيحميك من حاجات كتير و في نفس الوقت بيدّيلك ميزات أكتر..

- وضَّحلي أكتر..

- يعني المدير هو دايمًا إللي في وش المدفع وهو دايمًا إللي بيشيل أخطاء كل إللي حواليه، وهو إللي لازم تبقى عينه في نص راسه زيّ ما بنقول..

شعر سعدي بعدم وصول فكرته لجمال بعد ضغطة الأخير بسبابته وإبهامه على جبينه وعصره بينهما، فاستطرد سعدي:

- نفس فكرة الأخ الكبير وأخوه الصُغيّر.. مع أي مشكلة، الأخ الكبير هو إللي بيتحمّلها وبيكون دايمًا غلطان، علشان هو الكبير وهو المفروض إللي كان خد باله وعمل حسابه ولازم يتصرف صح وخطواته تكون محسوبة بالمسطرة وكل اللوم إللي في الدنيا بيَقع عليه، مع إنه في أحيانًا كتير بيكون معذور أو مالوش علاقة بالموضوع من أساسه، على الناحية التانية، الصُغيّر دايمًا حجته معاه..

- إللي هيَ؟

- إنه صُغيّر.. يغلط.. يعُكّ الدنيا في بعضها.. مهما عمل، معاه حجَته الجاهزة إنه صُغيّر وما عندوش خبرة..

- يخربيت دماغك يا أخي.. من أول يوم جيت فيه وأنا عارف إنك ذكي ومش هكون كدَّاب ولا ببالغ إني فعلًا حبيتك وما بخلتش عليك بحاجة..

- عارف ومُتأكد ومن غير ما تقول.

- وعلشان بحبك ولسبب ما خايف عليك، عاوزك تسمعني كويس..

- إتفضل..

- دكتور شلتوت جنة ونار في نفس الوقت، والكلام ده لو ما سمعتوش من حد غيري، أكيد حد هيقولهولك في يوم من الأيام.. لو زاد قُربك منه أوي هتتلسع بناره، إنما لو حافظت على مسافة معينة معاه، مش هتشوف غير نعيمِه.. أقصد بالنعيم فلوس ومميزات وحاجات تانية كتير، وأنا شايف إنك بتعمل كده أو على الأقل بتحاول.. بس الأهم إنك تحافظ على كده..

- أنا فاهم بس مش أوي.. ممكن توضح أكتر.

- إنت أشطر محامي في المكتب، وزيّ ما أنت أكيد لاحظت إن شلتوت دايماً بيحافظ إنه يعيّن محاميين أغلبهم نُص كُم علشان ما حدش يتنطَّط عليه في يوم من الأيام، أو يمكن علشان يفضل حاسس إنه ملك لمملكة من العبيد المحدودي الإمكانيات، علشان كده لو في يوم الدكتور حسّ ولو للحظة إنك في منافسة معاه أو بتحاول تبيِن إنك شاطر هيكون مصيرك مش بس الطرد..

- أومال؟!

- بُص يا سعدي، شلتوت مش فرد.. ده مجموعة أفراد، أو ممكن يكون واجهة لمجموعة أشخاص..تقدر تقول زيّ مافيا على صغير لو جاز التعبير.. شلتوت وإللي معاه أشبه بدولة صغيرة لها قوانينها الخاصة بيها وكمان لها سياسات مش هتفهمها ولا هتقدر تستوعبها الا لو كنت واحد منهم، وده صعب..

واستطرد ساخرَا:

- أفتكر إنك تاخد جنسية إنجلترا أسهل من جنسية دولة شلتوت وإللي معاه.. أعتقد فهمت قصدي؟

- مش أوي..

- يا ترى خانك ذكاءك إنك تفهم ولا مش عاوز تفهم؟

- تقريبَا مش عاوز أفهم.

قاطعه جمال مسرعًا:

- إوعى تكون فاكر إني بقولك الكلام ده علشان أخوِّفك أو أبعدك علشان أحتفظ بمكاني.. لأني خلاص أخدت القرار إني أمشي.

- ما عنديش ذرة شك إنك بتنصحني وتفكيري مش واخدني لفكرة تانية..

بعد أن اعتدل قليلًا في مقعده، استطرد سعدي:

- بس تمشي ليه بإرادتك؟.. إنت لسه مدير المكان ومُرتَّبك كويس.. إستنى لحد ما تيجي لوحدها.

- بما إنك اتكلمت معايا بصراحة، أنا كمان هتكلم معاك بصراحة..

- إتفضل..

- زيّ ما أنت قلت، هي جاية جاية.. يبقى تيجي من عندي أفضل.. على الأقل علشان كرامتي من ناحية، كمان من ناحية تانية وده الأهم عندي إني ملِّيت من الشغل مع شلتوت، وجِه الوقت إني

أستقلّ بنفسي، بقيت طول الوقت حاسس إني بشتغل في سجن وفي إيدي ورجلي سلاسل طول الوقت، بقيت حاسس إني لا قادر أتنفس ولا أتحرك خطوة لقُدام ولا حتى لَورا والحمدلله عملت فلوس كويّسة أعتقد إنها هتسندني لحد ما أقف على رجلي من جديد.

- مع إني مش موافقك أوي، بس مش هقدر أجادلك في قرار إنت أدرى مني بيه.. كل إللي أقدر أعمله إني أدعيلك بالتوفيق.. ومش عارف أقولك إيه أو أشكرك إزاي على النصيحة..

- ما تقولش أي حاجة، وبالتوفيق ومش هعطَّلك أكتر من كده.. لو حابب تتفضل براحتك، أنا لسه قُدامي شويّة وأقوم.

- قبل ما أسيبك، كنت عاوز أسألك على حاجة..

- إتفضل..

- إنجي...

- مالها؟

- حكايتها إيه؟

- من اللمعان إللي شايفُه دلوقتي في عينك أقدر أفهم تقصد إيه.. بُص يا عَمّنا، كل إللي بيشتغلوا في المركز مسمينّها (المرأة الحديدية).. ما حدش يعرف عنها حاجات كتير أو يمكن ما حدش يعرف عنها حاجة خالص ولا إيه حدود علاقتها بشلتوت..

- فسَر الماء بالماء!!!

بإبتسامة -لا يفهمها إلا الرجال- حملت الكثير من المعاني والألغاز في آنِ واحد، استطرد جمال:

- هريّحك.. إنجي كانت بنت موكِّل عند شلتوت وهو لسه محامي في بدايات شهرته.. وقتها كانت لسه صُغيّرة وبتدرس في معهد خدمة إجتماعية حسب ما سمعت.. أبوها الله يرحمه كان موظف صغير في وزارة الأوقاف وقبل ما يطلع معاش بسنتين أُتُّهِم بالباطل بتزوير بعض الأوراق الخاصة بالوزارة.. الراجل كانت صحته على قدها وكانت هي المتوليّة التعامل مع شلتوت في متابعة قضية باباها، وخاصةً إنها كانت وحيدة أبوها وتقريباَ كانت مقطوعة من شجرة.. يعني لا خال ولا عم.. والدها للأسف مات والقضية لسه شغالة.. من أول يوم الدكتور شافها فيه عجبته ودخلت دماغه، وبعد ما مات أبوها قرر إنه يتبناها..

- يتبنَّاها!!

- مشِّيها يتبنَّاها..

بعد أن انتهيا من كريزة ضحك أصابتهما، أكمل جمال:

- عرض عليها أن تشتغل عنده سكرتيرة، ومن وقتها لحد النهاردة وهي معاه.. من وقتها لحد النهاردة وهي معاه.. الكلام ده بقاله سنين طويلة ما أفتكرش إن حد يعرف بالظبط عددها وطبعًا مش محتاج أقولك إن الكلام أنا عرفته منه أو منها..

- أومال!!

- من مدير المكتب إللي قبلي..

ثم استطرد بلهجة حملت الكثير من نبرة الحزن:

- الله يمسيه بالخير.. إنجي، كانت السبب الرئيسي في قطع عيشه..

- يا ساتر يا رب، للدرجة دي شرانية؟!

- لأ خالص.. مدير المكتب، كانت كل غلطته إنه حب إنجي أو على الأقل خالص أُعجِب بيها، زّي كتير غيره، بس هو حاول يتقرّب لها بشكل أو بآخر وكان فاكر إن الموضوع عادي وما فيهوش أي مشكلة من أي نوع وهيمّر مرور الكرام، لكن للأسف بمجرد إن شلتوت لاحظ ده، طرد الراجل في يومها.. باختصار شلتوت بيعتبرها ملكية خاصة بيه هو لوحده وما حدش يعرف لغاية اللحظة دي إيه نوع العلاقة إللي بينهم، هل فعلًا هي مجرد مديرة مكتب؟ ولّا صديقة؟ ولّا زوجة في السر؟.. لكن الأكيد إنها كاتمة أسرار، هو مش بيثق بحد ثقة عمياء إلا هي، والحق يُقال البنت (ده إذا كانت بنت) في مُنتهى الأمانة معاه.

عقَّب سعدي، ساخراَ:

- عمومًا هي البنت تستاهل.. ده لو كانت بنت.. هههههه.

تزحزح جمال إلى أن استقر على حافة المقعد واستطرد بلهجة بالغة الحدة اقتربت من لهجة الأب عندما يحاول تحذير ابنه من خطر ما يشعر أنه قد اقترب منه:

- سعدي..

- خير؟

- إنجي خط أحمر، ولآخر مرة هقولهالك علشان تستمر في شغلك عند شلتوت، لازم تنسى إن في حد هناك اسمه إنجي أصلًا.. إحنا مش أد الناس دول.

- فهمتك يا أستاذنا.. ولو شكرتك من دلوقتي لحد بكرة الصبح مش هيعبّر عن إللي عاوز أقولهولك، وإسمحلي إني أستأذن..

- إتفضل.

قبل أن يمضي سعدي في طريقه للخروج التفت مجددًا لجمال، مُتسائلًا:

- ما جاوبتنيش على أول سؤال سألتهولك!!

- إللي هو؟

- الكلام إللي اتكلمناه دلوقتي، ليه ما اتكلمنهوش في المكتب؟!!

- المكتب كل حركة فيه وكل همسة بتتسجل صوت وصورة.. ستي وستك قالوا إيه؟

- قالوا حاجات كتير..

- صح، بس أهم حاجة قالوها، حاجتين..

- إللي هما؟

- الباب إللي يجيلك منه الريح سده وإستريح، وكمان، إبعد عن الشر وغنِّيله.

- عندك حق يا أستاذنا.

ثم مضي سعدي مغادراً ومتمتماً:

- "تمام.. تمام جدًا...."

***

شاردًا في أفكاره.. كان سعدي قابعًا على مرقده داخل غرفة نومه، تارةً مُبتسمًا وأخرى عاقدًا حاجبيه.. شاعرًا باقترابه من حافة الجنون..

كانت ساعة الحائط المُواجِهة لسريره تعلن عن إقتراب مُنتصف الليل.. مُتقلبًا يسارًا ويمينًا محاولًا النوم بكل ما أوتي من طاقة، لكن الأرق كان هو المُنتصر.. كلما حاول التركيز لينام جالت بخاطره عدة مشاهد عاشها منذ طفولته، منها عندما كان تلميذًا بمدرسة (الشهيد أحمد كحيل) الإبتدائية المُشتركة بإمبابة، وتحديدًا مع بداية العام الدراسي وكم كانت كم الوصايا من الأب والأم أيضًا بضرورة التشبّث بالجلوس بأول مقعد بِفصلة الدراسي حتى يتمكَّن من رؤية السبورة بشكل أوضح، وكأن قُرب المسافة من السبورة بمثابة الطريق للتفوق الدراسي أو هو التفوق ذاته، وبالطبع لم تكن تلك وصية والديّ سعدي وحدهما بل كانت وصية جميع أولياء الأمور أو أغلبهم على الأقل، وما ينتج عن تلك الوصايا من تدافع هائل للتلاميذ للفوز بتلك المقاعد الأمامية حتى وإن تطّلب الأمر استخدام القوة البدنية أو بعض

المهارات الخاصة مثل القفز أو حتى الزحف، بل إن البعض ذهب بفكرِه بعيدًا.. فكان يتعمّد إرتداء نظارة طبية بالرغم من سلامة نظره لكسب عطف المُعلِمين لكي يسمحوا له بالجلوس بأحد المقاعد المواجهة مُباشرة للسبورة.

عدا بعض التلاميذ، وبرغم تلقِّيهم ذات الوصايا ولكنهم لم يعبأوا بها أبدًا، فكانوا يختارون المقاعد الخلفية طواعية، قد يكون لعلمهم بأن الفروق ليست بتلك الضخامة.. وخاصة أنها تحتاجِ لخوض صراع على لا شيء من وجهة نظرهم أو ربما لمعرفتهم المُسبَقة لحجم قدراتهم والتي لا تؤهلهم للدخول في صراع من الأساس، وبعضهم اختارها حتى يكون بعيدًا عن أنظار المُعلمين وبالتالي يفعلون ما يشاءون متى شاءوا دون أن يراهم أحد، حتى النوم إن أرادوا ، والصفة الغالبة على هؤلاء كانت ضخامة حجم أجسادهم مقارنة بأقرانهم بذات الصف الدراسي..

أما سعدي ففطن منذ البداية بأن الكل انقسم لقسمين، أغلبية تحارب من أجل الصفوف الأمامية وأقلية تحتل الصفوف الخلفية، أما مقاعد الصفوف الوسطى فلا تجد لها مريدون إلا مَن خاب أمله في الإلتحاق بأحد المقاعد الأمامية، أو من حضر بعد فوات الأوان للحصول على مقعد خلفي، ولذلك منذ اللحظة الاولى كان يعرف غايته؛ وهي الجلوس بالصف الثالث يمينًا وبجانب الشباك الوحيد بالفصل.

مع تقلُّبه مجددًا ليستقر على ظهره، لم يستطع أن يمنع عيناه من التحديق بنقطة مُضيئة بسقف الغرفة قد انعكست من ضوء مصباح بالشارع من خلال فتحات الشيش الخشبي للغرفة، مع تحديقه بها، تَذَكّر مدرس اللغة العربية -أستاذ أحمدي- ذو اللحيّة الكثيفة

الطويلة، وحليق الشارب، وكيف كانت نبرة صوته الخشنة ونظرته المُخيفة إلى حد كبير من خلف عدسات نظاراته السميكة، وكيف كان اهتمامه بالشرح يفوق بكثير اهتمامه بالتلاميذ أنفسهم أو ملاحظتهم من حينٍ إلى آخر.. كان اهتمامه بالتعمّق في تفاصيل التفاصيل يفوق أي إهتمام، غير مُلتفت أو مُعير أي إهتمام لتَشتُّت التلاميذ وانشغالهم بتناول الشطائر بعد شعورهم بالملل الشديد.. خاصة وأنه نادرًا ما كان يلتفت بعيدًا عن السبورة، كان التلاميذ يعتبرون حصة (أستاذ حمدي) بمثابة وقت تناول الإفطار -الجماعي أحيانًا- خاصةً أن حصة اللغة العربية دائمًا وأبدًا كانت الأولى في جدول الحصص الدراسي..

على النقيض تمامًا، كانت حصة الرسم الخاصة بأبلة (أحلام) ذات القوام الممشوق والشعر المهدول والبشرة التي تكاد تضئ من بياضها ونضرتها.. وكيف كان إستعداد التلاميذ لهذه الحصة على وجه الخصوص والتحديد.. فمنهم مَن يُسرع بإضافة بضع قطرات من الماء لشعر رأسه ليَعيد تصفيفه ليبدو وسيمًا أو لإخفاء بعض التموّجات التي يتميز بها الشعر القوقازي، بينما ينشغل آخرون من التحقُّق من إنضباط ياقة قميصهم.. بينما قلة قليلة منهم من كان مُنهمكًا بما هو أهم وهو زحزحة التختة قليلًا بزاوية تسمح لهم برؤية أبلة أحلام بشكل كامل..

علت شفتيه إبتسامة وهو يتذكر كيف كان تسابُقهم في التقاط طباشيرة سقطت منها أثناء الشرح لإعادتها إليها مرة أخرى، رغبةً منهم في لسمة فقط من يدها.. الجميع كان يسعى للفت انتباهها بأي شكل ليفوز بمجرد إبتسامة.. لم يكن خفيًا عليه ولا على معظم التلاميذ بأن

ما يفعلونه لم يكن سرّاً عليها، بل كانت تعلم جيدًا ألاعيبهم، وأحبّتها أيضًا.

لم يكن مسموحًا بجلوس الذكور بجانب الإناث على نفس ذات المقعد داخل الفصل الدراسي الواحد.. فكانت إدارة المدرسة تعتقد بأن العزل المكاني هو بمثابة الحل الآمن لعدم الإختلاط بين الجنسين والذي قد يُنتج عنه بعض التبِعات الغير مرغوب فيها من قبل الإدارة، مع ذلك كانت الحيل البسيطة من قبل التلاميذ كفيلة بتخطّي جميع الحدود والعقبات المكانية، كتبديل الكراسات التي تحوي رسائل الحب والغزل، بل تخطّت أفكارهم ما هو خارج عن المألوف من استخدام المرايات الصغيرة لرؤية بعضهم البعض سواء علانية أو خلسة..

جال بخاطره (سُهيلة)، التي اكتملت فيها جميع مدلولات الأنوثة بالنسبة له، ابتداءاَ بجمال الوجه ومروراً بتوهُّج الجسد وانتهاءاَ بنبرة صوتها الذي امتزج فيها الحنان بالدلال، والرقة بالاغراء..

لم يكن بحاجة لأن يستخدم مرآة ليراها ويراقبها، ولم يكن ليضع نفسه في موضع أن يضبطه أحد متلبسًا بالمرآة سواء من زملائه أو من إدارة المدرسة، إنما كان يستغلّ موضعه من شباك الفصل لرؤيتها من خلال إنعكاس صورتها من خلال الزجاج والتأمل فيها دون ملاحظة أو مراقبة من أحد.. أما بالنسبة للرسائل فكان مكانها درج مكتبه بغرفة نومه كسائر الرسائل..

لم تكن المذاكرة تُمثِل بالنسبة إليه أولويّة أولى، فقد كان حرصه الأكبر على تحصيل ما يؤهله للنجاح المتوسط خيفة أن يستثير غضب أبويه بالرغم ما لديه من مؤهلات قادرة على جعله من مصاف التلاميذ

الأوائل ولكنه ربما فَطُن منذ الصغر بأن الحياة التي نحياها لا تفرق بين الأول دراسيّا والأخير، فالكل غالبًا ما يتساوى إلا مَن كان لديه بعض المؤهلات الخاصة أو العلاقات الإستثنائية وخاصة أنه كان يعلم بأنه لو أراد يومًا أن يتفوّق على الجميع لفعل.

إهتمامه الأكبر انصبّ على القراءة خارج المناهج المدرسية، مما أُتيحَ له من الكتب التي استطاع إستعارتها من بعض زملائه وبخاصة الكتب التي كانت تتناسب مع مرحلتة العُمرية كالسلسلة القصصية (رجل المستحيل) و(المغامرون الخمسة) وأحيانًا بعض الروايات العاطفية، كذلك اهتم كثيرًا بفك طلاسم الألغاز والأحجيات، فكان اهتمامه بيوم الجمعة إهتمامًا غير إعتيادي، حيث كان ينتظر والده أن ينتهي من قراءة جريدة الأهرام -العدد الأسبوعي- ليقتطف الصفحة الخاصة بالكلمات المتقاطعة وألعاب الذكاء والأحجيات ليستمتع بحلّها وفك طلاسمها ما تبقى من أيام الأسبوع..

لم يكن كبقية أقرانه من ذوي الطموح الكبير، فلم يتطلع يومًا لاقتناء أحد الالعاب التي امتلكها البعض من أصدقائه أو زملائه بالمدرسة، كلعبة الأتاري تلك اللعبة ذات الشهرة والشعبية الواسعة آنذاك، وإنما كان من وقت لآخر ومن خلال ما يستطيع توفيره من مصروفه اليومي -وهو قليل- يشتري بعض الألعاب الورقية الرخيصة الثمن ويتشارك اللعب بها مع إبتسام.. أو يصنعها يدويًّا إذا لم تتوفر النقود لشرائها.

هكذا أخذ يتنقل بين حواري الذكريات.. ذكرى تأخذه لأخرى ومن مشهد لآخر، إلى أن شعر بأنه لا يستطيع الإستمرار في تلك الرحلة مع ذكرياته، خاصة أن أغلبها كان يبعث في نفسه الحزن وأحيانًا الحنين،

وبعد طول إ نتظار لنوم قد رحل بعيدًا انتفض من سريره ليجلس على مكتبه الصغير، مُضيئًا بيمينه أباجورة وُضِعَت بالقرب من حافته، وأمسك بقلمه بيده اليمنى ليكتب به على ورقة بيضاء:

"بحبك.. بحبك أوي.. ب.. ب.. إبقي خدي بالك مني وأنا ببَص عليكي، دايمًا وأنا وراكي ما بقدرش أمنع نفسي إني أبصلك.. لو التفتِّي بس هتلاقيني ببص عليكي بصة صغيرة.. يااه لو تعرفي أد إيه أنا بحبك.."

بعد أن انتهى من كتابة الرسالة، طوى الورقة ووضعها في مظروف صغير وبلَّل حوافه بطرف لسانه ليَغلقه بإحكام ليعود مُمسكًا بقلمه من جديد، ناقشًا على المظروف من الخارج "إنجي"، ثم مال بجذعه قليلًا ليضعه في أحد ادراج المكتب الذي امتلأ عن آخره بالرسائل، ثم وضع ورقه بيضاء لتحل محل الأخرى التي استخدمها منذ لحظات لاستخدامها مُستقبلًا في كتابه رسالة جديدة، ثم أطفأ إضاءة الأباجورة بعد أن ألقى نظرة على عقارب الساعة التي أشارت إلى الثالثة صباحًا ثم استلقى مُجددًا على الفراش ليغُطَّ في نوم عميق، ولم يشعر بشيء إلا عندما انتبه لصوت تتصاعد نبرته وحدَّته:

- سعدي.. سعدي..

كانت إبتسام توقظه مع نقرات خقيقة على كتفه وتقول:

- جرس المنبه بقاله ربع ساعة بيرن يا أستاذ.. ما عندكش شغل النهاردة؟!

بصوت منخفض كأنه قادم من عالم آخر، رد:

- حاضر.. هقوم.. هقوم أهو......

- أعملَّك شاي ولا نسكافيه؟
- شاي، ولو عندك شوية نعناع يبقى تمام.

بابتسامة كابتسامة الأم أجابت:

- عندي طبعًا.. إعتبره جاهز.. مش هتفطر قبل ما تنزل؟

بعد نظرة سريعة منه على عقارب الساعة، أجاب:

- لأ مفيش وقت..

ثم مضت إبتسام بعد أن تأكدت من إنه نهض من الفراش...

***

بعد مضيّ ستة أيام من لقائه بجمال... السابعة مساءَ..

بينما كان يجلس على مكتبه مُتصفِّحًا بعض الأوراق الخاصة بالعمل، رن هاتف مكتبه، كانت إنجي:

- دكتور شلتوت عاوزك حالًا.

- حالًا هروحله.. حضرته طالب حاجة معينة؟

ولم يكن ليَكمل الجملة، حتى أُغلِق خط الهاتف من الجهة الأخرى..

كانت حجرته هي المجاورة لمكتب إنجي، والتي بدورها ملاصقة لمكتب شلتوت.. كعادة إنجي تترك باب حجرتها مفتوحًا طوال الوقت منهمكة هي بالداخل غالبًا إما بالكتابة على الحاسوب الخاص بها أو بالتحدث عبر الهاتف وفي نفس الوقت متابعة لأي عابر نحو حجرة شلتوت..

مضى في طريقه القصير للقاء شلتوت، مُلقيًا نظرة خاطفة بطرف عينه على إنجي كعادته دائمًا منذ أن انتقل لغرفة مكتبه الجديدة، تلك النظرة التي كانت بمثابة قطرة الماء التي ينتظرها الظمآن بعد عطش طويل، ومُستنشقًا للهواء المُختلط برائحة عطرها إلى أن دخل على شلتوت بعد طرقة خاطفة على باب حجرته وسار بضعة خطوات إلى أن استقرّ به الحال أمامه، والذي كان بدوره مُنهمكًا بالحديث عبر هاتفه المحمول مما دعى بسعدي أن استدار مرة أخرى ليغادر، وقبل أن يَهُمّ بالإلتفاف أشار له شلتوت بيده ليجلس...

كان يعلم بحدسه أنها هي اللحظة.. تلك اللحظة التي انتظرها طويلًا بالرغم من دعائه إلى الله بألا تحدث أو تتأخر قدر الإمكان لعلمه بأنها

تحمل من الإبتلاء الكثير والذي لا يدري إن كانت لديه القدرة لاحتماله أم لا..

انتهى شلتوت من مكالمته.. تنحنح ثم نظر إلى سعدي نظرة تدل على أنه يطلب منه الإنتباه:

- جمال كان عندي من شويّة.. وطلب إنه يمشي وأنا وافقت، لإني أصلًا كنت عاوزه يمشي..

ارتشف من كوب زجاجي مملوء بعصير البرتقال أمامه وأكمل:

- إنت من دلوقتي المسئول قدامي عن كل كبيرة وصغيرة في المكتب، وده تكليف مني ليك.. هتعمل كل حاجة كان جمال بيعملها، ده غير القضايا إللي بوكِّلك بيها شخصياَ..

- ده شرف كبير سيادتك، بس..

شلتوت، مقاطعاً بحدة:

- مفيش بس.. أنا بكره كلمة (بس) لإنها بشكل أو بآخر نوع من أنواع الإعتراض..

- يا افندم أنا تحت أمرك، الحكاية كلها إني مُتَخوِف من المسئولية الكبيرة وأنا برضو إنسان ليّا طاقة محدودة وخبرتي مهما كانت لسه صغيرة.

- كله بتمنه.. أنا أمرت إنجي إنها تعمل لك عقد جديد بالوظيفة الجديدة، وطبعًا بالمرتب الج....

صمت دون أن يكمل و بعد رشفة من العصير ونظرة سريعة لقسمات

وجه سعدي، محاولًا استلهام مدى فضوله لمعرفة تفاصيل العرض الجديد (لكن سعدي حافظ على ثبات ملامح وجهه)، استطرد:

- بالمرتب الجديد.. عاوز تعرف كام؟

- مش بالضرورة..

- غريبة!!

- لا يا افندم مش غريبة.. لأن وجودي بس في المكان ده بفلوس كتيرة.. أصلًا أنا دايمًا بعتبر نفسي مديون لسعادتك بكتير.

- تعجبني.. بس كل حاجة ولها مقابل.. مرتبك الجديد هيكون ١٥ ألف وقابل للزيادة طبعًا.. و بالنسبة للخبرة الصغيّرة مش مشكلة لإني موجود..

- ألف شكر.

- شكرَا بالكلام ولا لها أي لازمة أو معنى عندي.. الشكر الحقيقي بالمجهود إللي هتقوم بيه..

- حاضر.. إن شاء الله أكون عند حسن ظن حضرتك.

التقط شلتوت سيجاراً وأشعله، وبعد أول زفير قال:

- مش محتاج أقولك إن في عداوة بيني وبين الأخطاء مهما كان حجمها.. وإللي بيغلط مالوش عندي ديّة.. وطبعًا عارف وشفت بنفسك إن ما عنديش عزيز في الشغل.. فاهمني طبعًا..

- فاهم يا افندم.

- من دلوقتي لك كل الصلاحيات إللي كانت مع جمال.. يلّا وريني همتك.

- حاضر، وتأكَّد حضرتك إني هعمل كل حاجة تخليني دايمًا عند حسن ظن سيادتك.

- مش محتاج أفكّرك بالإهتمام بالتفاصيل وإنك تتعامل مع الموضوع إللي إنت شايفه من وجهة نظرك صغير زيّ تعاملك مع المواضيع الكبيرة.. الكُبار يا سعدي مفيش عندهم كبيرة وصغيرة، كله مهم وكل حاجة ولها وقتها.

- تمام سعادة الريس..

ثم مضى...

***

منذ تلك اللحظة أخذ سعدي على عاتقه إعادة ترتيب البيت من جديد، تمامًا كترميم مبنى أثري من بعض آثار الزمن، من حيث إعداد تقييم مبدئي لكافة المحامين، تمهيدًا لإسناد العمل لهم كل على حسب كفاءته العلمية والعملية، بل والإدارية أيضًا.

كذلك أعاد ترتيب ملفات القضايا القديمة والحديثة من حيث أهمية الموكّلين تليها أهمية القضايا ذاتها، ولم يكن هذا بالشيء الصعب عليه حيث أنه سابقًا ومع بداية عمله بالمركز اطّلع على كل الملفات، فلم تأخذ منه تلك المهمة الكثير من الوقت.

كذلك وبالإتفاق مع إحدى الشركات المتخصصة بالعمل في إعداد البرامج الحاسوبية المتخصصة والأنظمة الحديثة للحلول المتكاملة لإدارة مختلف الأعمال بأنظمة الحاسوب، أنشأ نظام حاسوبي مركزي لحفظ كافة القضايا ومواعيدها، لتنبيه المحامين بمواعيد الجلسات والأوراق الهامة المُتعلقة بها، وكذلك ربط ذلك البرنامج بهواتفهم المحمولة حتى لا يكون ثمة إحتمال لأيّ خطأ مهما كان حجمه.

اعتنى بكل شيء.. وحقيقة الأمر أنه لم يكن بحاجة لتنبيهات شلتوت، أو بالأحرى تحذيراته، والتي لم تخلُ من التهديدات الضمنية بضرورة الإهتمام بالتفاصيل، حيث كان هو نفسه رجل التفاصيل بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

بدا للجميع ابتداءًا من شلتوت ذاته ومرورًا بكل العاملين تغيّرًا ملحوظًا في أسلوب العمل وكيفية إدارته.. كيف أصبح المكان يتّسم برونق مختلف ومذاق أفضل وكأنك تتنفَّس بداخله الروح الشابة التي تفوح من كل جنبة من جنباته.

بعد فترة وجيزة من تولِّيه مهمة الإدارة، قد تغيّرت الأحوال كثيرًا من حيث نفوس العاملين، فلم يكن أحد بالمركز مُنشغلًا بالتودَّد إليه أو اختلاق أشياء أو أحداث ليمجِدوا بها أنفسهم، لإنه قد استقر بيقينهم أنه يحكم بينهم بالعدل قدر استطاعته البشرية، وأنه ليس ذلك الشخص الذي قد يُفضِّل أحدًا على آخر لتودده له أو لتأدية خدمات خاصة له، ولم يكن لدى أحد أدنى شك في أنه ينقل لشلتوت الصورة الحقيقية عن كل منهم، بل وكان يساعدهم في الخفاء لتحليل بعض القضايا أو بإخفاء أخطاء صغيرة وقعوا فيها أثناء تأدية عملهم، مُكتفيًا

فقط بالتوبيخ أوالتلويح بالجزاء إن تطلَّب الأمر.. بالتالي ارتفع معدل الأداء للجميع لعدم انشغالهم بغير العمل والتركيز فيه، وعليه قلَّت نسبة الأخطاء إن لم تختفي تمامًا.

حاز على حب وإحترام الجميع.. كان الكل يُبجّله رغم صغر سنه ويطيع توجيهاته طواعية ودون أي ضغط أو ترهيب.. بل أنه أصبح لأغلبهم الصديق والمؤتمن على أسرارهم حتى الشخصية منها.

الجانب الأكبر من الإعجاب كان من نصيب شلتوت، الذي بدأ يعتمد عليه اعتماد شبه كُلِّي، بل إنه أصبح يختفي لفترات طويلة عن المكتب اعتمادًا على تواجد سعدي..

كلما شعر سعدي بازدياد مكانته لدي شلتوت والعاملين كلما تذكر مقولة جمال: "شلتوت جنة ونار، وإوعى تتلسع بناره"..

لم يشغل حب وإحترام العاملين له حيزًا كبيرًا من اهتمامه، حيث كان يتطلَّع لحب شخص واحد فقط -إنجي-.

إنجي، كانت له بمثابة ذلك الحلم بعيد المنال.. تلك الملكية الخاصة لشلتوت.. لطالما أحسّ أنها ليست بالمرأة الحديدية كما يحسبونها، بل شعر أنها أضعف مَن خلق الله على وجه الأرض.. دائمًا ما استشعر كلما نظر إليها بحزن عميق تشي به نظراتها وملامحها.. كان يتجنب تمامًا الإحتكاك بها أو حتى النظر إليها وجهًا لوجه، ليس فقط لكونها ذاك الخط الأحمر الذي حدَّثه عنه جمال سابقًا، ولكن رغبة منه بعدم زيادة تعلُّقه بها وحبه لها.. فلم تكن حتى هي مَن سيجعله أن يحيد عن هدفه الأسمى وهو أن يكون من الكبار..

ومع ذلك كثيراَ ما كان يقع أسيراَ لحوار يتخيله يدور بينه وبينها، فقط إشباعًا لرغبته في التحدث إليها..

كانت بالنسبة إليه مثالًا مُتجسَدًا للمرأة التي تمنَّاها طيلة عمره.. كانت (سَهيلة) الكبيرة رغم عدم التشابه بين الإثنتين.. كانت ببشرتها القمحية اللون واستدارة وجهها تمامًا كبدر منتصف الشهر العربي، ناهيك عن ذلك الشعر وكأنَّه اكتسى بسواد سماء ليلة شتوية شديدة الظلمة، والمُتهدِّل كشعر مُهر عربي أصيل، أما عن جمال وتناسق الجسد فحدِّث ولا حرج.. كانت كل تفصيلة من تفصيلات جسدها تشي بأنوثة طاغية، ومع ذلك لم تتعمّد مُطلقًا إبراز أي منها، ولم تكن بحاجة لذلك من الأساس.. أكثر ما كان يُميِّزها تناسق حاجبيها دون الحاجة لإعادة رسمهما كما تفعل غالبية النساء، كل ذلك بالإضافة إلى الجاذبية القاتلة التي وهبها الله لشفتيها من حيث الحجم واللون.. كان لباسها دومًا زيّا رسمياَ أنيقًا، وخاصة عندما كانت ترتدي التنورة التي تحجب منتصف ساقها، تحديدًا لرَكبتيها، وكذلك الحذاء ذو الكعب الطويل نسبياَ إضافةً إلى الإكسسوارات التي أضافت إلى أنوثتها أنوثة من نوع آخر.. كالإنسيال الذي يتدلَّى من معصمها وأقراط الأذن المُستديرة الشكل والتي تتناسب تمامًا مع استدارة وجهها، وكذلك سوار الساق (تلك السلسلة الرفيعة التي تلف ساقها الأيسر وتتدلَّى منها بعض الدلايات التي يصعب تمييزها إلا بعد تدقيق النظر).. بصفة عامة كان كل شيء بها أو فيها أو عليها يُعلن بوضوح عن أنوثة لا يمتلكها إلا القليل.. أنوثة لا يمتلكها أحد إلا إنجي، تلك الأنوثة التي يستحيل مقاومتها أو تجاهلها.

بعد مرور ما يقرب من عامين على عمل سعدي بالمركز...

ازداد دخله بشكل ملحوظ، سواءاَ كان من خلال راتبه الذي ارتفع، وكذلك من خلال المكافآت التي انهالت عليه من شلتوت الواحدة تلو الأخرى كحافز بعد الفوز بالعديد من القضايا التي كان هو سبباَ مباشراَ لإقتناص النصر فيهن، خاصة وإن أكثرها كان مثار جدل واسع من الناحية الإعلامية، والتي كاد من خلالها شلتوت أن يتربّع على عرش المحاماة في مصر دون منازع.

تزامُناً مع ازدياد دخله، بدأت فكرة الإنتقال للحياة خارج نطاق إمبابة تسيطر على فكره إلى أن انصاع لها بعد صراع داخلي استغرق من الوقت الكثير، وبالفعل قام بشراء شقة بمدينة نصر بعد أن دفع نصف ثمنها واتفق مع صاحبها على تقسيط باقي المبلغ على اثنتي عشر شهراَ وذلك إعتماداً على إرتفاع دخله الشهري، وبدأ بتجهيزها لتكون شقة فاخرة، كتلك الشقق التي يراها في الأفلام السينمائية تمهيداً للإنتقال إليها.

كان على علم بأن العقبة الوحيدة في طريق هذه الخطوة هي (إبتسام) ليقينه بمدى حبها وتعلُّقها بتلك الشقة الصغيرة التي ترعرعا بها وللذكريات التى تحملها لوالديهما وخاصة أبيها..

قام باختيار مجموعة من أفخم وأثمن الأثاث والمفروشات للشقة الجديدة، كذلك كان اهتمامه غير عاديّاً بالديكورات المختلفة واهتم إهتماماً خاصًا بغرفة إبتسام وكأنه تعويض وعرفانًا بالجميل لها عمّا بذلته و ما ضحت به من أجله ولا تزال.. العارف بالأمر أنه حتى لو لم تكن فعلت ما فعلت، لكان اهتمامه بها وبغرفتها كما هو، فكانت

الصديقة قبل الأخت ومقدار ما حمل قلبه لها من حب فطري كان كفيلًا بتمييزها على نفسه بقدرٍ وافٍ.

بعد أن انتهى تمامًا من تجهيزها من كافة النواحي، قرر أن يخبر أخته بالأمر.. فاتصل بها ذات يوم هاتفيَا قبيل موعد انصرافه عن العمل وقال:

- بسومتي.. إزيك؟
- أهلًا.. أهلًا يا أستاذ.. إزيك إنت؟
- الحمد لله، بقولك إيه.. إيه رأيك لو أعزمك على العشا النهاردة؟
- كسبت قضية جديدة ولا إيه؟
- ما أنا كل يوم بكسب قضية..
- قول ما شاء الله، ما يحسد المال إلا أصحابه..
- ما شاء الله.. أنا بس فكرت إن بقالنا كتير ما خرجناش مع بعض..
- بس إنت عارف إني بنام بدري..
- عارف، بس معلش، تعالي على نفسك النهاردة.
- حاضر يا سيدي، هو أنا عندي كام سعدي..
- حبيبتي..

أغلق الخط بعدما اتفقا على كيفية اللقاء ..

في الموعد المحدد ذهب إلى ذلك المطعم الشهير بشارع جامعة الدول

العربية، ليجد إبتسام بإنتظاره.. ما إن رأته حتى علت الإبتسامة وجهها:

- اتأخرت علياَ على فكرة..

- لا ما اتأخرتش وما أقدرش أتأخر، إنتي إللي جاية قبل الميعاد.. الساعة تسعة بالظبط.. بتفكريني بالحاج (عُمَر) في دقة مواعيده.

- طبعًا، وهو أنا هقدر أغلب محامي!!.

- (مبتسمًا) جيتي ازاي؟

- تاكسي، وصدَّعني منه لله بأغاني غريبة مشغلّها طول الطريق، تقريباَ بيقولوا عليها مهرجانات.. مش عارفة بيسمعوا الحاجات دي إزاي؟!

- الدنيا اتغيرت يا بسومة..

- فعلًا.. ويا ريتها ما اتغيرت..

- وطالما إن كل حاجة حوالينا بتتغيّر، لازم إحنا كمان نتغيّر..

- تقصد إيه؟

- تاكلي إيه الأول؟

- إللي هتاكل منه.. إنت عارف أنا ماليش في الأكل بره البيت..

- إيه رأيك في مشكّل مشويات ومعاهم سلطات وشوية محشي؟

- كل ده!!.. مش هنقدر ناكل كل إللي قولته ده، وحرام نرمي

الأكل..

- ما تخافيش إللي هيتبقَّى هناخده معانا وإحنا مروحين.

- إذا كان كده ماشي..

بعد أن طلب من النادل قائمة الطعام وأبلغه بما وقع اختيارهما عليه من مُقبّلات وطعام، وبينما هما بانتظار إعداده، أمضيا الوقت إما بتبادل أطراف الحديث في مواضيع مختلفة غلب عليها الطابع العام أو بالتأمل في الجالسين حولهما، وما ساعد على اندماج إبتسام بالمكان موسيقى (تتر ليلة القبض على فاطمة لعمر خيرت)، التي انسابت عبر السماعات المنتشرة في جميع أنحاء المكان فأكسبته دفئًا من نوع خاص.. إلى أن أحضر النادل الطعام ووضعه أمامها على المائدة التي اختفى سطحها بالكامل من كثرة الأطباق التي وُضع بها الطعام بمختلف أصنافه..

مع رؤيتها لِكمّ الطعام وتنوّعه، همست:

- يا خبر يا سعدي!!.. إيه كل ده!!.. وبكام؟

- ما تشغليش بالك، هناكل إللي ناكله والباقي هناخده معانا وإحنا ماشيين زيّ ما اتفقنا.

- افتكر أكلة زيّ ديّ وفي مكان زيّ ده بمقام مرتب شهر كامل للحاج عمر الله يرحمه.

- الله يرحمه.. مش ناكل بقى ولا هنقضيها كلام لحد الأكل ما يبرد؟

تناولت إبتسام قطعة من اللحم وبعد أن قضمت منها جزء قالت:

- بذمّتك...

قاطعها مسرعًا وكأنه التقط طرف الخيط:

- طبعًا هتقولي مش أكل البيت أطعم ألف مرة وكمان أنضف والأهم إنه أكيد أرخص..

- آه منك يا لمض.. فاهمني دايمًا.. ربنا يخليك ليّا ولا يحرمني منك أبدًا.

- ولا منك يا أحلى أخت ربنا خلقها على كوكب الأرض والمريخ كمان..

بإبتسامة غلبت عليها حمرة الخجل قالت:

- ماشي يا بكَّاش..

- وبالمناسبة أنا موافقك إن أكل البيت أحسن مليون مرة..

- شفت بقى..

- طبعًا وبالذات لو من إيدك، بس أهو نوع من أنواع التغيير.

- ماشي يا سيدي، علشان خاطرك بس.

- بمناسبة التغيير، كان في موضوع عاوز أتكلم معاكي فيه..

- لعله خير، ما أنا عارفة إن أكيد ورا العزومة دي حاجة أو يمكن حاجات.. ربنا يستر..

سعدي مُبتسمًا:

- عندك حق.. بس حاجة خير إن شاء الله.
- إتفضل.. بس ليّا شرط..
- أؤمري..
- إتكلم وإنت بتاكل علشان الأكل ما يبردش..
- حاضر.. وأنا كمان ليّا شرط.
- قول يا سيدي.. طلباتك كترت..
- تسمعيني وإنتي بتاكلي علشان الأكل ما يبردش..

بعد لحظات قضيناها ضاحكان، سألته:

- خير يا حبيبي؟ سامعاك..
- الحمد لله في الفترة الأخيرة دخلي اتحسن....

قاطعته:

- قول ما شاء الله، ما يحسد المال إلا صحابه يا حضرة الأفوكاتو.
- ما شاء الله.. من حوالي ست شهور اشتريت شقة معقولة في مدينة نصر وما رضيتش أقولك غير لمّا أجهزها وأعملهالك مفاجأة..
- ألف مبروك.. خلاص نويت؟

أجاب بدهشة:

- نويت على إيه بالظبط؟!

- تتجوَز؟

- لا خالص.. جواز إيه بس.. أنا نويت على حاجة تانية..

- خير!!

- ننقل فيها.. أنا وإنتي..

مع سماعها لجملته الأخيرة، توقفت فجأة عن تناول الطعام ونظرت له نظرة حملت الكثير من الألم واللوم والعتاب مُجتعمين، وبعد لحظات قضتها صامتة تمامًا وكأنها غاصت في بحر من الذكريات، عقبت:

- عاوزني أسيب البيت إللي كبرنا فيه سوا..؟ بيت الحاج (عُمَر).. إللي كل ركن فيه بيفكرني بيه وبماما الله يرحمهم..

تناولت ورقة مناديل من العلبة الموضوعة على المنضدة، مُجفِّفة بها دموع بدأت تنهمر دون إرادة منها، ثم استطردت وهي ما زالت تحاول التَماسُك:

- البيت ده على أد ما هو صغير، بس أنا روحي فيه.. كل شبر فيه بيِفكرني بأحلى أيام عشتها...

- أحلى أيام إيه بس!!.. دي أيام كلها فقر ووجع وديون.. هو أنا إللي هفكرك برضو يا إبتسام!!

- حتى الظروف الصعبة دي ليها حلاوتها.. قوّتنا على الدنيا.. خلقت جوانا إيمان إن مفيش حاجة صعبة، والدليل إحنا.. كبرنا واتخرجنا واشتغلنا وإنت بقيت محامي أد الدنيا والحال الحمد لله بقى أحسن كتير.

- يا حبيبتي، حاولي تفهميني.. كل كلمة قولتيها أو حتى لسه هتقوليها أنا حاسسها أكتر بكتير مما تتصوري.. بس ده حال الدنيا.. كل الناس مش إحنا بس، بِتتطّوّر وبتغيّر من وضعها، وبعدين البيت هيَفضل موجود ورجِلنا هتفضل عليه من وقت للتاني..

لم يُمهلها سعدي فرصة مقاطعته بمجرد أن استشعر ذلك، واستطرد:

- إبتسام.. أنا في مرحلة جديدة في حياتي وما أفتكرش إنك هتسيبني لوحدي.. أنا ماليش غيرك في الدنيا، ووعد إننا كل يوم جمعة هنروح نتغدى هناك ونقضّي اليوم كله كمان..

- طيب ممكن تقوللي سبب واحد أقدر أقتنع بيه؟

- لكل مقام مقال، زيّ ما قولتلك أنا وضعي اتغيّر، وزيّ ما إنتي عارفة بشتغل في أكبر مكتب محاماة في البلد، ده غير علاقاتي إللي كترت بحكم شغلي، والشكل الإجتماعي للأسف مُهم جدًا في الدنيا عمومًا وفي شغلي خصوصًا.. يعني تقدري تقولي إن نقلتنا جزء كبير منها علشان شغلي.

بعد لحظة صمت لم تكن وجيزة، قالت وهي تتنهّد:

- طالما إننا هنعمل كده علشان مستقبلك.. حاضر يا سيدي.. بس على شرط..

قاطعها قبل أن تكمل:

- موافق..

- هو أنا لسه قلت حاجة علشان توافق ولا ترفض!!

- موافق على أي حاجة تقوليها من قبل ما أعرفها..

- آه يا بكاش ..

- لا مش قصة بكاش، بس إنتي عارفة إن طلباتك ليّا أوامر..

- هاخد أوضة نومي معايا..

- بس كده.. حاضر مع إني اشتريتلك أوضة نوم ما حصلتش، لو شفتيها هتغيري رأيك..

- لا سيدي، من غير ما أشوف، أنا عاوزة أوضتي إللي اتربيت وكبرت فيها..

- ماشي.. إللي تشوفيه.. دي كل طلباتك؟

أجابت وهي تعدّ على أناملها وكأنها تحاول استدعاء كل ما بذاكرتها:

- لا إنت هتاخدني في دوكة وتخليني أنسى.. لسه.. الراديو والأنتريه الأسيوطي وسجادة الصلاة.

بعد ضحكة من سعدي لفتت إنتباه مَنكل حوله مِن قوتها، وحاول كتمانها قدر استطاعته، عقَّب:

- حاضر.

- بتضحك على إيه؟!

- ولا حاجة، ما تشغليش بالك.. المهم.. إعملي حسابك إننا هننقل

الجمعة الجاية.

- علطول كده؟!

- مفيش حاجة تخلينا نتأخر.. كل حاجة جاهزة الحمد لله.

- إللي تشوفه..

ثم أكملا تناول طعامها إلى أن غادرا..

***



بعد أن استقرا في مسكنهما الجديد...

حاولت إبتسام التأقلم على الوضع المستحدث بالنسبة لها، وبالرغم من المساحة الكبيرة للشقة الجديدة كانت دائمًا تشعر بضيقها، ذلك الضيق الذي كان يُسبِّب لها الشعور بالإختناق في الكثير من الأوقات، لكنها تحملت قدر استطاعتها في سبيل إرضاء سعدي.. فكان جزء ما بداخلها على يقين بأنه على حق، وأن لكل مقام مقال، وأنه لو كان المهندس (عُمَر) قد رزقه الله الوفرة من المال لفعل مثل أخيها وانتقل بالعائلة لموقع أفضل وشقة أرحب حالًا.

لكنها كانت ذلك الإنسان الذي يرتبط ليس فقط بالبشر ولكن أيضًا بالأشياء.. كان ذلك النوع من الإرتباط العاطفي الذي يربط بينها وبين الجماد حتى ولو بدا غير ذي قيمة للبعض، ولكن بالنسبة إليها كان الأمر مختلف.

فكانت تحتفظ بقصاصات صغيرة من الورق منذ أن كانت طفلة، وأيضًا ببعض الأساور الصغيرة التي كانت تصنعها يدويًّا من الخرز الصغير الذي طُرِّز به بعض فساتينها أو فساتين والدتها، والذي كانت تجمعه بعد أن يسقط من على تلك الملابس بعد غسيلها أو من كثرة إستعمالها.. كانت سعادتها تتمثَّل في استعادة الذكريات للتعلَّم منها تارة وللفرح بها تارة أخرى.. كانت ذلك النوع من البشر الذي يعيش على الحنين ويستقي منه المقدرة على حياة الغد، ولذا لم تشعر بالسعادة في مسكنهما الجديد، فكان بالنسبة لها كطبق الطعام المُنسّق والمُنَمّق ولكنه افتقد الطعم الشهي والرائحة الجذابة.. تمامًا كالطعام الذي ينقُصه حنكة الطاهي المحترف. مع ذلك اجتهدت قدر

استطاعتها بان تُخفي مشاعرها بحنينها لشقة (إمبابة) حتى لا تُفسد على سعدي فرحته وهي التي أخذت عهدًا على نفسها بأن تظل بجانبه وسندًا له إلى أن تطمئن عليه..

لم تكن تدري بأن سعدي هو الآخر لم يكن سعيدًا بتلك الخطوة على وجه الإطلاق، ولكنه كان يرى ذلك ضرورة اقتضاها وضعه الحالي، حيث كان يرى أهمية الشكل الإجتماعي والذي يلعب دورًا أساسيًا في تشكيل آراء الناس ووجهة نظرهم..

فالغالبية العظمى تحترم وتُبجل مَن يعتقدون أن لديه وفرة من المال، وخاصة أن في أغلب المجتمعات الإنسانية ما يرتبط المال بالنفوذ، وغالبًا ما يعود النفوذ على صاحبه بالقوة، ولهذا كان يرى بأن المظهر الإجتماعي أحد أهم الأدوات لخلق مكان له بين الكبار، وهذا ما أراد تحقيقه..

لذلك أيضًا اقتنى سيارة من طراز (مرسيدس).. ذلك النوع من السيارات الذي بمجرد أن تطأ قدمك داخله تشعر وكأنك دخلت لعالم آخر من حيث الراحة والإستقلالية والرفاهية.. مهما كانت قُدرتك على ضبط إنفعالاتك فلا تستطيع إخفاء إنبهارك بتصميمها الداخلي أو الخارجي، والأهم قدرتها الغير عادية على امتصاص وعورة الطريق من المطبات، ومرورًا بالنتوءات التي تمتلئ بها الطُرق وكيف هي قُدرتها بأن تُشعرك بأنك دائمًا ما تسير على طريق مستقيم مهما بلغت حدة التفافه أو انحنائه.. تكاد تُقنعك بأنك تقود منفردًا مهما اشتدَّت حدة الزحام وتُولِّد لديك الشعور بأنك مختلف عن الآخرين.. برغم كل هذا لم يكن سعدي مغرمًا بقيادتها إلا في بعض المناسبات العامة التي

تتطلب من وجهة نظره أن يظهر بالشكل اللائق، ربما لأنه لم يعتَد اقتياد مثلها أو لأنه لم يعتَد تلك الرفاهية، وربما الأهم لأنه لم يكن يريد أن يعتاد عليها وكلما جلس خلف مقودها تذكر كيف هي مقاعد الميكروباصات لو جاز تسميتها بمقاعد؛ لخلوّها عادة من الأسفنج أو عدم وجود خلفية للمقعد و لذلك يتوجب على مَن يجلس عليها أن تقترب مهاراته من لاعب الأكروبات حتى ينجو إلى أن تحين محطة وصوله...

لم يغب عن ذهنه أيضًا واحدة من أهم أدوات التواجد بين مصاف الكبار وبالتالي حصاد الكثير من الأموال واكتساب المزيد من النفوذ.. هو أن يعمل منفردًا ومتفردًا وأن يمتلك مكتب المحاماة الخاص به وألا يكون تابعًا لأحد، لذا كان يَعُدّ العدة للإستقلال بالعمل بعيدًا عن شلتوت، خاصة وأن نجمه بدأ يلمع في عالم المحاماة، ليس فقط داخل المركز ولكن خارجه أيضًا وأراد أن تكون له استقلاليته وأن يُنسَب له مجهوده وعمله بدلاً من الإنتساب لشخص آخر حتى ولو كان شلتوت نفسه..

فلم يكن الأمر يحتاج لفطنة أو نظرة ثاقبة ليعلم بأن شلتوت ينسب كل العمل والنجاحات المختلفة لنفسه، مُنكرًا وجود ومجهود كل مَن حوله، وساعده في ذلك صمت ولا مبالاة شباب المحامين وعدم اعتراضهم أو حتى مجرد إبداء استيائهم مما يفعل، واكتفوا فقط بالرواتب التي يتقاضونها والتي اعتبروها الكثير مع إنها ليست إلا فُتات ما يتقاضاه شلتوت كأتعاب عن تولي كل قضية، والأهم ما كان يجنيه من سِمعة وتوغُّل علاقات بين مجتمعات الصفوة والتي تعتبر

أهم بكثير من النقود..

فكونك عضواً في نادي صفوة المجتمع -إن جاز التعبير- يكون كفيلًا بإزالة العقبات ومُعيناً لاجتياز الأزمات..

فهؤلاء الصفوة كل شيء مُيسّر لهم دون مناقشة أو جدال.. فالغالبية العظمى من الناس تخشى مجرد الجدال معهم لخشيتهم من العواقب والغضب واللوم الذي سيقع عليهم، وخاصة مع يقينهم بأنهم -الصفوة- بشكل أو بآخر سيحصلون على ما يرغبون به بطريقة أو بأخرى.

مَن يُلقِّبون أنفسهم بالصفوة يعتبرون أنفسهم أحيانًا فوق أي قانون، بل ذهب بعضهم إلى ما هو أبعد من ذلك بأن ظنّوا أنهم القانون ذاته.

فبدأ بإعدا د مكتب لا يبتعد كثيراً عن مركز شلتوت وكان حريصًا على الإهتمام بجميع التفاصيل كعادته، فكما ذكرنا سابقًا أنه رجل التفاصيل بكل ما تحمله الكلمات من معنى.

أمضى سعدي قرابة الثلاثة أشهُر في إعداد وتجهيز مكتبه الخاص بسرية تامة لأنه علم بفطرته وبكل المُعطيات التي يعلمها بأنه سيواجه العراقيل إذا ما علم شلتوت أو أحد أتباعه بأنه ينتوي الإستقلال بالعمل، ربما لما يحمله من أسرار مكتب شلتوت، أو لنجاحه في إدارة المركز، أو بسبب الصعوبة التي سيواجهها شلتوت في إيجاد بديلًا له وبنفس كفاءته، لذلك حرصه على السرية فاق أي اعتبار، خاصة أنه لم يكن على عجلة من أمره..

مع كل ركن فيه كان ينتهى من إعداده كان يفكر في إنجي، التي كان يشعر بأنه مهما بلغت درجة إجادته واهتمامه بالتفاصيل وأتقن كل شيء فلن يكتمل إلا بتواجدها هي.. ولم يكن يعني التواجد المكاني فقط، إنما تواجدها بقربه كرفيق درب وصاحب للطريق.. فبشكل أو بآخر استقر في يقينه بأنها نصفه الآخر الذي طالما اجتهد في البحث عنه ولن يكتمل هو إلا بوجودها هي..

المكتب الذي قرر الإنتقال إليه يقع على بُعد بضعة أمتار من مكتب شلتوت، وهذا ما زاد إصراره عليه، لأن آخر ما قد يجول بخاطر شلتوت أن يقع اختياره لموقع أقرب ما يكون للمركز، لأنه من الطبيعي أن يختار مكان أبعد ما يكون عنه خوفًا أو رهبة منه.. هكذا كان نمطه في التفكير واتخاذ القرارات، وهو السير عكس اتجاه القطيع، والإبتعاد قدر الإمكان عن التفكير النمطي لغالبية البشر.. فكان يعتبر دائمًا أن النجاة عادة ما تكون بالتفكير المختلف أحيانًا واتخاذ بعض القرارات الغير مُرتبطة بالمنطق أحيانًا أخرى خاصة مع قرب اختفاء المنطق من حياتنا.. فكان كل بضعة أيام يعرج لتفقد المكان الجديد ومتابعة العمالة التي تقوم على تجهيز المكان وإجراء بعض التعديلات إذا ما لزم الأمر، أو إبداء بعض الملاحظات إذا ما تراءى له ذلك، لم يغب عن ذهنه قط بأن ينظر إلى كل التفاصيل بعيني إنجي حتى إذا ما زارته يومًا ما يروق لها المكان، بل وتمادى لأكثر من هذا بأن أعَدَّ لها حجرة خاصة بها وكانت نسخة طبق الأصل من حجرتها بمكتب شلتوت، لم يكن يدري لماذا يفعل ذلك وخاصة وأنه يعلم جيدًا إستحالة تواجدها معه عمليًا، ولم يكترث لما يفعله برغم علمه بأنه

دربٍ من الجنون، ربما كان يفعل ذلك ليتذكرها دائمًا وليرى شيئًا ما يُشعره بتواجدها ويُذكِّرهُ بها، والعالم بالأمر يعرف بطبيعة الحالب أنه لم يكن بحاجه لذلك لإنها قد اتخذت مكانًا أقرب ما يكون له كبشر، وهو قلبه.. ذلك القلب الذي لم ولن يُسيطر عليه أحد سواها.

مكتبه الجديد لم يكن بنفس مساحة مكتب شلتوت ولا حتى اقترب، بل لم يرغب في ذلك من الأساس، فكانت مساحته تقترب من ١٥٠ متر مربع، ولم تتوارد لذهنه ولو للحظة أن يُحاكي تصميم مكتب شلتوت حتى و لو من بعيد، ولم يكن يدري لماذا.. هل لرغبته في التفرد وعدم المحاكاة، أم لتلك الكراهية التي حملها قلبه وكل قطرة من دمائه لشلتوت ومكتبه، فكلما عرض عليه المهندس المختص بالديكورات عدة اختيارات، اختار أبسطها، برغم يقينه بأن فخامة المكان تضيف إلى صاحبها الكثير من الهيبة والتقدير، لكنه أراد أن يكون هو مَن يصنع المكان الجديد وهو مَن يضيف الهيبة للمكان وليس العكس..

اختار اللون الأبيض الممزوج بالقليل من اللون الأصفر لطلاء الحوائط، عدا حجرة إنجي فكانت باللون الوردي، والأثاث كان بسيطًا إلى حد بعيد ومع ذلك لم يخلُ من الأناقة الغير مصطنعة، فكان أثاث بهو الإستقبال عبارة عن أنتريه من الجلد الطبيعي الأسود اللون المُطعَّم باللون الأحمر و عدد من التابلوهات التي تبثّ روح القانون في المكان، كميزان العدالة وبعض مُقتطفات من كتب القانون، وبعضها احتوى على بعض النصوص القرآنية التي ترتبط بشكل أو بآخر بالتشريع.

استغل معظم مساحة المكان لتكون بهو الإستقبال الرئيسي حيث كان قراره منذ البداية بأنه لن يعتمد على محامين آخرين في العمل معه،

ولهذا لم يكن بحاجة للعديد من الغرف، فكان المكتب لا يحتوي إلا على حجرة كبيرة له و حجرة صغيرة تُستَخدم ككافيتريا لإعداد المشروبات سواء له أو لضيوفه وعملاؤه، بالإضافة إلى مكتب إنجي.

احتوت حجرته على مكتب خشبي كبير الحجم، بالإضافة إلى طاولة خشبية مستديرة الشكل مُحاطة بستة كراسي لاستخدامها إذا ما أراد عمل غرفة عمل صغيرة مع بعض العملاء، وكذلك بعض الإكسوارات البسيطة التي بثَّتّ أناقة ورونقًا للمكان كالأباجورات وبعض الفاظات ذات النقوش الفرنسية.

كان قراره منذ بداية تفكيره للعمل مستقلًا بأنه سيستعين بأحد الرجال ليعمل سكرتيرًا ومساعدًا له في ذات الوقت.. قراره بالإعتماد على ذكر وليس أنثى على غير المعتاد. كان قوامه الرئيسي تحقيقًا لرغبة دفينة داخله بألا تطأ قدم أنثى مكتبه الجديد كموظفة، احترامًا ووفاءًا لإنجي ومكانتها عنده.

وقع اختياره على شاب يعمل منذ عدة سنوات بأحد مكاتب الخبراء بالمحكمة، فقد توسّم فيه الخير والإجتهاد، إضافة إلى وسامته التي تؤهله لمقابلة العملاء والتعامل معهم وعقد معه إتفاق سري بأنه لو قرر الإنفصال عن شلتوت سيلتحق بالعمل عنده وبراتب لا يقل عن عشرة أضعاف راتبه الحكومي، كان جانب كبير وراء اختياره لهذا الشاب مبني على أساس علمه ودرايته بكيفية العمل داخل المحاكم، وكذلك معرفته بعدد كبير من العاملين داخل المحكمة ممّا سيَسهِّل عليهما الكثير من الجُهد والوقت.

***

لم يمتلك سعدي رفاهية وقت الفراغ، فما تبقَّى من يومه بعد حضور الجلسات الصباحية وعمله بالمكتب مساءً يقضيه في العادة متجولًا في الشوارع المختلفة كلما استطاع، مُتاملًا وجوه الناس من حوله مُحاولًا إستنباط ما قد يشعرون به أو ما يفكرون فيه وإستراق النظر داخل المحال المختلفة ومتابعة الناس وهُم يتبضَّعون وأيضًا تأمّل يافطات الأعمال المختلفة التي احتلت واجهات معظم العمائر من يافطات أطباء ومحاميين ومكاتب هندسية وخلافه، فشوّهت العمائر كما تشوّه كل شيء..

كثيرًا ما كان يمشي هائمًا شاردًا بين ماضٍ فُرِضَ عليه واضُطر لقبوله مُرغمًا ومستقبل يُشكِّله هو بيده ويُحدِّد ملامحه دون تدخل من أحد..

لم ينقطع يومًا عن الصلاة حتى في أشد حالات انشغاله، فكان يشعر بأنها الطوق المُنجِي له عبر الأيام بأمواجها العاتية المُتلاطمة وأعاصيرها المُهلِكة..

عادةً ما كان يعرج الخميس ليلًا على أحد الملاهي الليلة.. ربما كان يقضي هناك ما يقرب من النصف ساعة أو ساعة على الأكثر.. ولم يكن مستديمًا على ملهى بعينه، فكان في كل مرة ينتقي ملهى مختلفًا سواء من حيث المكان أو المستوى..

في إحدى الليالي، ما أن عرج داخل إحداهم حتى رأى جمال جالسًا في ذلك المكان المُخصَص لإحتساء المشروبات الكحولية السريعة -البار-، فاقترب منه رابتًا على أحد كتفيه، وما أن التفت إليه جمال ورآه حتى ابتسم ومال إليه قليلًا، مُتحدثًا:

- ده أنت موصفولي بقى!!..

بعد لحظات أمضياها ضاحكان، سأله جمال:

- إيه إللي رماك على المُرّ؟

- مِر!!

- إيه إللي جابك هنا يعني؟!!

- من وقت للتاني بحب آجي أتفرج..

- قبل ما أنسى، تشرب إيه؟

- عصير برتقال

- نعم يا أخويا!! في مكان زيّ ده وعاوز تشرب عصير برتقال..؟ إنت يا ابني مجنون ولّا عاوز تجنني؟

- لو مفيش قدامي غير الإختيارين دول.. بما إني أكيد مش عاوز أجننك، يبقى أنا مجنون، وعمومًا لو مفيش برتقال يبقى أي عصير ساقع.

- في.. أكيد في.. بس غريبة جدًا..

- ما تسغتربش.. عامل إيه دلوقتي؟.. بقالي فترة مش بشوفك في المحكمة!!

- ماشي الحال.. ما بقتش بروح المحكمة كتير.

- ليه؟!

- بخلّي محامي صُغيّر شغّال عندي أو بمعنى أدق معايا يحضر عني أغلب القضايا البسيطة ويقدم المذكرات إللي بكتبهاله، وغالبًا مش بحضر بنفسي غير في الإستئناف، لكن نادر أوي لما بحضر جلسات أول درجة.. ده غير إن زيّ ما أنت عارف مكتبي لسه جديد ويُعتَبر لسه في البداية.

- معلش.. عادي، شويّة والدنيا هتمشي..

- ربك كريم.. كله بوقته.. وإنت الدنيا عاملة معاك إيه؟

دار سعدي بكرسيه المستدير نصف دورة ليتجنَّب الإضاءة المصوّبة نحو عينيه والمُنبعثة من خلال لمبات انتشرت على البار، وأجاب:

- ربك كريم.. كله بوقته.. وإنت الدنيا عاملة معاك إيه؟

- على حطة إيدك.. تقريبًا مفيش جديد.

- سمعت إن شلتوت مش بيروح كتير ومعتمد عليك في كل حاجة تقريبًا..

- إلى حد كبير.

- وإنجي؟!

بابتسامة صفراء، رد سعدي:

- مالها؟

- لسه زيّ ما هي؟

- إنجي هي إنجي، وهتفضل إنجي.. ساعات بحس إن إنجي صفة مش اسم..

- بمعنى؟

- يعني بمجرد ما بتقول إنجي، كأنك بتوصف حد مش بيتغيّر مهما حصل أو مهما عدت أيام وشهور..

- ماشي يا عم الفصيح.

بعد أن إرتشف رشفة من كأسه، أردف جمال:

- طالما آخرك عصير برتقال، بتيجي ليه هنا؟.. كان أحسنلك تركن جنب أي كشك في الطريق وتجيب منه عصير...

- باجي أتفرج على الدنيا.

- مش فاهم!!

- هنا الناس على حقيقتها من غير لا زيف ولا كدب.. الناس بمجرد ما بتدخل هنا بتخلع كل الأقنعة والوشوش المزوّرة إللي لابساها طول اليوم ومع كل الناس.. ولمّا بِتسكَر بيبانوا أكتر وأكتر على حقيقتهم.

- تعرف مشكلتك في إيه؟

- إيه؟

- دماغك يا سعدي..

- تقصد إيه؟!

- دايمًا بتفكر.. بتفكر زيادة عن اللزوم.. بتفكر في وقت التفكير فيه بقى جريمة.. جريمة أكبر من إن أي محامي يقدر يطلَّعك منها مهما كان شاطر..

قاطعه سعدي، لافتًا انتباهه بإشارة من سبابته نحو إحداهن والتي لا عمل لها غير الدوران حول الطاولات المختلفة محاولة اجتذاب أحد الزبائن:

- واخد بالك من البنت دي؟

أجاب جمال ضاحكًا:

- بس ما تقولش بنت.

- ماشي، برغم لبسها والبوط إللي واصل لركبتها وكمية المكياج إللي تقريبًا مغطِّي كل ملامحها، بس خُد بالك من عينيها..

التفت جمال لمَن أشار سعدي إليها وأجاب:

- مالهم؟ حلوين؟!

- ما أقصدش.. شايف كمية الحزن والهمّ إللي جواهم؟ .. يا عالم دي دنيتها فيها إيه..

- هيكون فيها إيه!!.. بتعمل فلوس أكتر مني ومنك ويمكن من شلتوت نفسه.

- بيتهيألك.. دي أكيد أغلب من الغُلب.. هتلاقي صاحب المكان

ماصص دمّها نقطة نقطة ومن غير رحمة.. تفتكر واحدة زيّ دي لو كانت لقت فرصة إنها تكون أنضف وأشرف من كده كان هيبقى إيه حالها؟

رد جمال وهو يحتسي من كأس شراب ذي لون أصفر:

- كانت هتبقى زيّ ما أنت شايفها دلوقتي بالظبط.. هي مخلوقة لكده.. دي شغلتها.

- معاك، إن ممكن يكون بعضهم كده.. إنما كلهم؟ أكيد لأ.. ولو كلامك صح يبقى في حاجة غلط..

- غلطان.. في ناس مخلوقة لكده زي النصابين والحرامية وتجار المخدرات وغيرهم، حتى لو جتلهم فرصة إنهم ينضفوا مش هيعرفوا.

- لإنهم اتعودوا على ده.. ما شافوش حاجة تانية علشان يقرروا.. تعرف لو إنهم لقوا حد يمدّلهم إيده قبل ما يمشوا في الطريق ده، كان حال كتير منهم اتغيّر.

نظر جمال لسعدي نظرة تحدي و سأله:

- تيجي نتراهن؟

- على ايه؟

- البنت دي..

سعدي مُقهقهًا:

- يووه.. مش قلنا ما تقولش بنت..

- ماشي يا سيدي.. إللي مش بنت دي نجيبها ونسألها بتعمل كام في اليوم ونعرض عليها ندفعلها إللي بتاخده بشرط إنها تبطل، ولو بطلت واستمرت على كده شهر واحد بس تكسب الرهان..

رد سعدي وهو متأمل فيها:

- من غير ما نعمل كده، أنا عارف إنك كسبان الرهان لأنها خلاص مشت في طريق إتجاه واحد، وعلشان كده كنت بقولك المهم البداية، لكن بعد البداية عاوزة معجزة من عند الله..

عقَّب جمال مازحًا:

- صدعتني.. روح يا أخي منك لله.. أنا جاي أفصل ولا أفكر؟ .. منك لله يا شيخ ضيعتلي الكاسين..

- آسف، معلش.. ما هو قليل البخت يلاقي العضم في الكرشة.

سأله جمال متهكمًا:

- ومين بقى إن شاء الله العضم ومين الكرشة؟

- والله على حسب..

وانخرطا في نوبة من الضحك الهيستيري كادت تصيبهما بسكتة قلبية، والناظر لهما من بعيد لن يستطيع أن يفرق بين مَن منهما يحتسي الخمر وبين مَن يشرب كوب من العصير المثلج.. فحقيقة الأمر كل منهما كان سكِّيرًا.. أحدهم بفعل الخمر أما الآخر كان سكيرًا من سرعة

دوران الأفكار في عقله..

ظلا يتحدثان قرابة النصف ساعة، مُستطلعان أخبارهما إلى أن استأذن سعدي ومضى وترك جمال وحيدًا مع كأس شرابه...

***



بعد مرور قُرابة الثلاث أعوام على عمله بمركز شلتوت...

أثناء تواجده بالمكتب مُنتظرًا وصول شلتوت للتحدث معه بخصوص قرار اتخذه، كان يمارس عمله بشكل طبيعي من متابعة سير الدعاوي القضائية والإجتماع ببعض المحامين سواء فرادى أو مجتمعين إلى أن اقترب موعد المغادرة بنصف ساعة ولم يظهر شلتوت -وهذا تحديدًا ما تمنَّاه سعدي- ليجد مبررًا مَنطقيًا للتحدث مع إنجي، وخاصة بأن تعليمات شلتوت كانت تمنع الإتصال به نهائيًا إلا إذا كان الأمر يَخُص أحد القضايا لكبار الموكلين..

بعد أن استغرق دقيقتين في دورة المياه، قضاها بين ضبط هندامه والنظر للمرآة محاولًا تَخيل الحوار كيف سيكون بينه وبينها، اتجه بخطوات مُرتعشة على عكس خطواته الثابتة دومًا، وبالرغم من أن المسافة لا تتعدَّى بضعة خطوات إلا أنه شعر وكأنها ترحال طويل إلى أن استقر به الحال واقفًا على عتبة حجرتها تمامًا وناقرًا بابها نقرة خفيفة مع نحنحة صغيرة ليلفت انتباهها، حيث كانت مُنهمكة في بعض الأعمال الكتابية كما هي دائمًا..

انتبهت له، وبنظره ثابتة مع حركة رأس خفيفة كانت بمثابة الإذن للدخول والتحدث..

تنحّت عن شاشة الحاسوب والتي كانت تُخفي أغلب وجهها مُنتظرةً لتستمع إلى ما أراد قوله، ولكنها لم تدري وقتها أنه بمجرد أن رأى ذلك الوجه عن قُرب قد رحل قلبه وعقله بعيدًا، سابحًا بعيدًا خلال عينيها

والتي طالما ما تمنَّى نظرة واحدة منهما.. مُبحرًا مع أناملها -التي لا تزال ممسكة بماوس الحاسوب- متمنِّيا لو كانت يده هي ذاك الماوس ليشعر بلمسة واحدة من يدها.. مُتأملاً تلك الشفاه التي إذا حاول أحد الرسّامين المحترفين رسمها لما كان مُنتجِه النهائي كروعة شفتيها، أو إذا اجتهد أحد أمهر الشعراء في وصفها لما أسعفته الكلمات إلى أن عاد من شروده على إثر صدى صوتها:

- مع حضرتك.. إتفضل.. سامعاك..

مُحاولًا جمع قواه التي أوشكت أن تخور ، تحدث:

- كنت بسأل عن دكتور شلتوت.. أقصد يعني كنت عاوز أعرف إذا كان الدكتور جاي النهاردة ولّا لأ؟

- للأسف مش جاي النهاردة.

- طيب.. تمام.

سادت لحظات من الصمت، شابها اندهاش سعدي من تحفُظها الشديد في الإجابة على غير عادة البشر، فقد كان يتوقع أن تسأله ما إذا كان يريد شلتوت لأمر عاجل أو ما شابه، حتى ولو من باب الفضول البشري، ولكنها لم تفعل، فأردف:

- عمومًا، أنا بعتذر إني أزعجتك وعطلّتك عن إللي في إيدك وألف شكر.

لم يجد غير إيماءة من رأسها وكأنها تقول "العفو".

هَمّ بالمغادرة ولكن قدماه لم تُسعِفاه، فقد شعرَ وكأنه قد فقد جميع

وظائفه الحيوية والحركة من ضمنها، وأصبح في موقف من المواقف التي لا يُحسَد عليها أحد، فلا استطاع المغادرة ولا الكلام، ولم يدرِ ماذا يفعل، إلى أن أنهى صوت إنجي حيرته:

- في حاجة أستاذ سعدي!!

بنبرة متوترة، رد:

- لا أبدًا، بس زيّ ما أكون دوخت فجأة.. معلش آسف..

وإذا بها تَهمّ من جلستها خلف مكتبها واتجهت مباشرة إليه ومقتربة منه قدر استطاعتها وقالت:

- طيب إتفضل إستريح، وهجيبلك كوباية ميا..

(قالتها وهي تمسك بأقرب كرسي جاذبة إياه باتجاهه ليجلس عليه).

جلس سعدي ولم يكن يدري بأي شيء، وكأنَّ أحدهم قام بإعطائه جرعة مخدر زائدة، وأنه تلقَّى ضربة مُوجِعة على رأسه فأفقدته إتزانه، بالطبع لم يكن هناك مخدر أو ضربات، إنما كانت رائحة ذلك العطر الذي فاح منها، فكان بالنسبة إليه كرائحة مسك الجنة والذي أطاح به سكِّيرًا وتمنى لو ظَلَّ هكذا ما تبقَّى له من حياة.. خرج خارج حدود العقل، بل والمنطق أيضًا بتخيلُه أنها تحتضنه بين ذراعيها كالطفل الذي اشتاق إلى دفء حضن أمه وحنانها، وظل سابحًا مع تهيؤاته إلى أن مدَّت يدها إليه مُمسكةً بكوب من الماء محاولة مناولته إياه.. فأخذه منها وارتشف رشفه صغيرة وظل ممسكًا بالكوب.. ذلك الكوب الذي لم يكن يختلف عن أي كوب آخر.. الإختلاف الوحيد كان أنه الكوب الذي أعطته إياه إنجي ولمس يديها

تلك اللمسة التي تمنَّاها والتي كان على إستعداد أن يُضحَي من أجلها، ليس فقطِ بكل ما يملك، بل بما هو أغلى وأثمن ذلك بكثير وهو عمره.

ظلَّ مُتشبسًا به بكلتا يديه وصوّب نظره نحوها، قائلًا:

- ألف شكر.. مش عارف أقولك إيه..

- تقول إيه على إيه.. أنا ما عملتش أي حاجة.. المُهم بقيت أحسن؟

- أكيد أحسن، وبكتير.

- تحب أكلم حد من الزُملا ييجي ياخدك ويوصّلك للبيت؟

- لأ خالص الموضوع مش مستاهل.. أنا بقيت تمام الحمد لله.

- الحمد لله.. خليك مستريح لحد ما تقدر تروح مكتبك.. بالمناسبة كنت بتسأل على الدكتور ليه؟

وكأنَّ جبل الجليد قد بدأ بالذوبان، وها هو سيستطيع أن يتبادل أطراف الحديث معها لأول مرة، وربما لآخر مرة..

بينما كانت تجذب المقعد المقابل له لتستلقي عليه، رد:

- كنت مستني الدكتور علشان كنت عاوز أتكلم معاه في موضوع مهم.. أقصد مهم بالنسبالي..

- لو عاوزني أبلَّغه حاجة معينة إتفضل قولّي..

- كنت عاوز أقوله إني تقريباَ نويت إني أسيب الشغل في المكتب هنا...

ارتسمت علامات التعجب على وجهها، وسألت:

- خير؟ في حاجة حصلت أو حد ضايقك؟!

- لا أبدًا.. بالعكس.

- أومال إيه!! هو في حد عاقل يمشي من هنا!! وخصوصًا لو إنت!!

- إشمعنى؟.. خصوصًا لو أنا!!

- ببساطة لإنك واخد وضعك جدًا ونمرة واحد في المكتب.. ده غير إنك أقرب حد من المحامين للدكتور وبيعتمد عليك بشكل كامل تقريبًا والمحامين بتحبك وبتحترمك، ومش محتاجة أفكَّرك بمرتبك طبعًا.

- كل إللي حضرتك قلتيه يمكن فيه جزء كبير من الصح إنما أنا بقيت حاسس إن ما بقاش عندي جديد أقدر أقدمه للمكان..

إنجي مقاطعة إياه:

- كلامك بيفكرني بكلام الروايات والأفلام العربي القديمة..

- كلامي هو إللي أنا حاسّه بالظبط.

- ماشي.. ما عندكش جديد؟ ولّا المكان بقى صغير عليك؟

- لأ خالص.. لا المكان بقى صغير ولا أنا كبرت عليه، والمكان كبير بيّا أو من غيري.. الحكاية كلها إن زيّ ما يكون حصّلي تَشبَع وكمان عاوز أجرب نفسي، أو الأصح عاوز أختبر نجاحي إذا كان فعلًا نتيجة لإني كويس ولاّ علشان أنا بشتغل مع الدكتور..

بعد لحظة صمت قضاها ناقرًا كوب الماء بأنامله، بينما كانت هي

ترفع خصلة من شعرها قد سقطت على عينها، أردف:

- تقدري تقولي إثبات ذات مش أكتر ولا أقل.
- عمومًا إنت أدرى بحالك، ويا ريت تكون فكرت كويس، وخلّي بالك من حاجة مهمة..
- خير؟
- الخطوة إللي هتاخدها مش هتعرف ترجعها.
- من الناحية دي إطمني، أنا فاهم كويس الموضوع ده.
- تحب أبلَّغ الدكتور بنيّتك دي؟
- أفتكر الأفضل إني أتكلم معاه بنفسي في الموضوع ده ولّا حضرتك شايفة إيه؟
- ماليش إني أشوف حاجة تخص حد غيري، القرار بتاعك..
- يبقى أفضل إني أفاتحه أنا في الموضوع ده بنفسي..

قالها وهو يقوم من جلسته مُستندًا على إحدى مقابض المقعد بيد، بينما يمسك بكوب الماء باليد الأخرى، وأثناء سيره نحو الباب للخروج التفت لإنجي والتي كانت تتجه مرة أخرى للجلوس خلف مكتبها الأنيق وقال:

- بعتذر للمرة الألف إني عطّلتك عن شغلك، وشكرًا على الميه وأستأذنك هاخد الكوبايه معايا أكمّلها في مكتبي ...

ثم مضى...

بالطبع لم يكن كوب الماء هو آخر الأكواب الذي احتوى على آخر قطرات الماء على كوكب الأرض، وقد كان باستطاعته أن يطلب ما شاء من الكافتريا ، إنما أراد الإحتفاظ بذلك الكوب تحديدًا إلى أن جلس على مقعده خلف مكتبه وانتقى وردة حمراء من مجموعة الورود التي تُوضَع له يوميَا من الفاظة الباهظة الثمن الموضوعة على الطرف الجانبي لمكتبه الخشبي ووضعها بداخل كوب الماء ثم وضعه على سطح مكتبه خلف مجموعة من الكُتب التي تحجِبه عن النظر.

شعور سعدي في ذلك الوقت لم يكن يضاهيه أي شعور، وجمح بخياله مُسترجعًا كل لحظة من لحظات جلسته مع إنجي.. استغرق في شروده من الوقت الكثير الذي لم يعرف كم هو، ولم يكن ليريد أن يعرف.. ثم مضى مُغادرًا المركز...

كان على يقين بأن الحديث سيعلمه شلتوت ليس فقط عن طريق إنجي ولكن من خلال الكاميرات والتسجيل الصوتي كما أخبره جمال، وهذا ما أراده بالفعل لأنه أراد أن يعرف شلتوت بقراره ليكون بمثابة مُقدمة لحديثه معه، وحتى لا يتفاجأ شلتوت بالحديث لأول مرة وما قد يُنتج عن المفاجأة من رد فعل غير متوقع..

في اليوم التالي.. داخل مكتب شلتوت..

بعد أن ارتشف شلتوت رشفات متتالية من قدح قهوة قد انبعثت منه رائحة البن البرازيلي فملأت المكان كله، نظر لسعدي مُتسائلًا:

- إنجي قالتلي إنك عاوزني في موضوع شخصي!!.

- صح سعادة الريس.

- والموضوع ده مستعجل لدرجة إنك تلحّ في مقابلتي بالدرجة دي؟!

- هو مش مستعجل، بس مهم بالنسبالي.

- تمام.. خير؟

- كنت عاوز أقول لحضرتك وفي نفس الوقت آخد رأي سعادتك في إني أسيب الشغل هنا وأفتح مكتب صغير أشتغل من خلاله.

بعد نصف دورة دارها شلتوت بمقعده المتحرك محاولًا إظهار بأنه يستمع للكلام لأول مرة وكأنه يفكر فيه:

- وبعدين؟

- ده كل الموضوع سعادتك.

- وجهِّزت مكتب جديد؟

- لسه يا أفندم.. مش ناوي أعمل أي حاجة غير بعد موافقتك طبعًا ورأي سعادتك ومباركتك كمان..

- يعني لو قلتلك لأ، هتعمل إيه؟

- هلغي الفكرة من أساسها، ومن غير أي تردد.

كان على علم بأن شخصية شلتوت ليست بالشخصية التي تُعلن جهاراً عن إحتياجها أو تشبّثها بأحد أيّاً كان، لذلك كان واثقًا من أن إجابته بإلغاء فكرة تركه للعمل في حال رفضه لن تغيّر من الأمر شيئًا، بل على العكس تماماً لأنها سترضي غروره، وكما علمته الحياة أن أول خطوة في الطريق لحصول المرء على ما يريد في عالمنا الذي نحياه هو استرضاؤه أحيانًا لغرور الآخرين..

ارتشف شلتوت مجدداً من قهوته إلى أن انتهى منها، أزاح القدح جانبَا واستطرد:

- سيبك من رأيي وخليك في موافقتي.

- إللي تشوفه سعادتك.

- أنا عندي قناعة إن مفيش مكان بيقف على حد مهما كانت أهميته، وخاصة لو مكان كبير زيّ ده..

بعد إيماءة رأس من سعدي، بمعنى الموافقة، أردف شلتوت:

- مفيش مشكلة، عاوز تمشي وتشوف حالك مع نفسك، توكل على الله.. بس خلّي بالك من حاجتين..

- سامع حضرتك ومركز.. إتفضل..

- الأولى: إللي بيمشي من هنا مش بيرجع تاني مهما كانت الأسباب..

- تمام.. أنا عارف إني هتحمَل نتيجة قراري أيًا كانت.

- والثانية: أي حاجة شفتها هنا أو عرفتها، أو حتى سمعتها مهما كانت صغيرة تنساها تمامًا، بل الأكتر من كده إنك تنسى إنك كنت بتشتغل هنا من أساسه.

- من غير حضرتك ما تقول.. ده أكيد.

- مش محتاج أنبَهك من خطورة إستغلال أي معلومة مهما كانت صُغيّرة عن أي حد من العملاء بتوعي.. هتبقى نهايتك بجد.

- مفهوم.

- سعدي، أنا كلامي مفيش فيه مبالغة.. أنا أقصد كلامي حرفيًا.

- تمام سعادتك.

- قُدامك شهرين تكون خلَّصت أيّ قضية في إيدك وفي نفس الوقت تكون سلمت لحد من زمايلك إدارة المكان.

- لمين سعادتك؟

- كام يوم وهبلَّغك.. كل حاجة في وقتها..

- إللي سعادتك تشوفه، ومن دلوقتي ولحد الشهرين ما يخلصوا تأكد سعادتك إن شغلي هيكون هو هو ويمكن أكتر بكتير كمان.

- والكلام إللي قلتهولك خليه حلقة في ودنك.

- حاضر.

- ومش عاوز حد من الموظفين يعرف الميعاد إللي هتمشي فيه، أنا هبقى أبلغهم بنفسي.

- إللي تشوفه سعادتك، أنا عن نفسي ولحد الشهرين ما ينتهوا، مش هتكلم مع أي حد في أي حاجة غير الشغل.

قال شلتوت مع إشارة بيده صوب باب المكتب:

- تقدر تتفضل.

- ألف شكر.

مضي سعدي بعد أن نال مراده، بل وأكثر قليلًا بإحتفاظه بالعمل لمدة شهرين لحين إكتمال تجهيز مكتبه الجديد، والمكسب الأهم كان الحصول على موافقة شلتوت دون إستثارة غضبه، فكانت موافقته ضرورية بالنسبة إليه تفاديًا لأي خصومة يعلم مداها، وخاصة مع علمه بحتمية الخسارة عند أي مواجهة معه لأنه ما زال ضعيفًا لعدم إمتلاكه لأدوات الأقوياء..

كانت رؤيته بأن المراحل الأولى لتعُلُّم السباحة تتطلب أحيانًا بأن تحني رأسك قليلًا عند مواجهتك لموجة عاتية خير لك من مجابهتها لأنها ستفتك بك لحين إتقانك للسباحة.. فالذكاء لا يكمِن في مدى إدراكك لقوتك بل بإدراكك لمدى قوة الآخرين ثم الإنتظار لبعض الوقت وإن طال، لمعرفة نقاط ضعفهم، فلا يوجد كائن على وجه الأرض ليس له مواطن ضعف وإن قلّت، فالقائد الفذّ هو مَن يستغل مواطن ضعف خصمه قبل أن يستفيد من نقاط قوته مهما بلغت، فاستخدام القوة ضد القوة يُعد نَوعًا من إنهاك واستنزاف القوة

والطاقة تدريجيًا.. لهذا كان سعدي مُدركًا تمامًا بأنه ليس الوقت المناسب لأي تحدي أو مواجهة.

بالفعل كان على عهده مع شلتوت من حيث إجتهاده بالعمل كما كان وكأنه لا تفصله عن مغادرة المركز إلا أيامًا معدودة.

كان على علم بأنه لن يفتقد شيئًا ولا أحدًا، فقد روّض نفسه تدريجيًا ألا يتعلق بأي شيء، وكان يعتبر هذا نوع من أ نواع الحرية التي تزوّدك بقوة كبيرة، فكم من التنازلات التي يقوم بها البشر بسبب التشبّث بفكرة أو بشخص.. وكم يكون الإنسان ضعيفًا أمام مَن يُحب، ذلك الضعف الذي يُجبِره أحيانًا على إتخاذ بعض القرارات التي من شأنها تحطيم حياته بأسرِها، عدا إنجي التي كان يفتقدها وهو ما زال هناك، وكان يعلم بأنه سيرحل بجسد دون قلب لأنه وبكامل إرادته سيتركه لها..

***

بعد شهرين من ذلك اللقاء بشلتوت.. وبداية عمله منفردًا..

لم يُكن مُستغرباً أنه مع بداية إستقلاله للعمل أن يجتذب قلة من عملاء دكتور شلتوت دون تَعمّد، وخاصة الصغار منهم والذين كانوا يتعاملون معه أحيانًا مباشرة سواء من خلال مقابلات كانت تتم في مركز شلتوت لمناقشة بعض التفاصيل التي تخص قضاياهم أو الإلتقاء بهم من خلال الجلسات التي تُعقَد بالمحكمة والذين لا يُفضِّل شلتوت التعامل مع قضاياهم لأنهم يُمثِّلون عبئًا عليه لإهتمامه بقضايا كبار العملاء، فلم يكن يُبالي بصغار الموكلين، فكانت قضاياهم تُسنَد بشكل مُباشر لصغار المحامين، وتحديدًا للمبتدئين منهم، وبالرغم من أن الغالبية العظمى من وكلاء شلتوت كانوا على علم بأن سعدي هو الترس الرئيسي لماكينة شلتوت القضائية خاصة في الآونة الأخيرة ولكن لم يكن ذلك كافياَ بالنسبة لهم لينقلبوا على شلتوت، لعلمهم بمدى توغُّل علاقاته والتي غالباَ ما تُمَثل لهم الحصن الواقي من كل شر، وآخر ورقة للتوت سيحتمون بها إذا ما حلَّت الكوارث أو هكذا اعتقدوا..

على الجانب الآخر لم يكن سعدي مُتلهفًا لإجتذاب عليةَ الموكلين لقناعته بأنها مسألة تتعلق بالوقت لا أكثر، كان الأهم رغبته بعدم اكتساب عداوة شلتوت وخلق خصومة معه في تلك الفترة أو إستنفار غضبه.. فكانت تلك المرحلة -كما قرر- هي مرحلة السير كالسلحفاة التي انتوت أن تسبق الأرنب.. هكذا كان يقينه.

بتواتر الأيام ازداد صيت سعدي في عالم المحاماة، وكلما ازداد صيته كلما ازداد معه عدد عملاؤه، وكان لا يزال على موقفه من رفض

التعاون مع أيّ موكل يعلم بأنه من كبار عملاء شلتوت، وبطبيعة الحال لم يكن لديه رفاهية الوقت لاستقبال المزيد، لاستقطابه العديد من الموكلين بسبب سمعته الطيبة التي ازدادت يومًا بعد الآخر، ومع ذلك كان يرفض تَوَلِّي العديد من القضايا، حيث كان اهتمامه مُنصبًا على القضايا الكبيرة، كقضايا الفساد والمخدرات والأموال العامة وغيرهم، والتي تتطلَّب الكثير من البحث والتفكير،وأيضًا جمع الكثير من المعلومات والمستندات، وخاصة أن سعدي كان ولا يزال وسيظل يعمل بمفرده..

بالطبع لا يَخفى على أحد بأن هذه النوعية من القضايا التي لها تأثير السحر في تسليط أضواء الشهرة عليه، وهذا ما ابتغاه تمامًا، وبالتالي اجتذاب المزيد من المال فكانت أتعابه مقابل القضية الواحدة ما يُعادل عشرات الأضعاف ممّا يتقاضاه المحامون الآخرون من خلال تَولي القضايا المُعتادة والمُستهلَكة.

لم يتغير الكثير مع دوران عجلة الزمن، فكان ينتقل من نجاح إلى نجاح كالفراشة التي تتنقل من غصن إلى غصن، مُجتذبة أنظار كل الفرائس، ولكن بفراستها وغرزيتها الفطرية بمهارة الهروب لم يستطع أحد الإمساك بها أو حتى مجرد الإقتراب منها.

كان ثباته على أفكاره وطريقة عمله كالعقيدة التي لا تتغير والإيمان الذي لا يتزعزع مهما حاول البعض أن يخلخله، حتى ذلك اليوم الذي دخل عليه مدير مكتبه وأخبره بأن هناك شاب يرغب بشده بمقابلته برغم كل محاولاته لصدِّه بحجة انشغاله، لعلمه من مجرد مظهره بأنه ليس من نوعية الأشخاص الذي قد يرغب سعدي في التعامل معهم أو

مع قضاياهم.. خاصة أن أغلب قضايا الفقراء من نوعية القضايا البسيطة التي قد ينجزها صغار المحاميين، وأيضًا لأن الفقراء لن يستطيعوا تحمّل تكلفة كبار المحامين، وبالرغم من ذلك ولسبب يعلمه الله وحده قد وافق سعدي على مقابلته.

دخل عليه الشاب وقد اكتست ملامحه بالحزن، وكان اللمعان الذي كاد أن يقفز من عينيه دلالة على انهمار الدموع التي قد يكون ربما قام بتجفيفها توّا قبل عروجه لمكتب سعدي..

بدا عليه وكأنه قد وصل إلى هنا بعد رحلة سفر من بلاد بعيدة قد أنهكت كل قوة لديه واستنفذت كل طاقة قد ادخرها..

بعد أن دعاه سعدي للجلوس وقدَّم له زجاجة مياه معدنية، سأله:

- خير إن شاء الله؟

- ما أفتكرش إنه خير خالص..

قالها وهو يمد يديه لسعدي مُعطِيًا إياه ملف قد احتوى عددًا لا بأس به من الأوارق والمستندات.

تناوله سعدي ووضعه أمامه، ثم طلب من الشاب إخباره بتفاصيل بما جاء من أجله..

بدأ يستمع له وهو يطوف بين أوراق الملف ورقة ورقة..

بدا الشاب مُتلعثمًا، فنظر إليه سعدي قائلًا:

- اشرب شوية ميّه وإهدى وإحكيلي، وإنت بتحكي أنا هبَصّ في الورق ومش عاوزك تقلق.. مفيش حاجة مالهاش حل واتنين..

بدأ الشاب يروي بعد أن هدأ روعه نوعًا ما:

- عاوزين يسجنوا أبويا علشان راجل شريف ووقفلهم.

سأله سعدي وهو ما زال يتصفَّح الورق:

- مين هُم؟!.. إحكي واحدة واحدة ومن أول الحكاية.

- حاضر.. أبويا كان رئيس مجلس إدارة شركة أعالي البحار وأعتقد حضرتك أكيد سمعت عنها؟

لم يلتفت إليه سعدي ولم يُجب، كان مُنهمِكًا في استطلاع وتصفُّح الأوراق، فاستطرد الشاب:

- في عهده -أقصد بابا طبعًا- الشركة حقَّقت أعلى أرباح من وقت افتتاحها وكانت من الموارد المهمة لدخل الدولة كلها، طبعًا ده غير التوسّعات إللي عملها في خلال الست سنين إللي كان فيها رئيس لمجلس الإدارة، أقصد بالتوسعات إن الشركة بقى لها بدل الخمس فروع، عشرين فرع في كل مصر تقريبًا وكمان افتتح لها فرعين في السودان وجنوب أفريقيا ومش هكون ببالغ لو قلت إن كان في كلام كتير إن بابا كان مُرشَّح لمنصب كبير في الدولة....

تناول بيد مرتعشة زجاجة المياة المعدنية وارتشف منها كالظمآن وسط غياهب الصحراء ولهيب حرارتها، وأكمل:

- في بداية اتجاه الدولة للخصخصة، كانت الشركة واحدة من الشركات إللي كان الكلام عليها إنها هتتخصخص وهتتباع لواحد من الناس إياهم، والكلام ده بالنسبة لبابا كان كلام غير مفهوم

لإن اتجاه الحكومة إنها تخصخص الشركات الخسرانة وإللي بتمثل عبء على ميزانية الدولة، إنما شركة أعالي البحار كانت غير كده خالص، وحضرتك هتلاقي في الملف الورق إللي بيثبت ده..

رمقه سعدي، مُتسائلًا:

- مش شايف لحد دلوقتي مشكلة، وخاصة إن دي سياسة دولة وأكيد الناس إللي فكرت في كده درسوا الموضوع بدل المرة عشرة.

- هي دي المشكلة الحقيقية، إن الموضوع كان ظاهره مصلحة الدولة ودي الحقيقة، ما عدا بعض الشركات إللي كان هيطبق عليها القانون لمصلحة ناس معينة وكانوا بيدَّوا معلومات غلط ومش بس معلومات مغلوطة، إنما كانوا أحيانًا كتير بيزوّروا أوراق ومستندات ويصدَّورها لأصحاب القرار، وبالتالي لما بياخدوا قرار بُناءَا على المستندات المزورة، القرار بيكون غلط طبعًا..

ابتلع ريقه وأردف:

- وعلشان أدخل في الموضوع نفسه، شركة أعالي البحار كانت أصولها بس، يعني الأرض والممتلكات الثابتة كانت تفوق ١٥٠ مليون جنيه وده طبعًا غير الأرباح إللي كانت بتحققها من خلال مصانعها وخلافه.. بابا اتفاجئ إن الشركة معروضة للبيع بأقل من ٣٠ مليون.. يعني شركة أصولها تعدِّي ال ١٥٠ مليون جنيه وبتعمل أرباح في السنة حوالي ١٠٠ مليون هتتباع بخسارة أكتر من ٢٠٠ مليون جنيه، وده طبعًا غير العمال إللي هتتشرّد، وزيّ ما حضرتك عارف إن غرض المشتري وإللي اسمه موجود في الملف إنه

هيتَعَمَّد يعمل كل حاجة علشان يِخَسّر الشركة ويبيع الأصول الثابتة زيّ الأرض والمعدات وهيكسب من غير ما يعمل أي حاجة أكتر من ١٠٠ مليون جنيه، وطبعًا إللي زيّ ده ولا هيهمّه عُمّال ولا شركة ولا بلد ولا أي حاجة.

صمت الشاب ووجّه نظره صوب سعدي، محاولًا إستشفاف أيّة رد فعل منه تجاه كلامه، وما كان من سعدي إلا أن التفت له وعقَّب بهدوء:

- مفهوم.. مفهوم.. وبعدين؟

- طبعًا بابا حاول يقابل مسؤولين بس فشل لأن الناس إللي كان لها مصلحة وعمولة في موضوع زيّ كده منعوه بكل الطرق إنه يتواصل مع أي حد، وقتها ما لقاش حل غير إنه يرفع قضية، وهنا كانت بداية المأساة الحقيقية..

هنا نحّى سعدي ملف القضية جانبًا وبدأ ينصت بإهتمام للشاب والذي واصل روايته:

- بدأت الشوشرة عليه بشكل غير طبيعي، ومعاها بدأ الناس إياها ينشروا إشاعات إنه مش عاوز الصفقة دي تتمّ لغرض شخصي واستخدموا كل أدواتهم ورجالتهم للغرض ده.. الأكتر من كده إنهم بطريقة أو بأخرى زوّروا شوية أوراق وتسجيلات إن بابا كان متِّفق مع مشتري تاني هيسهله موضوع البيع نظير مقابل مادي كبير.. رشوة يعني.. وإنه بيعمل كل ده لإن التورتة إللي كان ناوي ياكلها لوحده ضاعت أو على الأقل خالص هتتقسم..

- كمل...

- الخطة اترسمت بدقة رهيبة، فعلًا زيّ شغل العصابات إللي بنشوفها في الأفلام، لدرجة إنهم استغلوا بعض التسجيلات التليفونية لبابا وبتكنولوجيا حديثة جدًا حرّفوا فيها كلمتين أو تلاتة مش أكتر علشان يبان إنه كان بيتّفق مع حد معيّن على الصفقة دي، مع إن الحقيقة إنه كان بيّتكلم على صفقة بيع منتجات للشركة وكمان اتفقوا مع مستثمر كبير يقول إن بابا عرض عليه نفس الصفقة ورفض لأن بابا طلب منه مبلغ كبير جدًا كرشوة لتسهيل عملية الخصخصة.. ده غير إنهم قالوا عليه، إنه مُختلس وحاجات تانية كتير، وطبعًا أُستبعَد من مكانه وواحد تاني اتعيَّن.. بعد شهر من إقالته إتقدم بلاغ للنائب العام في بابا وإللي بسببه اتحبس إحتياطي على ذمة القضية، وفلوسه كلها اتجمِّدت في البنوك.

بعد أن تركه قرابة النصف ساعة يسرد الأحداث تحدث إلى الشاب:

- إنت جايلي ليه؟

- سؤال غريب يا افندم.. أكيد علشان تترافع وتظهر براءته..

قال سعدي وهو عاقد حاجبيه ومُكفهِّر الوجه:

- تمام.. تمام..

بعد لحظات من الصمت جمعتهما.. تحدث الشاب مُجددًا:

- تمام إيه حضرتك؟!

- مع إن القضية صعبة وتفاصيلها محبوكة بدقة، إنما السيد الوالد بريئ وبريئ جدًا كمان.. وبكرّر نفس سؤالي تاني، إنت جايلي ليه بقى؟!!

- زي ما جاوبت حضرتك من ثواني.. علشان تظهر براءته.

- معنى إني بقولك إن الوالد بريئ، يعني ممكن أي محامي غيري يمسكها ويجيبله براءة وأكيد أتعابه هتبقى أخفّ مني.

- من غير حضرتك ما تقول، أنا فعلًا عملت كده ورُحت مش لمحامي واحد.. لا.. لخمس محامين وكلهم كان ردهم واحد: "إن قضية بابا خسرانة".

- ويا ترى قالولك خسرانة ليه؟

- للأسف، ما دخلوش معايا في تفاصيل، ولكنهم اعتذروا بشكل مُهذَّب، وكلهم تقريباَ قالوا مفيش عندنا استعداد نقبل قضية خسرانة.

بعد تنهيدة حملت الكثير من الأسى، سأل سعدي الشاب:

- تعرف المشكله فين؟ وليه كلهم قالولك كده؟

- يا ريت تقوللّي.. أنا محتاج أفهم.. أنا والله هتجنِّن خلاص.. حضرتك ما تعرفش بابا ده بالنسبالي إيه..

- باختصار وببساطة.. قضية باباك سياسية.

قاطعه الشاب مُسرعًا:

- بابا، ما كانش له في السياسة أبدًا ولا حتى كان بيحبها.

- ما أقصدش إللي فهمته.. سياسية بمعنى إن الوالد وقف قُدام ناس كبار وحاول يبيّن فشلهم وتواطؤهم بشكل أو بآخر، مش بس قُدام الناس والرأي العام، لا.. كمان قُدام الدواير السياسية الأكبر والأعلى وعلشان كده موقفه صعب لكن هو برئ طبعًا...

توقف سعدي عن الكلام لثانية ليتأكد من أن الشاب قد استوعب ما قيل له ثم استطرد:

- يعني وبشكل أبسط علشان باباك ياخد براءة في ناس تانية هتتسجن مكانه، والناس دول مش ناس قُلّيلة ولا بسيطة..

- يعني حضرتك تقصد إن المحامين إللي قالولي إن قضيته خسرانة خايفين يدخلوا في صراع مع ناس تقيلة؟

- مش بالظبط كده، إنما مش عاوزين دوشة ووجع دماغ، وكمان معظم الناس مش حابة تدخل في تحدي مع ناس ممكن يكونوا بالنسبالهم عقبة في يوم من الأيام.. لكن مش خوف بالمعنى إللي إنت فاهمه..

- يعني أفهم من كده إن حضرتك موافق تتولى القضية؟

- للأسف، أكيد مش موافق.

بعد دهشة أطاحت بصواب الشاب، سأله:

- ويا ترى برضو علشان حضرتك خايف من نفس الحكاية؟

- يا ريت كان هو ده السبب.
- أومال إيه بس؟ يا ريت حضرتك تفهمني أنا دماغي هتنفجر، والله إللي بيحصل ده حرام..

لحظات من الصمت قضاها سعدي عابثًا بسوالفه بيد وبالأخرى ناقرَا على مكتبه نقرات متتابعة ومنتظمة وكأنها إيقاع للحن هادئ، أجابه:

- هتكلم معاك بصراحة.. أنا مش هقبل القضية دي علشان ما بترافعش عن حد برئ...

إجابة سعدي كانت آخر ما توقع الشاب سماعُه..إجابته لم تكن صادمة فقط، إنما كانت كالسكين الحاد الذي اخترق قلبه فأصابه في مقتل أو كالصاعقة التي شطرته لنصفين وقضت على آخر أمل حاول إلتقاط أطرافه وبالكاد استطاع التحدث:

- يعني إيه يا أستاذ؟ لو القصة في أتعاب حضرتك..أنا هدفع إللي حضرتك عاوزه ولو هبيع هدومي..

سعدي مُتنهِّدًا:

- مش فكرة أتعاب، مع إني عارف إنك مش هتقدر عليها.. المشكلة زيّ ما قولتلك بالظبط باباك برئ وأنا مش بترافع عن مظلوم.

بالطبع كانت الإجابة غير منطقية لا للشاب وحده و إنما لعموم البشر، ولن يفهمها إلا سعدي وحده..

مع خيبة الأمل -وما أدراك ما خيبة الأمل- التي اعتلت وجه الشاب

فأظهرته كعجوز على فراش الإحتضار، وتزامُنًا مع تَذكُر سعدي لبداياته وكيف كانت حسرته وإحتضار الأمل بداخله - وما أسوأ من موت الأمل- وتذكره لوالده ومعاناته في الحياة وبعد شهيق أتبعه زفير طويل، التفت للشاب مُحدثًا إياه وهو يكتب بقلم على ورقة بيضاء قد انتزعها بأطراف أصابعه من مجموعة الأوراق التي اعتلت مكتبه:

- الورقة دي فيها اسم وعنوان محامي، هتروحله وهو هيقوم باللازم ويمكن أكتر.

- أكيد محامي من إياهم؟

- تقصد إيه؟

- أقصد محامي مُبتدِئ أو ضعيف أو...

سعدي مُقاطعًا:

- قبل ما تكمل.. المحامي ده محامي قديم وسمعته سابقاه وأحسن مني وبكتير كمان، ولعلمك هو إللي علِّمني الشغل.

- مش فاهم حاجة!

- مش مهم خالص تفهم.. المهم تنفذ وبسرعة.. تاخد العنوان وتروحله ومعاك ملف القضية، وأنا هكلمه على الموبايل علشان لما تروح يكون فاهم القصة بتدور حوالين إيه.

التقط الشاب الملف والورقة ولم يُزِد شيئًا لم يتفوّه حتى بكلمة واحدة، وخاصة بعد أن أوصد سعدي في وجهه كل منفذ لأي محاولة منه لإثناءه عن قراره، وكالغريق الذي تمثَّلت كل أحلامه في التشبّث بقشة،

ظنًّا منه بأنها السبيل للبقاء على قيد الحياة، استدار صوب الباب وخرج مسرعًا مُتَّجهًا للعنوان الذي كتبه له سعدي...

***

كان قرار سعدي منذ البداية.. منذ تلك اللحظة التي ابتاع فيها أول بزّة رسمية له في حياته بآخر ما يمتكله هو وإبتسام من نقود أن يكون من المحامين الذين يُشار إليهم بالبنان، ليس فقط من أجل المال والشهرة، إنما رغبة منه في تحقيق حلم دفين بداخله لا يعلمه إلا الله ثم هو.. ذلك الحلم الذي ظل يُخبر به أباه كل ليلة عندما يقف هامسًا إلى صورته قبل خلوده للنوم أو حتى أثناء زيارته له في المقابر.. لم يكن لأحد أن يُثنيه عن تحقيق ذلك الحلم، ومع إدراكه بأن قضايا الشرفاء ليست خطوة على طريق حلمه، فلم تكن ضمن أولوياته.. وخاصة أن رغبته كانت تقتضي عدم اقتران اسمه بقضية سهلة من وجهة نظره وإنما فَضَّل أن تُقتَرن شهرته بالمراوغة والمرور بين ثغرات القانون كاللاعب المحترف الذي يراوغ بالكرة كل مدافعي الفريق المنافس، ليس فقط لإحراز هدف والفوز، إنما لإمتاع الجماهير ونفسه قبلهم، كانت رغبته قوية في أن يسمع صيحات الجماهير وتصفيقهم له وتمايُلهم مع آدائه، أحب أن يرى لاعبي الفريق المنافس يتساقطون كالفراش المحترق واحدًا تلو الآخر بعد مروغته لهم.. كان الهدف ليس فقط تحقيق الإنتصار على مجموعة من مخالفي القانون، بل كان هدفه في تلك المرحلة هو الإنتصار على العدالة ذاتها أو بالأحرى الإنتقام منها..

العنوان الذي أعطاه سعدي للشاب كان عنوان مكتب جمال، وبعد عدة دقائق قضاها مُتذكراَ للمحات من الماضي الذي ليس ببعيد وبخاصة معاناة والده في الحياة ووفاته دون أن يُحقِّق أي شيء ملموس يحقق له سعادة دنيوية ولو يسيرة.. أمسك بهاتفه الخلوي عابثًا بشاشته بسبابته إلى أن عثر على رقم هاتف جمال واتصل به، وما أن رد، قال:

- جمال بك.. إزيك؟
- جمال بك حتة واحدة!!.. الدخلة دي مش مريّحاني يا سعدي باشا..

بعد ثوان قضياها في الضحك، أكمل جمال:

- مش هصدَّقك لو حلفتلي ميت "يمين حاسمة"* إن المكالمة دي لله وإنك بتسأل عليّا وعلى

أحوالي.

- أكيد مش هحلف.
- شفت.. قلبي ما بيكدبش عليّا أبدًا.
- بس أنا مش هحلف علشان جملتك فيها شقِّين..
- كمان شقين!!.. ها يا سيادة المحامي قوللّي قصدك..

---

* اليمين الحاسمة: هي تلك اليمين الذي يطلب الخصم توجيهت للخصم الآخر ليحسم بها النزاع في أي واقعة مُتنازع عليها.

- بصراحة إتصالي مش علشان أسأل عليك لإننا لسه متكلمين قريب، بس في نفس الوقت إتصالي لحاجة لله وأهو تكفَّر شوية عن ذنوبك.

- ههاههاي.. ماشي يا سيدنا.. إتفضل قول..

- هيجيلك شاب معاه قضية عادية جدًا والبراءة فيها مضمونة ومن أول جلسة.

قاطعه جمال مُسرعًا:

- طيب قول إن شاء الله..

- إن شاء الله طبعًا.. وما تاخدش منه فلوس.

عقَّب جمال ساخراَ:

- حد قالَّك إني غيّرت نشاطي لجمعية خيرية!!

- هههه.. ما حدش قاللّي.. أتعاب القضية دي عندي.

- ليه كل ده يا سعدي!!

- ما أنا قلتلك لله.. فاكر لما كنت بتقولّي "إللي ما فيهاش لله تخرب".

- ونعم بالله.. تؤمر يا أستاذنا ومش هسألك إنت ليه ما خدتش القضية دي مع إنه سؤال منطقي..

- تسلم جمال بك.

- هنتقابل قريب؟

- أكيد، إن شاء الله..

بالفعل ذهب الشاب بملف القضية لجمال والذي قَبِلها على الفور حتى قبل أن يقرأ سطر من سطورها،وهذا ما حمل الشاب على التفاؤل، خاصة وبعد أن نمى إلى علمه أن جمال يُعَد واحدًا من أحد المحامين الأكفاء وأيضًا لكونه كان مساعدًا لدكتور شلتوت الشهير لفترة طويلة من الزمن..

***



بعد يومين من لقاء الشاب بجمال..

التقى سعدي وجمال بأحد الكافيهات المتواضعة، حيث لم يكونا يشعران بالراحة الكاملة إلا بين البَسطاء، تلك الطبقة التي ذاقت الأمرّين من ويلات الحياة ولا تزال.. وبعد أن تناقشا في بعض المسائل العامة، تساءل جمال:

- إيه بقى حكاية الولد إللي بعتهولي؟

- مفيش حكاية يا أستاذنا.

وضع جمال يده على إحدى ركبتي سعدي رابتًا عليها برفق وقال:

- بُص بقى وقبل ما نكمل كلام.. بلاش الألقاب، إحنا بقينا أكتر من الإخوات وفعلًا يا سعدي مش هلاقي أخ زيّك، وخاصة زيّ ما أنت عارف أخوك بِطولُه في الدنيا ..

- موافق.. ومن غير ما تقول، إنت أكتر من أخويا وربنا يعلم..

- ربنا يديم المعروف..

- يا رب..

عاد جمال لجلسته الطبيعية على كرسي المقهى الخشبي القديم الطراز وأردف:

- إحكيلي بقى.. سامعك لحد ما تخلص.

- الولد حكايته توجع وأبوه بيروح قُدام عينه ومش عارف يعمل حاجة.

- ليه بتحكي الجزء إللي أنا عارفُه؟!!

- عاوز تعرف أنا ليه ما مسكتش القضية دي؟

- يا ريت، وخصوصًا إني متأكد إنك مش خايف لأنك أولاً مش جبان والأهم إنك بقيت واصل.

- (ساخرًا) حلوة واصل دي، عمومًا.. حاضر هقولك..

انخرطا في الحوار هامسين لمدة لا تقل عن النصف ساعة، علت خلالها وجه جمال علامات مُختلطة ما بين الدهشة والحزن والخوف، ثم سأله:

- سعدي، إنت متأكد من إللي قلتهولي دلوقتي؟!

- أكيد، وإلا ما كنتش قلته.

- يعني لا بتهزر ولا بتشتغلني؟

- أكيد لأ..

- مش عارف أقول إيه ولا أرد بإيه، آخر ما كنت أتوقعه إللي سمعته.

صمت جمال مُنتظرًا بلهفة لأي كلمة ينطق بها سعدي، ولما طال به الحال، استطرد:

- ممكن أطلب منك حاجة؟

- إتفضل..

- تفكر تاني؟ أو تقوللي إنك كنت بتهزر أو أي حاجة..

- أكيد ما كُنتش بهزر، فكرت وبقالي أكتر من خمس سنين بفكر..

- وإذا قولتلك إني خايف عليك..

- يبقى عندك حق طبعًا.

- مش عارف أقولك إيه.. وعارف إن دماغك ناشفة ومهما حاولت أخليك ترجع عن إللي في دماغك، مش هقدر..

- ده قرار يا (جيمي) وإتفاق بيني وبين الحاج..

- حاج مين؟!

- الحاج (عمر) الله يرحمه.. أبويا..

- يمكن الحاجة الوحيدة إللي أقدر أقولها.. خلّي بالك أوي أوي..

- لا تقلق يا أخويا.. وما تنساش أنا قلتلك على الكلام إللي ما حدش سمعه مني قبل كده.. يعني إللي قلته أكتر من سر.

- عارف.. وهو ده أصلاً كلام ممكن يتقال أو يتحكي؟

تنهّد سعدي تنهيدة طويلة،وقال:

- إعتبر إني ما قولتش أي حاجة..

أدخل سعدي يده بجيبه، مُلتقطًا ورقة مطوية، ناولها لجمال قائلًا:

- قبل ما أنسى خد الورقة دي.

- إيه دي؟

- دي مجموعة أفكار للقضية بتاعة الولد إياه..

- ملخص القضية تقصد؟

- لأ ده حلها، والنقط إللي هتبني عليها دفاعك.

التقط جمال الورق وقال مُبتسِمًا:

- مانيفستو يعني؟

- حاجة زيّ كده..

- مقبولة منك يا سيدي..

ثم استطرد جمال مُتهكمًا:

- مع إنها إهانة وكأنك مش واثق في قدراتي.. بس لو جت على خطة الدفاع سهلة، والقضية أصلًا سهلة، المشكلة إن القضية دي وراها وجع دماغ.

- ما أقصدش والله.. إنما زيّ ما قولتلك، القضية دي بتاعتي وإنت شايلها عني، وبعدين أنا مش عاوز أتعبك في التفكير مش أكتر.

- يا حبيبي، كنت بهزّر ومفيش فيها أي حاجة حتى لو كان قصدك تساعدني..

- بالنسبة لوجع الدماغ، لما فكرت فيك علشان تمسك القضية دي، علشان أولًا إنت فعلًا محتاج لقضية من النوع ده علشان تاخد مكان ولو صُغيّر على خريطة الكبار، وبالنسبة لوجع الدماغ.. لا تقلق، إنت معروف عنك إنك مُحايد وملكش أي عداوات مع حد بعينه، وقبولك للقضية عادي ومُبرّر جدًا لأي حد لإنك محتاج قضية تشغل الرأي العام علشان تاكل عيش وتتشهر..

- إنت شايف كده؟

- جدًا.. توكل إنت على الله وهو هيسهِّلها إن شاء الله، وكده كده أنا في ضهرك ما تقلقش..

- يااااه يا سعدي..

- خير؟!

- كان نفسي أوي من زمان أسمع من أي حد "أنا في ضهرك".. الجملة دي مُريحة أوي وجميلة أوي أوي.. كنت يئست إني أسمعها وخصوصًا إني حد عاش وكان هيموت من غير ضهر ولا سند ولا حد يطبطب عليه ساعة ضيق أو شدة..

- حبيبي يا جيمي إنت أخويا إللي الأيام ولدتهولي وإللي ربنا حطّهولي في طريقي من غير سعي مني ولا مجهود.. يلّا بينا، وما تنساش تحضَّر حالك لأن الجلسة كمان أربع أيام..

- حاضر.. توكلنا على الله..

ثم انصرف كل منهما في طريقه....

انصرفا وقد ذا ق جمال أخيراً حلاوة طعم السند والتي لا يعرف مذاقها الحقيقي إلا مَ ن قد عاش وحيدًا خائفًا من وعلى كل شيء. فكم تكون الأيام مقيتة ومؤلمة في ظل خوف من اليوم والغد وظل إحتمالية وقوعك ضحية غدر وفريسة لِمَن لا يرحم، وهُم كُثر.

مساء اليوم التالي لمحاكمة والد الشاب...

التقى الصديقان بمكانهما المُفضَّل -المقهى البسيط -وسط البسطاء كعادتهم..

استهلَّ سعدي الحديث:

- ألف مبروك يا ريس.
- الله يبارك فيك..
- بلَغني إنك عملت مرافعة تاريخية..
- مش أوي كده..
- مش ناوي تبطّل تواضع؟
- البركة في المانيفستو إللي إديتهولي..

سعدي ضاحكًا:

- هنبتدي البكش بقى!!.. إللي أعرفه إنك ما استخدمتش منه إلا حاجات بسيطة جدًا.
- بصراحة الولد صعب عليّا وحسيت فعلًا بالمعنى الحقيقي للظلم..
- عشان تصدقني لما اتصلت بيك وقولتلك إنه موضوع لله..
- عندك حق.. بس تصوّر يا سعدي أنا أول مرة أحسّ إني بترافع بجد.. القضية دي رجّعتني تاني لنفسي وفتحت نفسي للشغل من جديد..

- طيب تمام، عيش بقى يا صاحبي.

- والله مش عارف أشكرك إزاي.

- أنا إللي المفروض أشكرك.. إنت نسيت إنك اترافعت مكاني؟!.

- ربنا يديم المعروف..

زحزح جمال مقعده قليلًا للوراء واسترخى بظهره على خلفية المقعد ومدَّ قدميه متشابكتين للأمام وكأنه مُمدَّ د على سريره ثم تحدَّث بنبرة هادئة:

- تعرف.. إمبارح بس حسيت إني اتحرّرت فعليًا من المُعتقل إللي كنا شغالين فيه.. مركز شلتوت ده فعلًا زنزانة بس شيك شوية..

- عندك حق..

- بالمناسبة.. الشاب ابن الراجل هيعدِّي عليك بُكرة في مكتبك وطلب مني إني أستأذنك لإنه مُحرَج يتصل بيك..

- خير؟

- عاوز يشكرك..

- يتفضل طبعًا.. كفاية إنه جايبلي أخويا واسطة..

مع إبتسامة صافية، مال جمال بجذعه إلى أن لمس كتف سعدي وربّت عليه بشدة لعدة ثواني وهو يقول:

- مش عارف أقولك إيه..

- ما تقولش حاجة يا راجل يا طيب.. إنت ياما قولت بس إنت مش واخد بالك..

بعد أن انتهيا من حوارهما، انصرف كل منهما، ماضٍ في طريقه..

***

الحديث عن براءة الرجل ومدى براعة جمال في الدفاع عنه كان العنوان الرئيسي لأغلب المنتديات، وكذلك المحتوى الأساسي لغالبية البرامج الحوارية..

كانت تلك القضية، مثالًا عمليّا لإرادة الله عندما يريد أن يُكافئ شخص ما فيبعث له بشيء لا يخطر له ببال وإن بدا له في البداية مكروهًا لكنه يكون سببا في تغيير دفّة حياته ليعود بها للمسار الصحيح، بل والأفضل أيضًا.

كان طبيعي أن يرتفع عدد رواد مكتب جمال، ومع كل يوم يزداد فيه دَخلُه يزداد معه عرفانه بجميل سعدي والذي برغم صغر سنه، علّمه درس من أعظم الدروس..

كان الدرس هو أن مهارة القائد ليس فقط باختياره لأفضل المحاربين، لكن بإسناد الدور المناسب لكل منهم والموقع المُناسب لإمكانياتهم، وهذا ليس فقط للإستفادة من كل طاقتهم كأفراد ولكن لإكساب قوة للجيش بأكمله، فالحروب لا يفوز فيها الأفراد إنما الغلبة دائمًا ما تكون للفريق الذي وُظف جنوده حسب رؤية وبصيرة قائد لا يُحابي أحدًا حتى ذاته.. فكَان قراره حكيمًا بالتنحّي عن القضية وإسنادها (لجمال)..

مساء اليوم التالي...

ولج الشاب لمكتب سعدي، وما أن رآه جالس خلف مكتبه حتى هرع إليه مُعانقًا إياه بشدة حتى كادت ضلوع سعدي أن تختلط ببعضها البعض، ظل معانقًا له لفترة طويلة ومُقبلًا لرأسه إلى أن تحدث سعدي:

- إيه بس كل ده..!!

- ده أقل تعبير عن شُكري لحضرتك.

- طيب إتفضل اقعد..

جلس الشاب وتحدث:

- ألف شكر لحضرتك.. والله أنا حاسس إني اتولدت من جديد.

- أنا ما عملتش أي حاجة علشان تشكرني..

- أستاذ جمال قاللي إن حضرتك ساعدته في القضية، ده غير إن حضرتك إللي رشَّحتلي الأستاذ.. فعلًا كتَّر خيرك..

- إللي فعلًا يستاهل الشكر هو أستاذ جمال لإنه بذل مجهود غير طبيعي علشان يثبت براءة والدك..

- كتر خيركم إنتم الاتنين.. يا ريت الدنيا كلها زيّكم..

- مش أوي كده.. قول الحمد لله.

- الحمد لله .. على فكرة لولا مرض بابا بسبب فترة حبسه الطويلة وحالته النفسية السيئة جدًا، كان زمانه هنا معايا علشان يشكر

حضرتك بنفسه.

- معلش.. إن شاء الله يقوم بالسلامة..
- إن شاء الله.. عاوز أقول لحضرتك حاجة.. ممكن؟
- إتفضل..

تحدث الشاب على إستحياء قائلًا:

- أستاذ جمال قاللي إن حضرتك حاسبته على أتعاب القضية وأنا عاوز أدفعها.. مستورة الحمد لله..

لم يجد الشاب إجابة من سعدي، إنما برزت من بين فكّيه إبتسامة بعدما شرد بخياله باليوم الذي التقى فيه بجمال بعد اقتناصه البراءة للمتهم، وكيف أنه رفض أن يتقاضى أي مبلغ بل وأصر على موقفه، ذلك الإصرار الذي لا يسمح بنقاش أو جدال وقال له بعد إلحاحه "ابقى حطّهم باسمي في أي جامع.. مش كان إتفاقنا إنها لله" وبعد طول إنتظار، تساءل الشاب:

- حضرتك معايا؟
- آه.. أيوة،معاك.. معاك.
- ممكن أعرف الأتعاب كام؟
- إنسى خالص قصة الأتعاب دي.. إعتبر الموضوع هدية من أستاذ جمال ومني.
- كده كتير!!

- مش كتير ولا حاجة.. واضح إن والدك راجل طيب.

- والله مش عارف أقول إيه.. طيب ممكن طلب؟

- إتفضل.

- حضرتك ليك دين عندي ومعروف هشيلهم لحضرتك العمر كله.. ممكن لو إحتَجت أي حاجة من أي نوع تقوللي، وأنا تحت أمرك مهما كان إللي هتطلبه.

- الموضوع مش مستاهل كل ده.. الأتعاب حاجة بسيطة..

- الدين إللي أقصده مش أتعاب يا أستاذنا..

- أومال؟

- إنت عملت معايا إللي ما عرفتش تعمله أيام وليالي طويلة، إنت رجّعتلي ثقتي في الدنيا تاني.. خلّتني أصدق إن ممكن يكون لسه في حد بيساعد حد من غير مصلحة أو حتى مقابل، حَييت الأمل جوايا إن مهما كان حجم الظُلم، الحق لازم يظهر ولو طال بينا الوقت.. بإختصار يا أستاذ.. إنت عالجتني نفسيّا وده تمنُه عندي غالي أوي.. أوي..

بعد صمت أمضياه تأثُرًا بما قاله الشاب، سأله سعدي:

- إنت بتشتغل إيه؟

- أنا مهندس في مصنع بيصمِّم ويصنع الخزائن الحديد بأنواعها ومقاساتها كلها.. وأ نا المهندس المسئول عن التصميم وأحيانًا كمان

بشرف على التنفيذ بتاعها لما يكون الموضوع يستاهل.. لو حضرتك محتاج خزنة أنا تحت أمرك.. حاجات المصنع كويسة أوي.. وكمان بنديّ ضمان ١٠ سنين، وإعتبرها هدية مني..

- أكيد مش محتاج..

- ليه؟!

- لأن معنديش حاجة أخاف عليها علشان أشيلها جوه خزنة وما أفتكرش إنه هيبقى عندي إللي أخاف عليه أو منه.. عمومًا فرصة سعيدة يا باشمهندس وتحياتي للوالد..

نهض الشاب وقبل أن يصافح سعدي للذهاب، أعطاه بطاقة مُدَوَّن عليها اسمه ورقم هاتفه قائلًا:

- ده رقمي وزي ما اتفقنا أنا تحت أمرك في أي وقت.. أستأذن أنا..

ثم مضى...

***

بعد عام من بدء العمل بمكتبه الجديد..

تلقى سعدي إتصالًا هاتفيًا من أحمد الغرباوي طالبًا منه تحديد موعد على وجه السرعة وبالفعل تم تحديد الموعد.

الغرباوي واحد من كبار عملاء شلتوت واشترك سعدي في إدارة ومتابعة بعض المسائل القانونية المُتعلقة به أو بشركاته المتعددة..

هو أحد أشهر تجار الممنوعات ويتخد من شركاته المختلفة ستار من ناحية وماكينة لغسيل الأموال من ناحية أخرى.. بلغ من العمر الخامسة والأربعين وورث تلك التجارة عن والده، وبرغم علم كل الأجهزة سواء كانت الرقابية أو التنفيذية أو الأمنيّة بنشاطاته الغير مشروعة، لكنهم لم يستطيعوا يومًا إثبات أي علاقة له بالممنوعات ولو حتى بدليل واحد، فكان فائق الذكاء وداهية في التخفِّي وصاحب علاقات قوية من النوع الغير قابل للكسر أو الإختراق، لكن يبدو أنه اختلف مع أحد الكبار وخاصة لو كان من تجار الممنوعات، وبالتحالف مع آخرين استطاعوا أن يوقعوا به وتم القبض عليه مُتلبسًا في منزله بكمية ضخمة من المخدرات وقُدِّم للمحاكمة وتم الحُكم عليه بخمسة عشر عامًا من السجن المُشدَّد وكان محاميه هو شلتوت ذاته ولم يستطع أن يفعل شيء للرجل وتم الإفراج عنه بكفالة كبيرة لحين موعد الإستئناف.

في الموعد المحدد التقيا بمكتب سعدي وبدأ سعدي بالتحدث:

- والله زمان يا أحمد بك.. أنا اتشرفت النهاردة بالزيارة دي.

- حبيبي.. إنت كمان واحشني..

ألقى الغرباوي نظرة يمينًا ويسارًا، مُتأمِّلًا المكان من حوله، واستطرد:

- كنت متوقع إن مكتبك يكون أفخم بكتير من كده..

- مش مستاهلة يا باشا.. وبعدين كله بوقته..

- طيب يا أخي كنت قلِّدت مكتب شلتوت.

- مش بحب أقلد حد أيًّا كان..

عقَّب الغرباوي:

- وعلشان عارف ومتأكد إنك مش بتقلِّد حد، ولا حتى بتحب، أنا هنا دلوقتي..

- خير؟..إتفضل.. تحت أمرك.. سامعك..

- هدخل في الموضوع علشان وقتك ووقتي..

- يا ريت..

- طبعًا إنت عارف القصة..

- قريت عنها في الجرايد زيِّي أيّ حد.

وهو يناول سعدي ملف قد اكتنز عن آخره بالأوراق، أردف:

- ده ملف القضية وعاوزك تمسكها.. واضح إن شلتوت عجِز خلاص وما بقاش نافع..

- دكتور شلتوت أستاذنا كلنا.. وبعدين واضح إن الراجل عمل معاك شغل..

- مش فاهم..

- إنت قاعد قدامي أهو والمفروض إنك تكون على ذمة حبس إحتياطي دلوقتي..

- أهي دي الحاجة العدلة الوحيدة إللي عملها، وده آخره.. بالعافية خرجت بكفالة نص مليون تحت أسباب ظروف صحية..

- وإنت فعلًا تعبان؟!

- ههههه.. كلنا تعبانين يا سعدي..

الغرباوي.. مُقاطعًا:

- طيب.. يعني الراجل ظَبطك أهو..

- بقولك إيه.. بطّل بكش وخلينا في الموضوع.. مش وقت مُجاملات..

- قوللي حضرتك عاوز إيه؟

- عاوز براءة طبعًا..

- بس ال.....

الغرباوي.. مُقاطعًا مجددًا:

- مفيس بس ولا في وقت لها.. الجلسة بعد شهر من النهاردة.

- تمام، بس إني آخد قضية من شلتوت دي حاجة صعبة عليّا، وكمان هو مش هيّاخد الموضوع بسهولة وإنت عارف..

- عارف، بس دي حياتي وكل حاجة لها تمن.. أتعابك ٥ مليون

وسيب شلتوت عليّا..

- براحة عليّا شويّة.. أنا لسه محتاج أقرا القضية وأشوف الدنيا رايحة فين.

- إقرأ براحتك وإللي إنت عاوزه أنا جاهز بيه وله.. أنا عارف إنك قدَّها.

- تمام.. بس ليّا شرط..

- سامعك..

- شلتوت يفضل فاهم إنه ماسك القضية وتفضل تتعامل معاه كأنه هيكمِّل فيها، وبعد ما أقرا الملف وأقولك رأيي وإن شاء الله يكون خير، برضو ما يعرفش أي حاجة ولحد يوم الجلسة يفضل فاكر إنه هو إللي هيترافع.

- وإيه الفكرة من كده؟!

- شلتوت لو عرف إن في قضية كبيرة زيّ دي ضاعت منه مش هيسكت لا هو وإللي معاه، وخصوصًا لو عرف إنها راحت منه وجاتلي، وهيعتبرها إهانة لأنه بيعتبرني تلميذه وهيتحولوا لخصوم لك وليّا، والقصة واضح إنها صعبة ومش عاوزين حاجة تصعَّبها أكتر.. وعمومًا ده شرطي.

- موافق.. دايمًا بتعرف تغلبني بالمنطق.

- إتفقنا.. إديني ٧٢ ساعة هقرا الملف وأرد عليك.

- مستنيك.. وخلي بالك أنا وضعي فعلًا صعب وممنوع من السفر وعلى قوائم السفر والوصول وكمان حظر على فلوسي وأملاكي إللي عندهم علم بيها..

- إن شاء الله خير..

غادر الغرباوي المكتب، بعدها انكبّ سعدي على قراءة ملف القضية حتى أنه لم يغادر المكتب لمدة اقتربت من ٤٨ ساعة، فكان حدسه يخبره بأن هذه هي القضية التي انتظرها طويلًا والتي سوف تقوده لحلمه الأكبر، وكأن الله ساقها إليه لكي تضعه على أعتاب ذاك الحلم.. أيضًا في ذاك التوقيت لم يكن ليخشى أن يبدأ في التعامل مع عُملاء شلتوت الكبار، خاصة بعد أن ثبّت قواعد مكتبه بقوة في دنيا المحاماة وا ستطاع تكوين شبكة من العلاقات الجيدة التي من شأنها بث روح القوة في نفسه.

لم يغفل عن قراءة أدق التفاصيل ويُدَوِّن ملاحظات بعضها باللون الأزرق وأخرى باللون الأحمر إلى أن انتهى وعاد لمنزله، وبعد نوم يوم كامل عاود الإتصال بالغرباوي للإتفاق على لقاء بفيلته خارج حدود القاهرة، وتحديدًا على طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي؛ ليكونا بعيدًا عن أي محطٍ للأنظار..

ذهب سعدي في الميعاد المحدد وكان الغرباوي بإنتظاره وبادره بالسؤال بعد أن جلسا بحديقة الفيلا:

- طمّني.. إيه الأخبار؟

- الأخبار كويسة ومش كويسة..

- يعني؟!
- القصة صعبة أوي.
- يا ترى ده الجزء الكويس ولا السيء؟

بعد إبتسامة اعتلت وجه سعدي، رد:

- ده الجزء السيء
- طيب كويس.. ممكن أعرف الجزء الكويس؟

بعد انتظاره لإجابة من سعدي،عقد حاجبيهولم يجد، عاود الكلام بلهجة تشبَّعت بالتوتر:

- سعدي أنا محتاج أسمع أي خبر حلو.
- لا تقلق.. الحل موجود.
- بجد؟
- أكيد بجد بس ...
- بس إيه؟.. الله يلعن أبو كلمة بس دي..
- بُص يا أحمد بك أنا هحتاج مساعدة ومعلومات كتيرة منك.
- أكيد أي حاجة هتطلبها هوفَّرهالك مهما كانت.
- وحاجة كمان أهم من المساعدة في تحضير شوية أوراق أو مستندات أو استخدام علاقاتك بالناس بتوعك وحبايبك في أماكن مختلفة...

- إتفضل..

- ثقة.

- مش فاهم!!

- يعني الثقة فيّا وفي إللي هعمله بنسبة ١٠٠ في ١٠٠.

- فهِّمني أكتر..

- قضيتك مش عادية، وتقريبًا مصر كلها بتّابع أخبارها، وأعداءك كتير، والأهم إن أركان الإتهام في القضية تقريبًا مُكتملة، وعلشان كده طرق الدفاع العادية وبالأساليب التقليدية هتكون نتيجتها سلبية تمامًا..

تراجع الغرباوي في مقعده قليلًا وأشعل سيجارًا كوبيًا:

- كمِّل من فضلك.

- يعني علشان نعرف نطلّعك من القضية دي من غير ولا ساعة حبس مطلوب منك أربع حاجات..

- إللي هُم؟

- أولًا: توفَّرلي مجموعة عمل من عندك لأي مستند أحتاجه أو أي حاجة عاوز أعملها لأن القضية دي هتحتاج شغل كتير مننا كلنا. وثانيًا: إن شلتوت ما يعرفش إني شغّال في القضية زيّ ما اتفقنا، ومش شلتوت لوحده، أنا مش عاوز أي حد يعرف مهما كان صفته إن القضية دي معايا، حتى لو أخوك شخصيًا.

- إعتبره حصل، والحاجة التالتة؟

- إن من دلوقتي ولحد بكرة الصبح هتجيب ورقة وقلم وتكتب فيها كل أسماء قرايبك، سواء قرايب من بعيد أو من قريب ومتجوزين من مين، ولو تعرف حد من إصحابهم أو جيرانهم وكلهم بيشتغلوا إيه وفين.. حاول أي حاجة تفتكرها عن أي حد حتى لو كانت صغيرة اكتبها.. وكمان كل ورقة عندك عاوزها حتى لو إنت شايفها ملهاش أي قيمة.. طبعًا أقصد ورق يخص القضية أو وقت القضية..

- مش فاهم..

- يعني لو اشتريت حاجة قبل القبض عليك أو بعده ومعاك الإيصال..عاوزُه.. تذكرة قطر مثلًا.. أي حاجة وكل حاجة..

- تمام.. فهمتك.. ورابع طلب؟

- إنك مش هتعرف كلمة واحدة من دفاعي عنك لحد يوم الجلسة..

هبّ الغرباوي واقفًا وراكلًا المنضدة بإحدى قدميه، وصاح مُنفعلًا:

- يعني إيه معرفش.. هو سر!! ده أنا المتهم يا سعدي..

- ممكن تهدى شوية..

بعصبية بلغت مداها ومشوِّحًا بكلتا يديه، رد الغرباوي:

- أهدى إيه بس؟!! إنت مش واخد بالك إنت بتقول إيه!!

- واخد بالي، وعلشان كده طلبت منك في الأول إن لازم تكون ثقتك فيّا لأبعد الحدود.

- واثق يا أخي وإلا ما كنتش جتلك أصلًا، بس مش لدرجة إنك ما تطمنيش وتفهني هتعمل إيه.. أنا من النهاردة ولحد يوم الجلسة هكون مُت من القلق والتوتر..

قاطعه سعدي بعد أن وقف هو الآخر جاذبًا إياه ليَجلِسه حيث كان، وأعاد وضع المنضدة مرة أخرى وجلس مجدداً هو الآخر ثم تحدث بلهجة هادئة:

- صدقني كده كده الحكم هيّتأيِّد، فكده كده دفاع شلتوت أو غيره هيسجنك برضو، ومفيش قُدامك غير إنك تحاول تفكر في كلامي، وخد بالك من حاجة مهمة...

- فهِّمني بس إيه الفكرة.. خايف مثلاً أكون هاخد أفكارك وأخلّي محامي تاني هو يمسك القضية؟ أو أخلي شلتوت يكمل؟..

- لأ خالص..

- أومال؟

- دي طريقتي في الشغل معاك أو مع غيرك.. وخليك فاهم كويس لإن براءتك تهمِني زيّ ما تهمّك بالظبط، لأني مش هخسر سمعتي كمحامي وأخسر قضية..

سعدي كان يؤمن بأن إنتظار السجن أشد تأثيرًا من السجن نفسه وما يسببه من توتر قد يصل لدرجة الجنون، وعذابه النفسي قد يصل

بصاحبه لحد الإكتئاب، وهذا ما ابتغاه سعدي تحديدًا؛ أن يُذيقه عذابًا وخاصة أنه كان على علم بأنه سينجو من عقوبة السجن..

بعد فترة طويلة من الصمت رد الغراوي:

- موافق.. للأسف مضطر أوافق..

- وفي تغيير بسيط في إتفاقنا.. إنك هتعلن ليلة جلسة الإستئناف إني هترافع في قضيتك وهتتصل بشلتوت في نفس الليلة تعتذر منه إنه يكمل في القضية.

- وطبعًا مش هتفهِّمني ليه...

- ما أفتكرش إنها هتفرق معاك.

- عندك حق، ما جتش على دي علشان أفهمها.. إتفقنا يا سعدي.

ظهرت علامات الإرتياح على سعدي بعد موافقة الغرباوي على كافة شروطه، ثم استطرد:

- حاجة أخيرة علشان إتفاقنا يكمل..

- إيه تاني؟!!

- بالنسبة للأتعاب..

- مالها!!.. أنا عند كلمتي، أتعابك خمسة مليون.

- وأنا مش عاوز خمسة مليون..

- عاوز أكتر؟!

- أحمد بك.. أنا لو طلبت ثروتك كلها أتعاب، المفروض توافق.. إنما أنا عاوز حاجة تانية..

- خير؟!

- أتعابي اتنين مليون وكيلو هيروين، وحاجة كمان..

ضرب الغرباوي بيد على يده الأخرى إندهاشًا لما يسمتع إليه، قال:

- إنت ما بقتش طبيعي يا سعدي.. بقيت غول كبير.. كمان كام شهر وهتبقى حوت من الحيتان الكبيرة إللي مش بس ما حدش يقدر يصطاده.. لا.. من إللي ما حدش حتى يقدر أو دماغه تجيبه إنه يقرب منها.. ممكن أفهم بقى ليه الطلب الأغرب من الخيال ده..؟

- يا أحمد بيه.. الفلوس الكاش مهمة طبعًا، إنما مش مضمونة وقيمتها ممكن تقل في أي وقت سواء بتعويم أو شوية لعب في البورصة أو نشر شوية إشاعات زي حروب أو غيره، إنما الهيروين لا له دعوة ببورصة أو خلافات بين دول، وسعره كل يوم بيزيد.. تقدر تقول زي الدهب كده..

واستطرد مُتهكِّمًا:

- زي طابع البوستة..

عقب الغرباوي:

- يبقى كان العقل إنك تطلب دهب أو دولارات..؟

- الدولارات نفس القصة، بتطلع وتنزل، والأهم إني عاوز حاجةما حدش يعرف عنها حاجة والدولارات لازم أشيلها في بنك لأنه مستحيل أخبّيها في البيت مثلًا، و الدهب شكله معروف لأيّ حد وسرقته سهلة ومُغري طبعًا ده غير إنه مشكلة في تخزينه.. إنما بقى كيلو الهيروين مجرد كيس صغير كأنَّه كيس دقيق، يعني لو حطِّيته في المطبخ محدش هيعرف ده إيه.. ده غير إنه بلوة ومصيبة للِّي يسرقه، إلا إذا....

- إلا إذا إيه؟!

- تاجر مخدرات هو إللي سرقني..

انفجر الغرباوي ضاحكًا، ثم قال:

- يخربيت دماغك، أنا حاسس إني بكلم شيطان مش بني آدم..

- يا افندم من عاشر القوم...

بعد عاصفة من الضحكات هبّت على كليهما، قال الغرباوي:

- واضح إنك اتجننت خلاص..

- ما تشغلش بالك بقوايا العقلية.. خلينا في الحاجة التالتة..

- قول...

- هحتاج حد من رجالتك إللي مُستعدّين يشيلوا قضايا..

- ليه؟

- أحمد بك.. ليه دي بتاعتي، وعلشان أريّحك.. إللي زيّ دول مفيدين جدًا ليّا علشان لو عاوز أ فدي بيه حد من التُقال.

- إمتى؟

- الطلب ده هيفضل دين عليك لحد ما أحدِّد الوقت المناسب إللي هحتاج فيه الراجل..

- قبل ما أوافق.. القضية تُوبها كام؟

- تقصد إيه؟

- يعني الراجل هيتسجن أد إيه؟

- بالكتير ٣ سنين... ويكون نضيف..

- بمعنى؟

- ما يكونش سوابق ولا حبسجي وشكله يكون ابن ناس..

- مش عاوزه كمان يكون لون عينيه أزرق؟!!

انفجرا ضاحكين ثم استطرد الغرباوي:

- طلبك موجود يا سيدي.. موافق...

ثم انطلق سعدي بعد اللقاء مباشرة...

***

ابتداءَا من اليوم التالي للقاء سعدي بالغرباوي، بدأ سعدي بالعمل على القضية بكل ما أوتي من طاقة، فعقد جلسات مُكثَّفة مع طاقم العمل الخاص بالغرباوي يوميّا ولمدة أسبوعين كاملين حتى أنجز جميع المستندات التي أرادها وأعد العُدَّة لجسلة الإستئناف.

نفَّذ الغرباوي كامل الإتفاق من حيث سرية الأمر ثم إعلانه ليلة الجلسة عبر موقعه الإلكتروني وجميع حساباته على مواقع التواصل الاجتماعي بأن سعدي نحلة هو مَن سيتولَّى الدفاع عنه غدًا.. مع الإعلان عن ذلك، تدفَّقت شلالات آراء وتعليقات المتابعين، فائضةً بكل التوقعات والتي ذهب أغلبها ببراءة الغرباوي المؤكدة على يد سعدي، لما هو معروف عنه من دهاء وامتلاكه الجيد لأدوات مهنته، وما أكد يقين المتابعين للأخبار هو إستحالة تضحية سعدي أو مُغامرتِه بإنجازاته السابقة وتولِّيه الدفاع في قضية يعلم مسبقًا بخسارتها..

وبرغم يقين سعدي بأن الغرباوي هو بالفعل أحد أباطرة المخدرات، مع ذلك كان يعلم بأن هذه القضية مُلفَّقة لتصفية حسابات ما..

تزامن ذلك مع إتصال شلتوت بسعدي، مُبديًا إستياؤه ممّا حدث، لكن سعدي أخبره بدهاء بأنه لم يقبل القضية إلا بعد أن أكد له الغرباوي تنحِّيه عن الدفاع، وأنه لو كان على علم بتلاعُب الغرباوي لرفض الفكرة قلبًا وقالبًا، محاولًا بشتَّى الطرق تجنُّب غضب شلتوت على الأقل حتى جلسة الغد....

***

يوم جلسة إستئناف أحمد الغرباوي.. الثامنة والنصف صباحًا...

وصل سعدي إلى القاعة المُزمَع النظر فيها في دعوى الإستئناف قبل بدء الجلسة بساعة كاملة -كعادته دائمًا- ..امتلأت القاعة عن آخرها بالحضور من مختلف الأطياف، فكان هناك محامين شاءوا أن يشاهدوا ويستمعوا لما سيحدث، ومنهم من أتباع وأقارب المتهم وهُم كُثر أتوا لمؤازرته، كذلك الكثير من رجالات وسائل الإعلام ومراسلي الأخبار المختلفة المصرية والأجنبية أيضًا.. لم يكن هناك موطئ لقدم، فالكثير قد احتشد لا ليعرفوا ماذا سيكون مصير الغرباوي إنما ليشاهدوا ذلك الشاب الذي أصبح مثار إهتمام وجدل الكثيرين.

المتهم أيضًا كان موضع إهتمام للعديد، فالقائمون على العدالة أرادوا الإيقاع به لأنه بمثابة طرف الخيط الذي سيقودهم للمزيد من المجرمين ورؤوس العصابات، وعلى الجانب الآخر هناك مَن أراد تبرئته لأنهم يعلمون أنه فقط البداية وهم سيكونون خَلَفًا له.

كانت كل الدلالات تشير إلى ثبوت التهمة، وخاصة أن المتهم قد حُكِم عليه إبتدائيًا بالحبس المُشدّد برغم إستعانته مسبقًا بأمهر المحامين وأذيّعهم صيتًا..

لم يكن هناك ما يُدهش رجال العدالة إلا تواجد سعدي في المشهد، وخاصة أن تولِّيه الدفاع عن المتهم ظل سرًا حتى ليلة المحاكمة، وكان الكل يعلم بأن أحد المشاهير القدامى هو مَن سيتولى القضية وبالطبع كل هذا كان بتخطيط من سعدي لعلمه بأن ظهوره في المشهد

سيسبب توتراَ للبعض والذين فضَّل أن يتحاشاهم ويتحاشى الضغوط التى قد يمارسونها عليه..

بمجرد أن رآه حاجب الجلسة، تقدّم نحوه مُسرعًا، وهمس في أذنه:

- هيئة المحكمة عاوزة حضرتك في قاعة المداولات..

لم يتعجّب سعدي من هذا المطلب، وخاصة بأنه كان يتوقعه بشكل أو بآخر، ومضى خلف الحاجب إلى أن دخل الغرفة المغلقة والمُلحقة بالقاعة الرئيسية.. خاصة وأنه إجراء يُتَبَع أحيانًا..

وجد بالداخل كل القضاة المُخَوّل إليهم البتّ في الدعوى، وكذلك مّمثل الإدعاء وسكرتير الجلسة..

أشار له رئيس المحكمة بالجلوس.. جلس مواجهًا له مباشرة على الطاولة المستديرة وعلى يمينه ويساره باقي أعضاء هيئة المحكمة.

بعد رشفة من قدح قهوة، نظر القاضي لسعدي نظرة عميقة محدثًا إياه:

- ناوي على إيه يا سعدي..؟

- تقصد إيه معالي المستشار؟

بعد أن أشعل سيجارة وارتشف رشفة أخرى:

- مستغرب إنك جاي تترافع في قضية زيّ دي.

- ليه سعادتك؟

- على حد علمي إنك بقيت اسم كبير في المحاماة ولما حد بيكبر

مش بيقبل قضية كل الشواهد فيها بتقول إنها خسرانة..

- سعادتك بتقول شواهد.

- طبعًا، شواهد لأن لسه في مرافعة ومداولة والمتهم برئ حتى تثبت إدانته.

- تمام سعادة الريس، وطالما إننا بنتكلم لحد اللحظة دي في شواهد، يبقى لسه في أمل.. علشان كده أنا موجود.

- عاوز أسألك سؤال..

- إتفضل معالي المستشار..

- إحنا ليه هنا؟ أقصد في المحمكة؟

- أعتقد علشان القضية بتاعة النهاردة.

ضغط القاضي على عويناته ضغطة بسيطة ليَعيد تثبيتها على وجهه بشكل أكثر أريحية وأردف:

- إنت فاهمني كويس يا أستاذ سعدي وهجاوب عنك.. كلنا موجودين النهاردة وإمبارح وبكرة علشان نحقَّق العدل ونحمي الناس من خطر ممكن يئذيهم.. صح؟

- أكيد.. أكيد صح ومفيش أدنى شك في كده.

- يعني إحنا هنا شغلتنا إننا نحمي الشعب يا أستاذ.. نحميه إننا ناخد له حقه من المجرمين ونجيبله حقه لو اتظلم..

- معاليك معاك كل الحق.

- يعني أفتكر إن مفيش حد فينا ممكن ينصر ظالم أو يحمي مجرم..

- طبعًا سعادة المستشار، بس إسمحلي أسأل حضرتك سؤال..

- خير؟

- في آلاف جوه السجون وملايين بره.. تفتكر سعادتك كل المساجين مجرمين؟ والسؤال الأهم، الملايين إللي بره كلهم ملايكة؟

بعد لحظة صمت إنتظر خلالها إجابة ولم يجد لم يكن بحاجة للإجابة بينما كان في أشد الإحتياج للسؤال، فاستطرد:

- سعادة الريس.. عندك حق تمامًا إننا كلنا جايين نحقق العدالة أو بمعنى أدق نوصل لأقرب حد من حدود العدالة.. لأن العدل الكامل هو الله ومن الله.. بس تفتكر سعادتك العدالة بتحقق جوه المحكمة بس؟!.. إيه رأي هيئة المحكمة الموقرة في الواسطة مثلًا وإللي بتظلم آلاف مؤلَّفة ومن غير جريمة يُعاقب عليها القانون.. أحب أعرف رأي القانون في مجموعة من الناس بعلاقتها بتقدر تاخد أي حاجة وكل حاجة وملايين لمجرد إنهم ناس عادية بسيطة ما بيقدروش حتى ياخدوا أبسط حق من حقوقهم..

تزامن تركه لمقعده وتراجعه للخلف عدة خطوات بعدها وقف مستندًا براحة يديه على ذات المقعد الذي كان يجلس عليه مع إعتدال القاضي على كرسيه حتى أراح ظهره بالكامل على خلفية

المقعد وتبعه الجميع..

بدا سعدي وكأنه يترافع عن الشعب بأكمله.. ابتلع ريقه ومع نظرة شملت الجميع، أكمل:

- عندي سؤال متواضع.. قانون العمل على سبيل المثال لا الحصر، قانون عظيم طبعًا ولا خلاف على ذلك، ومتأكد إن مواد القانون ومتانتها وقوتها في حفظ حق العامل مش موجودة حتى في البلاد المُتقدمة عننا، هل فعلًا بيتطبق؟!.. يعني لو موظف غلبان بيجري على عياله علشان يعلمهم ويأكّلهم ويعالجهم بس ومش بيحلم بأكتر من كده، مش علشان يصيّفوا في الساحل ولا يركبوا عربيات ولا يمسكوا أحدث موبايلات ولا حتى علشان كل شهر يشتريلهم هدوم جديدة.. الموظف ده لو وقع عليه ظلم من صاحب العمل أو مدير له أو حتى موظف زميله، شوف حضرتك لو احتكم لقانون العمل..

القاضي مُقاطعًا:

- هياخد حقه طبعًا وإنت عارف كده.

- ما عنديش شك.. بس بعد أد إيه؟.. شهور ويمكن سنين، يكون الغلبان ده اتداين وولاده اتشردوا ويمكن يكون مات فعليًا من الإكتئاب والإحباط إللي جاله.. ولو كانت المؤامرة محبوكة عليه كويس زيّ ما بنشوف كتير، يمكن ما يوصلش لحقه خالص.. ده غير أتعاب المحامي إللي هيمسك له القضية إللي ممكن تقعد شهور في المحاكم.. دي عدالة سعادة الريس!!.. مثال تاني والأمثلة

كتير للأسف.. لو مواطن عادي وممكن يكون دكتور أو حتى عالم ذرة حاول يدخل قسم بوليس علشان ياخد حقه، تفتكر معاليك إنه هيتعامل نفس معاملة الناس إللي كلنا عارفينهم؟..

خيّم الصمت على كل مَن بالغرفة، بينما استطرد هو:

- العدالة يا ريس أسلوب حياة.. مش بس مرافعة في محكمة، وللأسف معظم الناس أصبح عندها شك في مفهوم العدالة حتى في أبسط الحاجات زيّ دور في طابور عيش أو مؤسسة حكومية كأبسط مثال، والقلق من حد يتجاوز الطابور كله علشان يعرف الموظف أو علشان هو مش من الناس إللي ما ينفعش تستنّى.. إحنا محتاجين يا سعادة الريس تعريف جديد للعدل ومفهوم حديث للعدالة علشان نحسّ بالأمان.. علشان إحساس الخوف إللي جوّانا يختفي.. علشان نظرية المؤامرة إللي مسيطرة على كل واحد فينا تنتهي..

الكل كان مُنصتًا.. مُترقِّبًا.. مُندهشًا من تَحوّل دفّة الحوار لهذا المسار ولذ اك المَنحى الذي لم يتوقعه القضاة ولا حتى هو.

الجميع تَوَلَّد لديه الشعور بأن هذه ربما تكون الجلسة الحقيقية وليست التي سوف تنعقد بعد قليل.. كأنه أصاب الجميع حالة من الشلل المؤقت، فكانوا لا يُحركون ساكنًا وإنما كانوا مُحدقين النظر في سعدي، الذي استطرد:

- سعادة الريس ومع كامل الإحترام.. في سؤال مهم أوي حابب إني أسأله.. ليه كل مسئول كبير أو موظف مهم بيبقى كل همه

يحافظ على مكانته ووضعه؟

لم ينتظر إجابة وكأنه فقط يحاول إيصال رسالة، استطرد:

- إسمحلي إني أجاوب.. ناس كتير ممكن تفتكر إن السبب إنه بيّتكسب من خلال وظيفته أو منصبه بشكل أو بآخر أو بيستخدم علاقاته في تسهيل حاجات حتى لو بسيطة.. وده وارد طبعًا مع إني أظن إن أغلب الناس دول فعلًا محترمين وكمان شرفاء بس السبب الرئيسي يا افندم هو خوفه إنه يكون إنسان عادي...

وهنا ارتفعت نبرة صوته:

- سعادة الريس.. كونك مواطن عادي أصبح تهمة.. جريمة يا ريس.. جريمة بتتعاقب عليها كل يوم ومش عارف ليه.. جريمة من غير أركان ولا شهود.. جريمة فيها المجني عليه مالوش أي ذنب غير إنه إنسان عادي.. مجرد كون أي حد انسان عادي بيدي أيّ حد الحق انه يدوس عليه من غير رحمة أو شفقة.. علشان كده كل الناس عاوزة ضهر علشان تتطمن.. علشان يرجع دفا الحضن بتاع زمان.. علشان يناموا مطمنين.

قاطعه القاضي بهدوء:

- إهدى بس يا سعدي.. تشرب حاجة؟

- أنا كويس يا سعادة الريس.

وبحنكة حكيم أراد أن يُنهي الحديث، قال القاضي وهو يشير بيده

للباب الفاصل بين غرفة المداولات والقاعة الرئيسية للجلسات القضائية:

- طيب إتفضل دلوقتي وحاول تشرب حاجة وربع ساعة ونبتدي الجلسة.

مُمسكًا بملف الدعوى، انطلق سعدي خارج الغرفة تاركًا خلفه القضاة في سكون شديد ودهشة أشدّ.

***



بعد ربع ساعة...

علا صوت حاجب الجلسة تزامُنًا مع دخول القضاة القاعة:

- محكمة...

فانتفض الكل...

بعد أن اتخذ كل عضو من أعضاء هيئة المحكمة وضعه على المنصة، كالعادة بدأ مُمثِّل الإدّعاء بإلقاء كلمته، ثم أعطت هيئة المحكمة الإذن لمحامي الدفاع أن يبدأ مرافعته.

تقدَّم سعدي للمنصة المخصصة لمحامي الدفاع.. تقدمه كان ببطء شديد وثبات أشدّ وأقوى.. كان مُتأنِّقًا لدرجة لفتت إنتباه كل الحضور وكأنه يوم عُرسه، وخاصة روب المحاماة وبريقه وتصميمه وجودة الخامة التي صُنِعَ منها ونُقِشَ على جانب الصدر الأيمن علم مصر بأزهى ألوانه.. وضع مستنداته على تلك المنصة الصغيرة ونظر للقاضي وأتبعها بنظرة شملت هيئة المحكمة بالكامل وهو يقول:

- "سعدي عمر نحلة المحامي حاضر مع المتهم"

كان المشهد مهيبَا بحق.. ابتداءَا من مجموعة القضاة وتلك الهيبة العظيمة التي تفوح منهم وتبثّ روح الرهبة بالجميع ومروراً بالقفص الذي حُبس به الغرباوي وانتهاءَا بميزان العدالة المنقوش خلف منصة القضاة..

السكون كان هو البطل الأوحد والترقُّب والتوتر خَيّم على الحضور إلى أن تنحنح القاضي ثم قال:

- إتفضل يا أستاذ قول مرافعتك، ولو سمحت من غير إطالة أو الدخول في أمور فرعية مالهاش علاقة بالدعوى..

- تمام سعادة الريس..

بعد القائه للديباجة الإفتتاحية الشهيرة بصوت جهير، بدأ مرافعته:

- "إسمحولي في البداية ألخَّص سريعًا مجموعة من الأحداث.. أحمد الغرباوي رجل أعمال والمعروف عنه أنه واحد من أكبر المستثمرين في مصر.. المتهم سافر أوكرانيا للتعاقد على صفقة إحلال وتجديد لواحد من أكبر مصانعه إللي بيمتلكها.. المتهم رجع لمصر بعد ١٢ يوم، وبعدها بيومين تم القبض عليه بمنزله وتم ضبط اتنين كيلو من مخدر الهيروين حسب تقرير المعامل الكميائية للطب الشرعي.."

"سعادة الريس.. أولًا.. طبقًا لحكم محكمة النقض ٢٩ أكتوبر لسنة ٦٢ رقم ١٦٧ أنه يجب أن يتوفر الدليل القاطع بالقصد الجنائي لدى المتهم سواء كان بالإتجار أو بالتعاطي لكي يكون دليلًا كافيَا على إدانة المتهم.. بمعنى آخر إن مجرد الحيازة للمخدرات ليست دليلًا كاملًا على الإتجار فيها.

وطبعًا مفيش أي حاجة عندنا بتقول إن المتهم كان ناوي يتاجر أو هو تاجر مخدرات أصلًا، وفي حافظة المستندات إللي قُدَّام سيادتك ما يفيد خلوّ السجل الجنائي للمتهم من أيّ تُهم سابقة..

ثانيَا.. التحريات إللي أجراها ضابط الواقعة بتقول إن من خلال مصادر سرية حصل على معلومات تفيد بأن المتهم جلب معه من

الخارج كمية من مخدر الهيروين بقصد الإتجار، وبناء على التحريات إللي أجراها وإللي أكِّدت كلام مصادره السرية -على حد زعمه- قام بإستصدار إذن النيابة..

سعادتك.. الظابط أخد قوة من ١٢ فرد، وبالرغم من كده إللي دخل فعلًا لمنزل المتهم الضابط نفسه ومعاه اتنين فقط وقال إن بقية القوة المرافقة قام بتوزيعها حول منزل المتهم لتأمين جميع المداخل والمخارج.. كمان الظابط قال في أقواله أنه لم يتم تحريز أي أموال وتم تحريز عدد اتنين كيلو من مسحوق أبيض اللون يشتبه بأنه هيروين.. الهيروين كان في شنطة سفر من الحجم الصغير حمولة ٧ كيلو وإللي بالمناسبة مسموح بحملها لداخل الطائرة.. الشنطة كان مكان تواجدها وسط مجموعة أخرى من الشنط في غرفة مُلحقَة بغرفة الضيوف وده برضه على حسب كلام ظابط الواقعة.."

"القانون رقم ١٨٢ لسنة ٦٠ وتحديدًا المادة ٤٨٣ بتقول إذا كان وزن المخدرات المضبوطة أكتر من ١٠ جرام فيؤخذ منها عينة لا تتجاوز ١٠ جرام والباقي بيتسلِّم لإدارة مكافحة المخدرات للتحفُّظ عليها، وهنا في نقطة مهمة جدًا إن الحرز لازم يكون مكوّن من عينتين، كل عينة ١٠ جرام لكل ضبطية موجودة وقت التفتيش، وفي حالتنا دي علشان الظبط تم ضبط عدد ٢ كيس فكان لازم يحرز ٤ عينات وده ما حصلش لأن على حسب تقرير معامل الطب الشرعي إن عينيتن فقط اتبعتوا للتحليل.. وهنا نسأل سؤال مهم: ليه الظابط ما حرّزش أربع عينات؟.. والعينتين إللي حرزهم يا ترى من كيس واحد ولّا من الاتنين؟ ولو من كيس واحد ايه يخلينا متأكدين إن الكيس التاني ما

يكونش كيس سكر أو دقيق مثلًا.. وخاصة إن الحكم له إرتباط وثيق بالكمية المضبوطة.."

"ثالثًا.. زيّ ما هيئة المحكمة الموقرة عارفة إن الهيروين هو مجموعة من المكونات الكميائية الكتير والتي بتختلف في كتير من الأحيان حسب طريقة ومكان تصنيعه وسعره.. هنا في نقطة شديدة الأهمية يجب الإشارة اليها وهي إنه علشان نقول كلمة مخدر هيروين لازم يكون فيه على الأقل مادة كميائية اسمها داي اسيتيل مورفين ٣٦ وبنسبة لا تقل عن ٢٠% .. غير كده يبقى لا يندرج تحت مسمى الهيروين المعروف لنا كمخدر.. تقرير الطب الشرعي أكّد إنه مسحوق هيرويين وده معناه إن العينة إللي راحت للمعمل كانت نسبة المادة دي فيها زي الكتاب ما بيقول.."

صمت لبرهه لابتلاع ريقه واستنشاق نفسًا عميقًا..

كان الإنصات من الجميع مُذهلًا.. لا وجود لحركة ولا همسة وكأنك أمام مشهد من أحد الفيديوهات توقف تلقائيًا عدا سعدي.. كان كالفارس الذي امتطى فرسه بإحتراف وأخذ يصول به ويجول..

استطرد وهو يدنو من منصة القضاة :

"من عشرين يوم قدمنا طلب للنيابة العامة بالسماح بإجراء تحليل لعينة أخرى مع الإفادة عن نسبة المادة المذكورة على وجه التحديد.. النيابة مشكورة وافقت.. واسمحلي أقدم لسعادتك التقرير بنتيجة التحليل"

قالها وهو يضع التقرير أمام القاضي..

ثم أردف:

"رابعًا.. تم تقديم طلب للنيابة العامة برضه من عشرين يوم بالسماح برفع البصمات عن الأكياس المضبوطة ومضاهاتها ببصمات المتهم وده سعادتك تقرير بالنتايج.."

بعد أن وضعه أمام القاضي بجانب التقرير السابق، عاد لموقعه خلف منصة الدفاع واستطرد:

"خامسًا.. حافظة المستندات فيها إفادة رسمية من الطيران المدني وإن المتهم لما وصل القاهرة ما كانش معاه غير أربع شنط وأقل واحدة وزنها ٢٢ كيلو جرام وده بناءًا على مخاطبة رسمية تمِّت مع شركة الطيران إللي سافر عليها المتهم.. وما كانش معاه أي حقيبة وزنها ٧ كيلو.."

"سادسًا.. أقوال المتهم والثابتة بالمحضر الرسمي إن مداهمة المنزل تمِّت بعد مغادرة تلاتة من زواره إللي كانوا بيطّمنوا عليه بعد رجوعه من السفر بحوالي ربع ساعة، وبسؤال التلاتة دول أكِّدوا نفس الكلام.. واحد من التلاتة دول يا سعادة الريس هو أحمد ضرغام إللي هو ابن ومدير أعمال رفيق ضرغام رجل الأعمال المعروف..

وضمن حافظة المستندات ما يفيد بأن هناك دعوى قضائية من موكلي ضد رفيق ضرغام خاصة بسرقة إحدى العلامات التجارية المسجلة رسمياً باسم موكلي والدعوى دي ما زالت قائمة بالفعل.."

نظر القاضي نظرة خاطفة لقاضي اليمين ثم اليسار وسأل:

- إيه النتيجة النهائية لكل كلامك ومستنداتك؟

بعد استنساق نفَسا عميقًا وكأنه انتوى أن يصل لما جاء من أجله، أجاب سعدي:

- النتيجة النهائية سعادتك إني المفروض أصدق إن أحد أباطرة تجارة الممنوعات حسب وصف السيد ممثل الإدعاء للمتهم يشيل اتين كيلو مخدرات في بيته وكأنها حاجة عادية جدًا.. المفروض إني أصدق إنه وصل القاهرة ومعاه الهيروين في شنطة فضلت يومين كاملين مقفولة و المتهم لا فكر يخبيها أو يسلمها لحد أو حتى يبصّ عليها.. المفروض إني أصدق إن أجهزة الأمن في مطار أوكرانيا ومطار القاهرة بكل أدواتها ما قدرتش تكشف إن المتهم شايل ٢ كيلو مخدرات.. المفروض إني أصدق إن تحريات ضابط الواقعة ومصادره السرية أقوى وأدق وسابقة أجهزة الأمن في المطارات بمراحل.. ولما هي دقيقة أوي كده ليه ما بلغش الأجهزة المختصة علشان يتقبض عليه متلبس فعلًا في المطار..؟ المفروض إني أصدق إن تاجر مخدرات لقوا في بيته مخدرات وفي نفس الوقت ما يلاقوش على الأكياس ولا بصمة له حسب تقرير البصمات إللي قدام سيادتك.. المفروض إني أصدق إن المتهم كان شايل شنطة ٧ كيلو وأكدِّب إفادات رسمية؟ المفروض أصدق إن ظابط رايح يقبض على أحد أباطرة المخدرات تبقى معاه قوة ١٢ فرد بس وإنه يدخل يقبض عليه ومعاه اتنين بس وهو المفروض يكون متوقع إنه يلاقي جيش جرار لأنه إمبراطور.. "

"من غير إدانة لأي شخص ؛ أولًا لأن ما عنديش دليل قاطع على إدانة أيّ شخص، وثانيَا لأني أقل من أني أكون جهة إدانة لأيّ حد.. هيئة المحكمة ممكن تعتبرها إندهاش مش أكتر..مش غريبة إن السيد

ضابط الواقعة يكون نفسه أخو محاسب كان شغال في شركات من شركات تابعة لمجموعة شركات المتهم واترفد من ست شهور..؟ مش الأغرب إن بعدها بشهر واحد أخوه يتعيَن في شركة تابعة لمجموعة ضرغام..؟.. طبعًا هي عادية وبتحصل إن أيّ حد يسيب شغل في مكان ويشتغل في مكان تاني .. بس أنا شايفها صدفة مُدهشة شويتين و كمان مش غريبة إن الاقتحام يتم بعد مغادرة ابن الراَجل إللي بينه وبين موكلي قضايا وكمان منافس له في الإنتخابات الجاية في نفس الدايرة لمجلس النواب.."

"آخر نقطة ودي الأهم.. هيئة المحكمة الموقرة.. إزاي التقرير الأخير للطب الشرعي يقول إن نسبة الاستيل مورفين (٦ %) في حين إن أول تقرير غير كده وده معناه إحتمال من تلاتة، يا إما العينات المحرزة ما كا نتش أصلًا من الأكياس المضبوطة وده يفسد الحرز من أساسه.. أو إن تقرير الطب الشرعي الأول فيه خطأ ما، ودي مشكلة كبيرة في حد ذاتها، أو إن الأكياس دي مش مخدر هيروين أصلًا وممكن نعتبره وقتها نوع من أنواع المسكنات القوية شوية أو ممكن نسأل حد من العارفين بعلم الكيميا أو أساتذة الفارماكولوجي ده يكون اسمه إيه لأن المادة الفعالة أقل بكتير جدًا جدًا من المفروض إنها تكون عليه وبالتالي مفيش قضية من الأساس.."

"يعني يا ريس الإحتمال الأقرب ليّا - مع إن الإحتمالات كتيرة جدًا- إن إللي اتلاقى عند موكلي مدسوس عليه بشكل أو بآخر، وعلشان دول ٢ كيلو فإللي دسّهم ما عندوش إستعداد يضحَي بملايين فقلِّل المادة الفعالة للدرجة إللي تقريبًا ما بقِتش موجودة والعينات تمّ تبديلها

بشكل أو بآخر أو كانت جاهزة أصلًا..."

"التضارب واللامعقولية والتلفيق وعدم جدية التحريات واضحين كوضوح الشمس.. أعتقد سيادة الريس إن سبب واحد أو سببين كفيلين بإثبات إن القضية كلها مُلفَّقة ومالهاش أي أساس من الصحة"

"مذكرة الدفاع إللي قدام هيئة المحكمة فيها كل حرف من إللي اتقال جملة وتفصيلًا.."

وهو يُعيد المستندات والورقيات التي استخدمها في أجزاء من مرافعته من على منصة الدفاع، نظر لهيئة المحكمة وقال بنبرة هادئة للغاية:

"هيئة المحكمة الموقَّرة.. أنا مجرد محامي ومش صديق للمتهم ولا حتى أعرفه كويس و أكيد مش من قرايبه، وعلشان كده أنا ما أقدرش أثبت أو أنفي هل المتهم فعلًا تاجر ممنوعات وهل هو فعلًا شخص عتيد الإجرام وامبراطور تجارة مخدرات، وخصوصًا إني بطبيعة الحال لا أستطيع قراءة الغيب ولا أعترف بالاحتمالات أو كلام الناس.. والمؤكد إننا هنا النهاردة مش علشان نحاسبه على تاريخه ولا على الماضي ولا المستقبل سواء كان ملاك أو شيطان .. إحنا موجودين النهاردة علشان واقعة محددة وإللي أقدر أأكده إن الواقعة دي مُلفَّقَة، يمكن لتصفية حسابات أو كقرصة ودن له إن جاز التعبير.. لذا ألتمس من عدالة المحكمة الحكم ببراءة المتهم من تهمة حيازة الممنوعات بهدف الإتجار، مع حفظ كافة حقوقه.. شكراَ سعادة الريس.."

"رُفِعَت الجلسة للمداولة.."

(قالها القاضي وهو ينهض ونهض معه الآخرون..)

ساد القاعة هرج ومرج بين مؤيد ومعارض.. بين سعادة غمرت البعض وحزن أصاب الكثير.. مضت ساعة كاملة إلى أن ساد الهدوء من جديد بعد سماع كلمة "محكمة"

دخلت هيئة المحكمة وأعلن القاضي أنه تم تأجيل القضية لجلسة تنعقد بعد خمسة عشر يومًا للنطق بالحكم..

***



بعد خمسة عشر يومًا.. مساءَ

"ألف مبروك يا أحمد بك"

(قالها سعدي بعدما أجاب على إتصال من الغرباوي)

- الله يبارك فيك.. مش عارف أقولك إيه..

- ولا أي حاجة.. قول الحمد لله..

- الحمد لله.. ألف شكر وحمد ليك يا رب.. إنت عبقري والله يا سعدي..

- لا عبقري ولا حاجة، كلها تساهيل مش أكتر..

- أنا على وعدي معاك بكل إللي طلبته..

- عارف إنك أد كلمتك..

- ممكن سؤال بس من جانب الفضول مش أكتر..؟

- طبعًا..

- إيه يضمنلك إني هوفي بوعدي معاك من ناحية بقية الأتعاب وأنا خلاص بره؟

تعالت ضحكة سعدي ثم أجاب:

- لأنه عادي جدًا أرجّعك جوه..

- إزاي؟

- الحاجات كتير بس أنا هقولك أسهلهم علشان تقدر تفهمني.. معايا أصل مستند وإللي حضرتك ظبطت شوية حاجات فيه

بطريقتك...

- تمام.. سعدي إنت عارف إني فعلًا مظلوم.
- وياما في السجن مظاليم يا أحمد بك.. تحب أكمل؟
- لا مفيش داعي.. أعوذ بالله منك..
- المهم.. مبروك وإبقى إعزمني على الحفلة إللي هتعملها..
- أكيد.. تسلم يا سعدي..

وانتهت المكالمة الهاتفية...

***

إبتسام كانت كما هي كالهرم الشامخ وسط العواصف وتغيرات الزمن والشاهد على تاريخ مضى وحاضر تعيشه ومستقبل تتضرع إلى الله أن يحمل لها الخير ولأخيها..

كانت الأم والأخت كعادتها دائمًا والحارس الأمين للمنزل.. رعايتها لسعدي ظلت كرعاية الأم لوليدها ولم يستطع الزمن وما يحمله من شوائب أن يِعكر نقاءها الفريد وصفاءها المتفرد وحفاظها على الحياة الهادئة كحياة السابقون من أبناء الزمن الجميل برغم تمكُنها من عدة لغات أجنبية ومتابعتها لجميع الصحف المحلية وبعض العالمية منها.

دائمًا كانت تتابع سعدي عن بٌعد ودون أن يستشعر هو.. تتابعه وهو يشق طريقه وسط ظروف صعبة وأجواء تشوبها الغيوم ومٌعتَرك ضخم فيه الكل يريد أن يكون هو المُنتصر- ذلك المُعترك الذي لو علم جموع

البشر ماهيته وكينونته الحقيقية، لعلموا حتمية الهزيمة وإن بدت للبعض نصراَ.. كانت سعادتها به تطوف الكون مع إزدياد شهرته في عالم المحاماة، ذلك العالم الذي لا يدري عنه الكثير إلا أصحابه..

خلال خمسة أعوام كاملة من بداية إلتحاق سعدي للعمل بمركز شلتوت كان شُعلها الشاغل الإهتمام بأخيها، وتناست أنوثتها بالرغم من جمالها الهادئ الذي تميل له القلوب وتتعلق به النفوس.. لكن مع مرور الوقت بدأ القلق يسيطر عليها بالتزامن مع تناثر أخبار بأن سعدي يتحايل على القانون، مُستخدِماً ثغراته بكل مهارة ليبرئ مجرمين ويحميهم من عقاب مؤكد..

كان قلقها عليه من نفسه أولًا، لإستشعارها بأنه بدأ في التحوّل لشخص آخر غير سعدي الذي طالما مال إلى الأخلاق والمبادئ، بل والمُثل العليا.. كل هذا وهي تتابع عن بُعد إلى أن أفردت الصحف الورقية والإلكترونية مقالات عديدة عن قضية الغرباوي، ذلك الرجل الذي قالوا عنه أنه أحد أباطرة تجارة المخدرات وكان الحكم الابتدائي فيها بالسجن المُشدَّد ثم إقتناصه للبراءة بعد تولي سعدي الدفاع عنه، فلم تستطع التَحكُم في غضبها عند وصول الأمور لهذا الحد وكأنها القشة التي قصمت ظهر البعير.

فانتظرته ذات ليلة حتى عاد للمنزل وبعد أن أعدت له وجبة العشاء، جلست تتحاور معه:

- بقالنا كتير ما اتكلمناش مع بعض..

- فعلًا، بس زي ما إنتي شايفة برجع متأخر وبتكوني نايمة ومش برضى أقلقك..

- أنا قلقانة فعلًا يا سعدي..

- خير؟!

- إنت كويس؟

- جدًا الحمد لله، وفي أحسن حالاتي كمان، والشغل ماشي تمام.

- سعدي.. أنا إبتسام مش واحد صاحبك أو حد ما يعرفكش هتضحك عليه بكلمتين.. إنت ابني قبل ما تكون أخويا ومش هتعرف تضحك عليّا.

- في إيه بس؟!

- شكلك ونبرة صوتك وكل حاجة بتحصل مش بتقول إنك في أحسن حالاتك ولا حاجة..

بمحاولة منه لتغيير دفة الحوار:

- ما قولتليش مبروك!!

- مبروك.. بس على إيه؟

- القضية إللي كسبتها من كام يوم.. مفيش حد في مصر إلا وبيّتكلم عنها.

- تفتكر المفروض إني أقولك مبروك علشان كنت سبب في إن مجرم كان هيستجن وناس كتير هترتاح منه ومن شره وجبتله براءة!!..

استطردت وقد ارتفعت نبرة صوتها:

- مجرم كل يوم بيّقتل جيل كامل من شباب غلبان تايه وسط دنيا صعبة بنعيشها.. ما تنساش إنك كنت واحد من الشباب دول إللي كان

من كام سنة تايه و كان ممكن يكون هو كمان ضحية لمجرم زيّ ده..

- إنتي تعرفيه؟

- أكيد لأ..

- طالما ما تعرفيهوش، يبقى مش من حقك تُحكمي عليه.. مش يمكن له أعداء بيشنّعوا عليه وبيحاولوا يأذوه بأي طريقة من الطرق..

هنا قاطعته وقد ا رتسمت علامات الغضب على وجهِها:

- هقولك تاني يا أخويا يا إبن الحاج عُمر.. أنا إبتسام مش حد تاني.. إنت عارف كويس إن الراجل تاجر مخدرات. وحتى يا أخي لو برئ، طالما الموضوع فيه شبهة كنت إرفض القضية.. كنت سيبه يروح في ستين في داهية.. إيه جرالك بس؟!

(قالتها وهي تذرف الدموع واحدة تلو الأخرى) وسألته:

- آخر مرة زرت قبر الحاج كانت إمتى؟

- بقالي فترة.. مش فاكر أد إيه بالظبط..

- ليه؟!

- ضيق الوقت مش أكتر.

- ومن إمتى الوقت كان بيمنعك إنك تزوره وتتكلم معاه..؟

بنبرة حملت الكثير من الضيق والضجر، سألها:

- عاوزه إيه بس يا إبتسام؟

- عاوزاك ترجع لنفسك.. لسعدي إللي أنا أعرفه.

- طيب ممكن نكمل كلام وقت تاني؟ محتاج أنام.. معلش أنا تعبان

ومُرهق جدًا.

- إتفضل، وحاول تفكر في كلامي.

- قبل ما أنام، كنت عاوز أتكلم معاكي في موضوع بأجِّله بقالي فترة علشان بفكر فيه وبحاول أحسبه من جميع النواحي.

- خير؟

- فاكرة الدكتور(أحمد نجدي) صديق الحاج الله يرحمه، إللي ساكن على أول شارع بيتنا القديم؟

- أكيد.

- الراجل كلمني من حوالي أسبوعين وطلب إيدك لابنه الدكتور (أكرم)، وقال إنه مش هيلاقي أحسن منك زوجة لابنه ومش ده إللى خد مني كل الوقت ده في التفكير..

- أومال؟!

- أكرم زيّ ما إنتي عارفة، معاه دكتوراة في جراحة المخ والأعصاب وهيسافر الإمارات يشتغل هناك وأعتقد إنه ناوي ما يرجعش مصر تاني أو على الأقل بعد فترة طويلة، وده إللي كان مخليني مُتردد لفترة.

- مش موافقة.. الجواز مش دلوقتي خالص بغض النظر عن السفر أو الغربة.. أنا مش هتجوز غير لما أتطمن عليك إنت الأول وأشوفك في بيتك.

عقب مازحًا:

- يبقى مش هتتجوزي خالص.

- ولو.. هُم يعني إللي اتجوزوا عملوا إيه؟!

أجاب مُبتسمًا:

- خلفوا عيال وأنا عاوز أبقى خال، ما تبقيش بخيلة..

- ما تحاولش، قراري قرار نهائي.

- عمومًا، أنا إديتك فكرة عن الموضوع وبعد بُكرة أنا أجازة هنتكلم تاني في الموضوع ده.

- نام بس وإرتاح وفكر في كلامي وحاول تروح تزور الحاج يمكن يقولّك حاجة ترجعك لسعدي بتاع زمان.

- حاضر .. تصبحي على خير..

بعد مضي سعدي واطمئنانها إنه خلد للنوم، توضأت وقضت الليل بطوله في الصلاة داعية اللهله في سجودها أن يُعيده إلى رُشده ويحميه من مكائد الحاقدين وظلت هكذا حتى أذان الفجر. فأدت الصلاة ومضت بدورها في محاولة منها للخلود إلى نوم عميق..

***

بعد أسبوع من محاكمة الغرباوي...

بأحد جوانب البهو الرئيسي لأحد الفيلات الراقية القابعة بإحدى التجمعات السكنية على حدود القاهرة حيث يقطن هناك صفوة المجتمع وخيارِهم -فيلا شلتوت- اجتمع هو وخمسة أفراد من أقرانه.

كانت النظرات شاردة والتوتر كان البطل الحقيقى للمشهد والصمت كان المُتحدث الرسمي لهم..

رغم فخامة الفيلا من حيث فن عمارة بناءها أو من الداخل بأثاثها الفاخر وديكوراتها الأنيقة المتنوعة والتي تبث في النفس الهدوء والسرور معًا، لكن العبوس والطاقة السلبية اللذان سيطرا على الجمع كان كفيلًا بأن يضفي على كل شيء الظُلمة والوَحشة، فكأنها بلا ديكورات ولا أضواء، فأصبحت ككهف مهجور لم تطأه قدم بشر منذ عهود.

ظل العبوس يكسو وجوه سداستهم لفترة طويلة ولم يكن هناك صوت عدا صوت إرتطام أغصان الأشجار ببعضها من شدة الرياح بحديقة الفيلا ونباح كلاب الحراسة التي لم تكُفّ عن النباح الذي من شأنه أن يملأ القلب مزيجًا من الخوف والرهبة، فضلًا عن هزَيم الأمطار وما صاحبها من برق ورعد بالرغم من فصل الصيف وكأنه تعبير من السماء عن غضبها.

كان كل منهم يود لو بدأ آخر بالحديث، إلى أن استنفر أحدهم الصمت وشاح بوجهه ناحية شلتوت وتحدث:

- وبعدين يا دكتور؟.. هنفضل ساكتين كتير؟! أو بمعنى أدق هيِفضل

حالنا زيّ حال الولايا كده إللي حاطين إيدهم على خدودهم.. لازم نتصرف وبسرعة ولا إيه رأيك؟

مع إعتداله بمقعده رد شلتوت وهو يصحِّح وضع نظارته على وجهه:

- كلامك صح.. السكوت مش هينفع ولازم نتصرف.. إنما.. إنما بالسرعة دي هيّ إللي فيها كلام...

قاطعه أحد هم والجالس بجواره يمينًا:

- أنا مش معاك يا دكتور.. السرعة مطلوبة..

رد عليه شلتوت وكأنه يوجه الحديث للجميع:

- السرعة مطلوبة ومهمة، بس الأهم إنها تكون محسوبة.. السرعة ممكن تجيبلنا مشاكل إحنا مش قدها وفي غنى عنها وده غلط يا أساتذة.. لأن إحنا غلطتنا مش زيّ غلطة أي حد.. غلطتنا بجول وأفتكر إن حضراتكم فاهمين الجول معناه إيه..

تدّخل الرجل الجالس على يساره في الحوار بعد أن أشعل سيجارة:

- صح كلامك.. بس أنا ليّا رأي..

بعد لمح إيماءة رأس من الجميع وكأنها الإذن بمواصلة الحديث، أردف الرجل:

- قبل ما أقول رأيي هحاول أقرا المشهد بسرعة علشان الأفكار كلها تتجمع.. سعدي كِبر زيادة عن اللزوم.. وتقريباَ وبعد إذن الجميع للأسف بقى رقم واحد وإن إحنا نقضي عليه ما بقاش امر سهل..

أكمل بعد أن رمق الجميع بنظرة عابرة ليتأكد من متابعتهم له:

- بس كونه، مش ده المهم..لإننا كُبار أوي برضو.. لكن المهم فعلًا هي العلاقات إللي قِدر يكوِّنها في وقت قليل وخاصة إن العلاقات كلها متشابكة ومُتشَعبة..

بعد لحظة صمت محاولًا خلالها ترتيب أفكاره، أكمل:

- يعني بقى له علاقات قوية بالداخلية، بالإعلاميين وبالذات الصحفيين والأهم صداقاته بناس مهمة في وزارة العدل نفسها.. ده غير إنه بشكل أو بآخر بقى بطل شعبي..

قاطعه أحدهم:

- بطل شعبي!!.. الناس كلها عارفة إنه مُتلاعب وبيستغل ضعف بعض فقرات القانون علشان يبرّأ مجرمين.

عقب الرجل:

- ده صحيح.. ده صحيح.. بس ما تنساش إن ناس كتير بقت بتتعاطف بشكل أو بآخر مع أي حد بيغلب الحكومة أو حتى بيلعب معاها.. الناس بتحب اللعبة الحلوة والولد لعيب، ده غير إن الولد له كارزيما.. علشان أقرّبلكم فكرتي أكتر.. الولد بقى زي روبين هود، مع إنه كان حرامي والناس عارفة إنه حرامي بس كانت له شعبية ومحبوب، وسواء إتفقنا مع ده أو اختلفنا، بس حقيقة..

استعدل إنحناء ياقة قميصه وأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته، ثم استطرد:

- يعني من الآخر.. تقريباَ مالوش أعداء نقدر نلعب معاهم ضده ومحبوب من الكل تقريباَ ودي أكبر مشكلة، وضيفوا عليهم إنه مش مكسور عينه من أي حد، بالعكس بقت له جمايل وأفضال على ناس كتير وعلشان كده وده إللي كنت عاوز أقوله من الأول، إن بداية الخيطِ عندك يا دكتور..

رد شلتوت وقد تملّكه توتر حاد حاول إخفاؤه:

- قصدك إيه؟

- أقصد مفيش حد ربنا خلقه إلا وله نقطة ضعف.

- معلوماتي إن الولد نضيف، ولا هو مرتشي مثلًا ولا بيسْتَغلّ علاقات، ولا بتاع كِيف ومزاج.. آخره كوباية شاي وإن كمِّلها أصلًا..

- سعدي.. راجل صح؟

من دون أن ينظر للرجل، رد شلتوت بضجر:

- إيه السؤال إللي مالوش معنى ده؟!!

- بالعكس، ده السؤال الوحيد إللّي له معنى وإجابته ممكن تنقذنا من إللي إحنا فيه.. إللي زيّ الولد ده لازمله فضيحة علشان يتركن والناس كلها تتجنبه.. تتجنبه حتى لو بتحبه..

هنا بدأ الجميع في الإنتباه الحقيقي والإنصات لما يتفوّه به الرجل، وتجلَّت على الملامح علامات الفضول والإثارة إلى أن تحدث له الرجل المُواجِه له مباشرة:

- كمِّل وبالتفصيل لو سمحت..

أطفأ سيجارته، بعدما خلّفت وراءها سحابة من الدخان أشبه بسحابة شتاء حاملة للغيوم والضباب فوق الجالسين، وأكمل حديثه:

- لازم ست تتحطّ في طريقّه، وما تكونش أي ست لإنه للأسف ما بقاش زيّ أيّ راجل.. ست يتعلق بيها.. يتعلق بيها لدرجة إنها تسحبه لدايرة ما يعرفش يخرج منها تاني ويتصوّر ويتسجِل له والفضيحة تملى البلد..

قاطعه شلتوت:

- مع إنها طريقة قديمة وكتير استخدموها بس لسه شغالة وبتجيب نتايج مش بطالة.. صح كلامك.. صح... إنما....

قاطعه الرجل:

- بس إسمحلي الست دي لازم تكون مضمونة بنسبة ١٠٠ في ١٠٠ ويكون ولاءها لينا ما فيهوش نسبة شك ولو واحد في المليون، لإنها لو لعبت بينا، كلنا هنروح في ستين داهية.. كلنا هنتحدف ورا الشمس.. هنكون غلطنا الغلطة إللي سبق واتكلم عليها شلتوت.

أومأ الجميع بالموافقة على رأي الرجل عدا واحد؛ وهو الرجل الذي ظل صامتًا طيلة اللقاء والجالس في مواجهة شلتوت مباشرة.. كان مُتابعًا ومُنصتًا للجميع دون أن ينبت ببنت شفة.. ملامحه كانت لزجة للدرجة التي يُصعب معها وصفها بدقة، كان الجميع يتجنَّب النظر صوبه بطريقة مباشرة.. كان كثيف الشعر وقد استخدم كمية لا بأس بها من مُثبَت الشعر (الجِل) لتصفيفه.. أنيق الملبس.. كان مُرتديًا بزة رسمية وقد خلع الجاكت وعلَّقه على شماعة الملابس الخشبية بجوار

باب دخول الفيلا مباشرة.. كان طول الوقت يلوك شيئًا كاللبان دون أن يصدر صوتًا يبدو أنها كانت أحد وسائله للتغلب على حدة التوتر.. تزحزح بجسده إلى أن استقر على طرف المقعد الجالس عليه، نازعًا عنه نظارته الذهبية اللون، ناقرًا بها على إحدى ركبتيه نقرات سريعة متتالية، ونظراته مصوّبة نحو الأرض وكأنما يحاول اصطيادا لأفكار وترتيبها، الجميع كان بانتظاره ليتحدث، إلى أن نظر نظرةً ثاقبة وثابتة نحو شلتوت وقال:

- للأسف يا شلتوت إنت إللي زرعته بينّا وكَبّرتُه علينا..

وقبل أن يَهِمْ شلتوت بمقاطعته، أكمل الرجل غير مُكترثٍ به:

- لما أتكلم ما بحبش حد يقاطعني..

- حاضر.. أنا آسف، بس كنت عاوز أقول...

- ما تقولش...

هنا بدا شلتوت كالطفل الصغير.. لم يكن هو دكتور أحمد شلتوت ذو الهيّبة الذي يجلس خلف مكتبه كالثعلب.. بدا وكأنه لا شيء.. كالوزير بلا حرب.. تضاءل حجمه إلى أن أصبح قزمًا وسط عمالقة..

استطرد الرجل:

- أنا مش من أنصار المُسكِّنات والعلاج طويل الأجل والوقت عامل مهم.. أنا بفضَّل الجراحة برغم صعوبتها وخطورتها أحيانًا.. الولد إللي اسمه سعدي بقى زيّ الورم إللي لازم يُستأصل وبسرعة لإنه لو اتساب أكتر من كده هينتشر ويكبر أكتر ومش هنعرف نسيطر عليه.. الولد ده لازم يختفي.. فاهمين أقصد إيه؟

على إستحياء شديد ردَّ شلتوت والكلمات تتلعثم في فمه:

- فهِّمنا أكتر يا أفندم..

- كلامي واضح يا شلتوت، الولد ده لازم ما يكونش له وجود في الدنيا تاني، وما أفتكرش إننا بكل خبرتنا مش هنقدر نعمل خطة ننهي بيها عليه ومن غير دليل واحد..

- إننا نعمل خطة ومن غير دليل ولا حتى خيط رفيّع يدل علينا من بعيد أو من قريب. دي سهلة .. إنما..

- إنما إيه؟

- القرار بالتخلص منه خاصة مش سهلة أبدًا، ورأيي المتواضع إننا نأجِّله شوية ونخلِّيه آخر الحلول ونحاول نفكر في الفضيحة إللي نقدر نعملهاله... خصوصًا إن الموضوع ما يستاهلش رد الفعل العنيف ده.. أعتقد يعني..

- تعتقد..!!

أعاد وضع عويناته واستند بظهره على خلفية مقعده وأردف:

- واضح إنك ابتديت تعتقد كتير.. أنا هفهِّمك ليه الموضوع مستاهل.. الولد ده زي أيّ حد من طبقته مليان غلّ وحقد للِّي زيّنا، وغيرة وحسد، بس أغلبية الطبقة دي قدراتها محدودها وذكاءها متواضع، لكن لو عندك خلاط وحطِّيت فيه إللي قولته من شوية وعليهم ذكاء ومثابرة وصبر رهيب وحرص ومعلومات خدها من شغله معاك وعلاقات كوِّنها مع الوقت وخلطتهم.. المزيج ده هيكون زيّ ميّة النار بالظبط إللي هتحرق أيّ حد.. الولد ده مستني لقطة معينة وهياجم

بعنف ومفيش حاجة هتوقّفه.. وللأسف هو عنده نقطة قوة محدش ذكرها فيكم كلكم.. إن معندوش إللي يخسره، إنما إحنا عندنا كتير.. ده غير إ نه خلاص هيسحب كل العُملا الكبار إللي عندك وإللي من وراهم بنكسب كتير، سواء فلوس أو نفوذ، وإللي من غيرهم إحنا ولا حاجة، ولا هيبقى لنا لازمة..

- وضحت فكرتك.. بس على الأقل خلينا نحاول في الإقتراح الأول بتاع الفضيحة..

بنبرة غلبت عليها الحدة، قاطعه نفس الرجل:

- تحاول، مش نحاول..صيغة الجمع دي مش واردة.. وعمومًا أنا معنديش مانع إننا نأجِّل الحل بتاعي شوية وقت صغيريين، بس أنا بقولكم أهو إننا هنلف ونرجع لرأيي تاني ومش هنكون عملنا غير إننا ضيّعنا وقت ومش عاوز صيغة الجمع دي تاني، لا منك ولا من غيرك..

استطرد وهو يوجِّه سبابته كنوع من التحذير:

- إنت يا شلتوت إللي حطِّتنا كلنا في مشكلة وورطة كنا في غنى عنها، إنت إللي لازم تتصرف.. وقدامك عشر أيام.. تحاول فيها تعمل الحل الأول ولو ما جابش نتيجة ومش هيجيب، يبقى مفيش غير إننا نخلص منه.. لإن خطوته الجاية إنه هيستخدم كل علاقاته ومعلوماته من شُغله عندك في إ نه يفضحنا قُدام الناس كلها ويدمِّرنا..

قالها وهو يهمّ بالوقوف استعدادًا للرحيل وهو باتجاه الباب الرئيسي للفيلا، التفت لشتلوت مُحدِّثًا إياه:

- أعتقد إننا اتفقنا يا دكتور..

قالها ومضى، غير منتظر لإجابة منه، ومضى الكل خلفه، رجل يتبعه الآخر إلى أن اختفى الجميع ليتركوا شلتوت وحيدًا بين أفكاره وأسيراَ لوحدته.

***

صوت أزير أبواب يزداد تصاعديًا.. بصمات أصابع مطبوعة على النوافذ الزجاجية وزاد من وضوحها هطول الأمطار بالخارج مع تناثر بعض قطرات ماء المطر عليها.. قطرات ماء اختلطت بقطرات دماء.. الظلام الدامس عَمّ المكان إلا من بعض انعكاسات لبعض الأضواء المُتكسِرة القادمة من الخارج.. صوت قدم يقترب.. لا.. كان صوت أقدام.. مجموعات من الظلال تظهر وتختفي.. هرول هو ولا يعلم إلى أين يتجه.. في كل مرة ينتهي به المطاف إلى حائطٍ أو ما يشبه حائطٍ ولا يجد سبيلًا للخروج.. شعر بشيء ما قادم.. أو ربما أشياء لا يعلم كنهتها.. الخارج كان مُخيفًا كما هو الحال بالداخل.. شعر بأن شيئًا ما كاد أن يخنقه فاكتفى بأن انزوي في أحد زوايا المكان مُصيحًا: لا .. لا.. لاااااا...

- سعدي.. سعدي حبيبي...

(كانت إبتسام توقظ سعدي من كابوس كاد أن يفترسه..)

استيقظ، لقفته بين أحضانها:

- خير.. اللهم اجعله خير.. صوتك جايب لآخر الشارع!!

مُرتجفًا بعد أن أفاق نسبيًا:

- الحمد لله.. الحمد لله..

مع مناولتها له كوب ماء، قالت:

- إشرب يا حبيبي.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

- مالك بس؟ في إيه؟

- أبدًا، حلم سيء..

- اللهم اجعله خير، قوم إتوضا وصلِّي ركعتين..

- حاضر، هقوم أصلي وبعدها هكَمِّل نوم، روحي إنتي إرتاحي وما تقلقيش.. أنا كويس..أو هبقى كويس..

ثم انتفض وذهب للصلاة، وبعدها عاود النوم..

***

في الصباح التالي..

قرّر سعدي التَغيّب عن العمل وإلغاء جميع مواعيده لشعوره بالإجهاد البدني والذهني.. كذلك أراد إختلاس الوقت للتحدث مع إبتسام لإقناعها بالزواج والسفر مع زوجها المستقبلي.

حرصه على زواجها كان نابعًا من قلق الأخ على أخته ألا يفوتها قاطرة الزواج المصري السريع، وكذلك أراد أن يطمئن عليها مع رجل يستطيع الحفاظ عليها وصَونِها، ولم يكن راغبَا بأن يكون هو سبب عنوستها وهي الفتاة ذات الجمال والأخلاق الدمثة..

كان هناك سبب آخر لا يقل أهمية عن كل ما ذُكرَ، وهو أنه أراد بهذه الزيجة أن تبتعد إبتسام عنه لبعض الوقت لأنها أصبحت مثل الجلاد الذي لا يرحم ولا يقبل تصرفاته ومُنتقدًا لجميع أفعاله، فكانت ضميره الحيّ الذي أراد ألا يسمع له صوتًا ولا يشعر بوخزه من حين إلى آخر.

بالفعل جلس معها، وأثناء احتسائهما للشاي، تحدث إليها:

- إيه رأيك في الموضوع إللي اتكلمنا فيه من يومين؟

- إحنا اتكلمنا في حاجات كتير.. تقصد إيه؟

- موضوع الجواز.. الدكتور أكرم، أخلاقه ممتازة وسمعته سابقاه وكمان عارفين أصله وفصله.

- وأنا إعتراضي مش على أكرم، ولا على أصله ولا فصله، أنا اعتراضي على إني أسيبك لوحدك وكمان أسافر بره مصر.. إزاي؟!

- تفتكري لو كان الحاج عُمر موجود بينًا دلوقتي كان هيبقى رأيه إيه؟

- ما تحرجنيش يا سعدي لو سمحت..

- مش بحرجك.. أنا عاوزلك الخير، وإنتي مُتأكدة إن الحاج عُمر كان أكيد هيوافق ويبارك الجوازة كمان.

قاطعته مسرعة:

- بس الحاج مش موجود ومش هيبقى موجود خلاص، والظروف غير الظروف..

- عندك حق، بس عاوزك تِفَكَّريني لما الحاج اتوفى وكان عندي إكتئاب وكنت هسيب الشغل وكان علينا ديون.. قولتيلي إيه وقتها؟

- الحياة لازم تستمر.

- يبقى جه دوري أقولك نفس الكلام.. الحياة مش لازم تقف لأي سبب من الأسباب ومهما كانت الظروف، وأنا بخير وهبقى بخير أكتر لو إطَّمنت عليكي وحسيت إنك في بيتك والحاج عمرَ كمان أكيد هيرتاح من قلقه عليكي.

- سعدي...

- مفيش "سعدي".. إنتي عملتي إللي عليكي وأكتر.. عملتي إللي لو قضيت عمري كله أرد لك جزء منه مش هعرف.. أكرم ووالده

جايين النهاردة الساعة سبعة المغرب إن شاء الله..

- علطول كده؟!

- خير البر عاجله.. والله عاوز أطمن عليكي ..

- إنت زهقت مني يا أخويا ولا إيه؟!!

(قالتها ببراءة الطفولة وهي تذرف الدموع)

- الله يسامحك.. أنا زهقت من إني السبب إنك ما تعيشيش زيّ بقية خلق الله.. هسألك سؤال.

- إتفضل..

- إنتي مش عاوز سعادتي؟

- طبعًا ودي عاوزة كلام؟!

- سعادتي إني أطَّمن عليكي وأفرح بيكي وأشوف ولادك، وبعدين الإمارات مش آخر الدنيا.. لو عاوزين نزور بعض كل شهر مفيش حاجة تمنعنا..

- مش عارفة أقول إيه..

- ما تقوليش حاجة غير إنك موافقة.

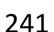
- ومين هيعملك الأكل ويغسل لك هدومك ويصحِّيك الصبح؟

- ما تقلقيش، أنا مرتِّب كل حاجة وبعدين كلها فترة صغيرة لحد ما ألاقي بنت الحلال.

- يا رب يا سعدي، عاوزة أفرح بيك إنت كمان،إنت ما تعرفش إنت عندي إيه..
- كله في ميعاده، قولي يا رب ...
- يا رب.. يا رب.. هقوم أصلي إستخارة.. إيه رأيك تصلِّي معايا؟
- موافق طبعًا..

وهرعا للصلاة....

***



الساعة السابعة من مساء نفس اليوم...

وصل الدكتور أكرم ووالده لمنزل سعدي، وكان اللقاء وديّ كلقاء الأهل، فلم تكن الوجوه غريبة حيث جمعهم شارعهم القديم منذ نعومة أظافرهم وقضوا من الوقت الكثير يلعبون (الغُمّيضة) سويّاً مع اطفال آ خرين يقطنون منازل مجاورة لهم وكثيراً ما جمعتهم موائد الطعام البسيطة سواء بمنزل إبتسام أو أكرم أو غيرهم كعادة الجيران حين كانوا صغاراً، حـ ينها كان بيت أحدهم كبيتهم جميعًا، وأم إحداهن هي أم الجميع.. حينما كانت أبواب الشقق والبيوت لا تغلق إلا ليلًا فقط.. وقتما كانت كسرة الخبز الصغيرة تكفي الكثير..

لم يمضِ من الوقت الكثير حتى اتفق الجميع على كل التفاصيل الخاصة بالإرتباط، وبالرغم من المحاولات المستميتة من إبتسام لتأجيل عقد القران لكنها خضعت لما اتفقوا عليه بعد كمّ هائل من الضغوط منهم جميعًا نظراً لإضطرارية أكرم للسفر خلال شهر على أقصى تقدير، حُدِّدَ ميعاد الزواج ليكون بعد أسبوعين على أن يكون حفل الزواج عائلي ومحدود للغاية، وكان هذا نزولًا على رغبة إبتسام، وأيّدها في ذلك أكرم ووالده.

كانت تبكي بحرقة وارتمت بأحضان سعدي الذي كان على يقين بأن بكاءها سببه الوحيد هو فراقها له، أما أكرم ووالده فظنًّا أنها تبكي فرحًا، أو هكذا أرادا أن يظنًّا...

وبالفعل تم الزواج وغادرت إبتسام البلاد، ولكنها لم تغادر قلب سعدي ولا ذكرياته، ولن يحدث...

قبل يومين من سفر إبتسام...

خلال تواجد سعدي بمكتبه بفترة المساء كالعادة، وأثناء تصفُّحه لإحدى قضاياه، رنَّ جرس هاتفه المحمول وإذا به يجد اسم شلتوت يظهر على شاشة الهاتف، فرد مسرعًا:

- سعادة الريس.. واحشني والله..
- ازيّك يا سعدي؟
- الحمد لله يا افندم.. لعل سعادتك تكون بأفضل حال.
- كله تمام.. مش هعطَّلك كتير..

سعدي مُقاطعًا:

- يا خبر يا دكتور.. تعطلني إيه بس!!.. سعادتك تؤمر.. لولا إني عارف مشاغل حضرتك، كنت اتصلت بسعادتك ١٠٠ مرة كل يوم..
- فيك الخير يا سعدي.. كان عندي ملف قضية وكنت عاوز أعرف رأيك فيه..
- ده شرف ليا سعادة الريس.. تحب أتشرف بمقابلة حضرتك في المركز إمتى؟..
- المركز مش هينفع.. ده ملف سري جدًا ويخُصّ حد من الناس التقيلة.. هستناك بكرة الساعة سبعة مساءَ عندي في الفيلا وهبعتلك عنوانها في رسالة بعد ما أقفل.
- تؤمر.. قبل الميعاد هبقى في إنتظار سيادتك.

- لا مش قبل الميعاد.. في الميعاد.

أنهى المكالمة دون كلمة واحدة كعادة شلتوت، وبعدها لم تنفكّ الأفكار تحوم داخل خلايا عقل سعدي ومعها تساؤلات عدة وتخوّفات أكثر..

مصدر قلقه كان بسبب إدراكه الجيد لشخص شلتوت، بأنه ليس ذلك النوع من البشر الذي يطلب مساعدة صريحة من أحد وإنما تكون ضمنية قدر ما استطاع وخاصة إذا كانت المساعدة من أحد تلاميذه أو هكذا اعتبره ولا يزال.. أخذ يسأل ويتساءل ويفترض الأجوبة إلى أن أصابه صداع عنيف كاد أن يفتك برأسه، حينها أدرك أنه يسعى وراء سراب، فقرر أن ينتظر للغد -وما أصعب لحظات الإنتظار.. وخاصة إنتظار المجهول -فالغد وحده الذي يمتلك إجابات تلك الأسئلة الصعبة.

***

اليوم التالي.. مساءَ..

قبل الميعاد المُحدَّد بخمس دقائق، وحسب العنوان الذي أرسله له شلتوت، وقف سعدي أمام الفيلا مُنتظراَ حلول الساعة السابعة..

قضى تلك الدقائق القليلة التي تفصله عن موعده مُتأملًا لهذا الصرح الذي يتكوّن من دورين قد زيّنهما مجموعة من أفضل ديكورات البناء التي قد رآها من قبل، وكذلك الحديقة التي تُحيط بالمبنى وكيف هو إتساعها وبريقها وتناسُق أزهارها مع أشجارها ونخيلها الذي يحيط الحديقة بالكامل وكأنه الحرس الأمين الساهر لحماية الأزهار، ومع سريان نسمات هواء المساء كانت وكأنها تعزف لحنًا من أروع الألحان على ورق الشجر وورقيات الزهور، فظن وكأنه في إحدى الجنان، وخاصة بعدما وقع نظره على شلال اصطناعي على أحد جوانب الحديقة.. ابتسم وهو يهمس لنفسه بأن الشيء الوحيد الذي ينقص هذا المكان هو الحور العين.. كان كل شيء يدل على الفخامة.. كل شيء دل على أن مَن صمّم وصنع هذا فنان بكل ما تحمله الكلمة من معنى..

مع دقات الساعة السابعة تمامًا، وقف مواجهًا لباب الفيلا العملاق ودق الجرس برفق قدر ما استطاع، وإذا به يستمع لصوت أقدام تتجه نحو الباب من الداخل إستعدادًا لفتحه..

فُتِح الباب وإذا به يجد إنجي في مواجهته تمامًا.. هنا اكتمل مشهد الجنة تمامًا في ذهنه وهو يقف مباشرة أمام واحدة من الحور العين، وإذا بصوته يختفي تمامًا داخل حلقه، وخاصة بعدما رأى مظهرها، فكانت ترتدي فُستانًا من قماش الدانتيل الأسود اللون المُطَعَّم باللون

الأحمر، كان قصيراَ بما يكفي ليَظهر من ساقها أكثر بكثير ممّا غطَّى.. كانت الثياب رائعة، مُلائمة تماماً لذلك الجسد، فأعلنت عن مفاتنه دون أن يظهر أي منها بوضوح، وما زاده جمالًا ذلك الشعر الأسود المهدول وتلك الخصل ا لرفيعة التي زيّنت جانبي رأسها وغطَّت أجزاء من أذنيها.. لم يرَها بذاك المظهر طيلة فترة عمله لدى شلتوت، ولم يكن ليتوقع أبدًا.. فكانت آخر توقعاته أن يجدها هنا في منزل شلتوت، وأيضًا أن يراها بذاك المظهر..

تجلَّت فيها وبها كل معاني الأنوثة، فلولا تمالُكه لنفسه ببقايا قواه والتي انهار أغلبها لرؤيته لها لارتمى داخل أحضانها ليفوز ببعض الدفءالذي انتظره طويلًا.. طويلًا جدًا.. ولم يفصله عن تلك الحالة إلا صوتها وهي تدعوه للدخول وقد بدا له من صوتها أنها كان تتحدث إليه من فترة ليست بالوجيزة..

ولج على إستحياء وهو يهمس لها:

- كان عندي ميعاد مع الدكتور.
- عارفة.. الدكتور لما لقى نفسه هيتأخر في إجتماع بلَّغني آجي وأستناك.. هو على وصول على أي حال..

وأشارت بيدها إلى أحد المقاعد ليجلس ثم جلست هي أيضًا، بمجرد جلوسها تجلَّى جزء أكبر من مفاتنها والذي حاول سعدي مُجتهدًا بكل ما أوتي من قُدرة أن يغضّ البصر عنه، محاولًا الإنشغال بالنظر إلى الديكورات الرائعة التي زيّنت كل ركن من أركان المكان وتلك النغمات الكلاسيكية السابحة عبر الأثير التي أضافت لدفئه دفئًا فريدًا

من نوعه..

بعد لمحة سريعة لساعته الذهبية المُرصّعة بحَبيبات من الماس الطبيعي والتي كان من عادته ارتداءها فقط خلال المقابلات الهامة، نظر لإنجي قائلًا:

- يبدو إن الدكتور مش جاي!!

- ليه بتقول كده؟ الساعة لسه ٧ وخمسة.

قفز لذهنه قولها "وخمس دقايق" وأيقن أنه قد شرد بذهنه لفترة اعتقد أنها لم تتعدَّ بضعة ثوانٍ، لكنه تمالك نفسه مُجيباَ:

- صحيح، بس أنا عارف إن مواعيد الدكتور مظبوطة..

بابتسامة أنثوية وشت بالكثير، سألته:

- تشرب إيه؟

- ولا أي حاجة.

- باين عليك عاوز الدكتور يهزّقني لما ييجي ويعرف إني كنت بخيلة مع ضيف من ضيوفه.

- أكيد لأ، بس فعلًا...

مضت غير مكترثة بما سيقول وغابت عن ناظريه لبضعة دقائق، بعدها عادت حاملة صينية تتوسّطها زجاجة مياة معدنية صغيرة وكوب من النسكافيه ووضعتها أمامه، قائلة:

- إتفضل، وعلى فكرة مكعبات السكر في العلبة العاج إللي قدامك.

أجاب مع إيماءة برأسه تعني الشكر:

- ما بقِتش بشرب أي حاجة بسكر.. شكرَا.

- زي ما تحب..

مد يده متناولًا الكوب، وما أن رفعه حتى وضعه مُجددًا وزجّ يده داخل جيب سُترتِه مُخرجًا هاتفه المحمول، وقبل أن يضغط على زر استقبال الإتصال همس لها:

- عذرًا، هرد بسرعة على موبايل..

- إتفضل خد راحتك..

كان رده على الهاتف مُقتضبَا بشكل ملحوظ، ولم يتلفظ إلا ببعض كلمات: "إزاي؟".. "وحصل إمتى؟".."هي كويسة؟".. "طيب هحاول آجي علطول".. "مسافة الطريق"..

ما أن انتهي من مكالمته السريعة حتى انتفض واقفًا وانتفضت معه إنجي، قائلة:

- خير في حاجة ولاّ إيه؟

- إن شاء الله خير، أختي تعبت شوية وحد من جيراننا نقلها لمستشفى قريبة من البيت.. معلش لازم أروحلها حالًا، وكده كده واضح إن الدكتور هيتأخر أو جاله ظرف طارئ هو كمان.

- ما تقلقش حتى لو وصل أنا هوضَّح له الأمر وهو أكيد هيقدَّر حاجة زيّ كده.. قول بس الحمدلله إنك سمعت موبايلك.

- الحمد لله طبعًا، عمومًا أنا متعوِّد أعمله هزاز لما أكون داخل على مقابلة مهمة زيّ الدكتور ما علِّمنا..

ما أن انتهى من جملته كان قد وصل لباب الخروج ففتحه مسرعًا قائلًا:

- عن إذنك.

- إتفضل، ولو لقيت فرصة يا ريت تبقى تطمنا.

- إن شاء الله خير، هتلاقيها بس مرهقة وكمان متوترة علشان جوازها وسفرها مش أكتر إن شاء الله..

(قالها وركض نحو سيارته إلى أن استقر داخلها ثم قادها مسرعًا..)

ما أن اطمأن بأنه ابتعد القدر الكافي حتى لا يلاحظه أحد، أمسك بهاتفه المحمول مُتصلًا بجمال، وما أن أجابه، بادره قائلًا:

- معالي المستشار..

- يبقى عاوز حاجة ومستعجلة كمان..

- فاهمني وقارش ملحتي دايمًا.. بقولك إيه.. إنت في البيت؟

- لا لسه في المكتب، خير في حاجة؟

- عندك بواب؟

- ده سؤال ده بزمتك!!

- بتكلم جد والله.

أجاب جمال مُتهكمًا:

- آه في بواب، عاوز أبعته يجيبلك باكو لبان؟!

- متجوز؟

- هو مين؟

- البواب يا أخي..

- والله إنت بتهرج وباين عليك عالي.. أنا في إيدي قضية مهمة جلستها بعد بكرة ومش فاضي لهزارك البايخ ده..

- مش بهزر والله.. البواب متجوز؟

- أيوة يا سيدي.

- طيب بُص.. بسرعة ومن غير ما تسأل، تاخد مراته في عربيتك دلوقتي ومن غير تأخير دقيقة واحدة وتروح بيها على مستشفى الشفا إللي ورا البيت عندي وتدخل بيها دوغري على الطوارئ وتنبه عليها تعمل إن عندها مغص جامد، ولو سألوك على اسمها.. قولهم "إبتسام عمر".

- هو في إيه يا سعدي؟!

- مفيش، أنا كويس والله، بس إعمل إللي بقولك عليه وبسرعة وهبقى أحكيلك بعدين..

- حاضر.. حاضر..

وما أن أنهى المكالمة، تنهّد تنهيدة طويلة وكأنه استراح من ثقل كان قابعًا على صدره منذ زمن بعيد... ثم قاد سيارته ومضى..

***



اليوم التالي لزيارته لفيلا شلتوت...

"ممكن تفهِّمني إيه الحكاية؟"..

سأله جمال بعد أن جلسا على نفس ذات المقهى..

قصّ له سعدي ما حدث ليلة أمس وكيف أنه استشعر أن هناك مؤامرة من نوع ما وبالرغم من عدم تيقّنه إلا أنه انساق وراء حدسه الفطري وأراد أن يبدو انسحابه من المشهد بشكل مفاجئ كما حدث مُبرَرًا حتى لا يزرع أي نبتة للشك داخل نفس إنجي، وبالتالي شلتوت إذا ما صدق حدسه..

أثناء سرده لما حدث، صمت قليلًا، ربما لعدة ثواني ثم قال:

- وفي حاجة غريبة جدًا حصلت ومش فاهمها..
- إيه هيّ؟

صمت سعدي قليلًا وكأنه يحاول البحث في معجمه اللغوي بحثًا عن بعض الكلمات أو التعبيرات التي قد يستطيع من خلالها وصف ما أراد قوله وبعد ما يئس أجاب:

- مش عارف أوصفلك.. عمومًا..

ثم صمت مجددًا لفترة أطول من سابقتها شاردًا في شيء ما، ثم تابع:

- ما تشغلش بالك.. دي حاجة كده مالهاش لازمة.. واضح إني مرهق زيادة عن اللزوم.
- إنت مش ملاحظ إنك بتتكلم وبترد على نفسك؟

- معلش أنا متلخبط شوية.

- ولا يهمك.. المهم.. أنا كنت عاوزك في موضوع، أعتقد إنه يهمك..

- خير؟

- فاكر السر إللي قولتهولي من فترة؟

- أكيد..

- طيب مش تسألني أنهو سر؟

- ما هو أنا ما عنديش أسرار أصلًا غير إللي كنت قولتهولك من فترة..

- ماشي يا لماضة.. في حاجة حصلت إمبارح، أعتقد إنها هتساعدك أوي في إللي إنت ناوي عليه..

- إمبارح ده يوم عجيب، كأن كل حاجة حصلت إمبارح!!.. شوّقتني.. قوللي إيه حصل؟..

- إتصل بيا محامي من مكتب شلتوت وطلب يقابلني وبسرعة..

- وبعدين؟

- مع إني استغربت وخصوصًا إنه محامي جديد وما يعرفنيش، ومع ذلك وافقت.

- وعرفَك منين؟ وجاب رقمك من مين؟

- جايلك في الكلامك.. اصبر عليّا شوية..

- حاضر..

بدأ يروي له عن تفاصيل لقائه بالمحامي الشاب ومدى توسّمه فيه للخير والبراءة الفطرية وأن حديثهما غلب عليه كيف أنه يتعرض للظلم والقهر على يد مدير المركز الجديد، بالإضافة لرفضه الآلية التي تُدار بها القضايا وكيف هو مدى التحايُل المُستخدَم بكثرة للفوز بالقضايا وكيف أنه مُجبَر بطبيعة الحال أن يكون جزء من تلك المنظومة، وعندما فاض به الكيل كان يبحث مجتهدًا عن شخص يلجأ إليه ليساعده في الإنتقام من شلتوت، وباستماعه لبعض الأحاديث التي تدور همسًا بين المحامين القُدامى في المركز عن إستقالته من العمل لعدم رغبته في العمل مع شلتوت مجدداً، ظن الشاب أنه وجد فيه بغيته وخاصة بعد أن سمع عن حُسن أخلاقه وتحديدًا بعد انتزاعه البراءة لوالد الشاب الذي قد أرسله له سعدي، فقرر مقابلته وإعطائه مجموعة من المُستندات والتي وقعت تحت يديه عن طريق الصدفة البحتة وأخذ عليّه عهدًا بألا ايُخبر أحدًا باسمه أو بأي معلومات عنه وأن تُستَخدَم تلك المستندات بالشكل الأمثل لكشف شلتوت على حقيقته دون أن يُعرَف مَن يقف خلف ذلك الأمر لا من قريب ولا من بعيد.

بعد أن انتهى من حكيه، ناول سعدي مُغلَف وما أن التقطه سعدي، سأله:

- هي دي المستندات؟

- كلها..

- قريتها؟

- أكيد..

- فيها إيه ورأيك إيه؟

- فيها مجموعة من أصول بعض المستندات الخاصة بقضايا كبيرة ومعاها المستندات المتفبركة.. يعني الأصل وعكسه..

- للدرجة دي!!.. بس.....

قاطعه جمال:

- بس إيه؟..

- ليه ما يكونش فخ من شلتوت نفسه؟

- لما تقرا الورق هتعرف إنه مستحيل يكون فخ، لإنه من رابع المستحيلات إنه يفضح نفسه بالطريقة دي.. وكمان لو كنت قابلت الولد واتكلمت معاه، كنت هتعرف إنه مش ممكن يكون مزقوق من حد.

- تمام.. تمام جدًا..

- عمومًا أنا هقرا الورق لما أرجع البيت..

- الأهم من إنك تقراه.. إنك تحفظه في مكانما حدش يقدر يوصلّه.. الورق خطير يا سعدي.

- أكيد طبعًا.

- وعاوز منك حاجة كمان..
- أؤمر يا جيمي..
- حاول تخلي بالك من نفسك اليومين دول..
- ليه بتقول كده..؟
- مفيش سبب معين، بس حاسس إني قلقان عليك..
- ما تقلقش وحُطّ في بطنك شادر بطيخ صيفي وشتوي كمان..
- دي إيه الثقة دي كلها!
- دي مش ثقة على أد ما هو يقين جوايا إن لسه في حاجات لازم تكمل..

ثم ذهبا...

***

بعد أربعة أيام من ذهابه لفيلا شلتوت...

في نفس المكان الذي يجتمع فيه شلتوت مع جماعته، وهو ذاته تلك الفيلا التي دعا سعدي لها، بعد أن اكتمل عددهم، نظر الرجل ذو الملامح اللزجة بطرف عينه لشلتوت، مُتسائلًا:

- ها.. إيه الأخبار؟
- مش تمام.. للأسف..
- نقدر نعرف ليه؟
- أنا نفِّذت إللي اتفقنا عليه بالحرف، وكمان خليت إنجي هي الطُعم ودي حاجة عمري ما عملتها ولا هعملها تاني، وده علشان ما كنتش عاوز أي إحتمال و لو واحد في الألف إن القصة تبوظ، أولًا: لثقتي أو بالأدق لثقتنا الكبيرة فيها، وثانياَ: لإن ما أفتكرش إن في حد اتخلق يقدر يقاوم أنوثتها.
- إختصر يا شلتوت لو سمحت..
- بإختصار، الولد أخته تعبت وراحلها المستشفى.
- غريبة!!!

أردف شلتوت وهو يتصبّب عرقًا رغم برودة التكييف:

- فعلًا.. الولد يا إما مخاوي، أو محظوظ لدرجة مخيفة!.
- واتأكدت من الكلام ده بنفسك؟
- أنهو كلام بالظبط؟

- كل الكلام..

- أكيد.. لأن بالنسبة لإنجي، أنا كنت موجود في الدور إللي فوق..

(قالها وهو يشير بيده للدور العلوي)، ثم أردف:

- وكنت سامع كل الكلام حرف حرف وكمان باصص على شاشات المراقبة..

- وبالنسبة لمرض أخته المفاجئ، والغريب في نفس الوقت؟

- اتصلت بالمستشفى وسألت وفعلًا أخته كانت في الطوارئ ومشيت بعد حوالي ساعة ونص قضتها في المستشفى بعد ما عملولها شوية تحاليل.

- وعرفت منين المستشفى إللي كانت فيها؟

- اتصلت بسعدي بعد ما مشي بحوالي ساعة، على إعتبار إني لما وصلت إنجي قالتلي إن أخته تعبت وهو راح لها المستشفى، وهو بيحكيلي قاللي على التفاصيل كلها.

- تقدر توصل لأخته بأي طريقة؟

- إيه الفايدة؟

- يعني مجرد سؤال..

- لا للأسف، لأنه قاللي إنها اتجوزت وسافرت مع جوزها من كام يوم..

- وإيه العمل بعد إقتراحكم ما فشل واللي قولتلكم إنه مش هينفع؟!

أجاب شلتوت وهو يحاول تجفيف شلال العرق الذي ما زال يتصبّب منه:

- نحاول تاني..

- مفيش عندنا رفاهية الوقت، الولد هيترافع في قضية أحمس الدليل بعد أسبوعين ولازم يبقى عبرة لأيّ حد ياخد شغل مننا من غير إستئذان أو على أقل تقدير، بدون تنسيق معانا..

بعد نحنحة صغيرة، استطرد:

- وكمان لما أحمس ما يلاقيش يوم الجلسة حد بيترافع عنه ويلبس حكم من الأحكام إياهم يكون هو كمان عبرة لأي حد يسحب شغله من عندنا..

- ممكن تقولي جملة مفيدة..؟

- الولد لازم ما يبانش له أثر قبل الجلسة بوقت قليل، وخاصة بعد إللي عمله..

- إيه حصل تاني؟

هنا أشار الرجل بيده لرجل آخر كان جالسًا على يساره وأجاب:

- هسيب البِرنس يجاوبك.

تحدث البرنس (والذي لم يكن اسمًا إنما لقبًا) بعد أن اتجه ببصرة

صوب شلتوت:

- من كام يوم اتصلت بسعدي.. وعلشان نكون عملنا كل المحاولات قبل ما ننفذ إللي اتفقنا عليه وعرضت عليه إنه يشتغل معاناويكون واحد مننا، وللأسف رفض.. صحيح هو رفض بشياكة.. إنما رفض..

تحدث شلتوت، والذي بدا عليه وكأنه غريق يحاول يائسًا تفادي تلاطم الأمواج:

- وسألته إيه سبب الرفض؟

- أيوة، قاللي إنه إتعود يشتغل لوحده وما بيعرفش يشتغل مع حد.. وإنه أقل بكتير إنه يكون واحد مننا..

واستطرد مُتهكمًا:

- آل أقل آل.. البيه بيتّريق علينا.. بيقول على نفسه قُلّيل في الوقت إللي مفيش جرنال إلا وبيكّتب عنه، و كل يوم والتاني عنده مقابلة في فضائية مختلفة، وطبعًا ده غير إنه بقى نجم من نجوم السوشيال ميديا..

هنا تحدث (الرجل اللزج):

- سمعت يا شلتوت؟.. إيه رأيك؟

- الرأي رأيك.. ما عنديش أي حاجة أقولها.

- الولد ده لازم ينتهي تمامًا زيّ ما قولت قبل كده.

بيد مرتعشة التقط شلتوت سيجارًا وتساءل:

- و يا ترى الكُل موافق على كده؟

- طبعًا..

بعد لحظة سكون قضاها بالنظر لكل رفاقه وكأنه يوكِّل نفسه بالتحدث نيابة عنهم، ثم استطرد:

- طبعًا بس بشرطين..

- إللي هما إيه؟

- أولًا: القصة دي بتاعتك وتخلصها بطريقتك، وثانيًا: الغلطة إنت فاهم نتيجتها إيه..

- نهايتي.

- بالظبط.

- ممكن أقول حاجة أخيرة؟

- هاا...

- ليه محسسني إن أنا السبب في كل إللي بيحصل ده؟ وكأني أنا إللي شهرته وأنا إللي ساعدته، وأنا إللي كونت له العلاقات.. أنا زيي زيكم بالظبط.. ده غير أنا أكتر حد إتأذى منه فعليًا وأنا إللي في الوش وإنتم محدش يعرفكم ولا حتى يسمع عنكم.. ولا حد يعرف مكانكم أو حتى شغلكم..

- هقولك ليه.. مع إني مش مضطر..

- يا ريت..

- لأنك خالفت قوانينا..

- ما حصلش..

- لا حصل ونص.. حصل لما سبته يمسك كل حاجة في المركز بتاعك ويعرف أسرار أكتر من المفروض إنه كان يعرفها، لما سعادتك إديتله الفرصة إن الموكلين يعرفوه ويتعاملوا معاه مباشرة لأن سعادتك (مُتهكمًا) ما كُنتش بتروح مكتبك وسايبله كل حاجة.. وأنا نبَهتك أكتر من مرة وكان ردَّك "ما تخافش وإن الولد مفيش منه خوف".. وإن الولد كويس وابن حلال وعاوز ياكل عيش والكلام العبيط بتاع الناس إللي لسه عايشة في زمن نابليون.. حصل ولا لأ؟

- حصل..

- كمان، وافقته إنه يفتح مكتب لوحده ودي كانت من الغلطات الكبيرة..

شلتوت مقاطعًا:

- الولد كان أخد القرار وسواء وافقت أو رفضت، كان هيمشي..

- مش صح.. لأن موافقتك الصريحة إديتله راحة نفسية وخلته يشتغل من غير خوف ولا توتر..

- يا افندم وأنا كنت أعرف منين بس إنه هيلمع كده؟

- ودي الغلطة الأكبر والأخطر.. إنك ما فهمتش ولا قريت الأحداث، ولا قدرت تتوقع المستقبل وتحسب حساباته.. واضح إنك كبرت يا شلتوت خلاص أو ما بقتش فاضي..

نظر لشلتوت بحدة وبلهجة وشت للجميع بانتهاء الحوار:

- الموضوع بتاعك وشوف هتخلَّصه إزاي.

- حاضر.. إللي تشوفه..

انصرف الجميع وتركوه وحيدًا مجددًا كالفأر الذي التهمته المصيدة على غفلة، فلا استطاع الفرار ولا الرضا بقدره..



بعد أسبوعين.. صباح محاكمة أحمس الدليل...

أثناء إستعداد سعدي للخروج، هرع لفتح باب شقته بعد سماعه لطرقات صاخبة متتالية، فإذا به يجد جمال في مواجهته دافعًا إياه داخل الشقة وموصدًا الباب خلفهما، وإذا بسعدي يسأله مندهشًا:

- إيه يا عم جمال؟ في إيه؟
- مفيش.. مفيش.. إدخل بس وهقولك.
- وليه د خلة المُخبرين بتاعة الفجرية دي!

رد وهو يناوله حقيبة متوسطة الحجم:

- خد إلبس الهدوم إللي فيها وحُطّ هدومك جواها..
- أفهَم طيب، في إيه؟!
- الشنطة فيها يونيفورم راجل بتاع أمن ونضارة شمس وكاب.. إلبسهم ويلا علشان نلحق الجلسة..
- جمال.. في إيه؟ الهزار ما يوصلش للدرجة دي..
- هزار إيه بس يا سعدي؟ الموضوع أكبر من الجد.. اتفقوا إنهم يخلصوا منك..
- إيه إللي بتقوله ده!!ومين دول إللي اتفقوا؟ ويخلصوا مني إزاي؟!
- شلتوت وإللي معاه..
- شلتوت!

- أما بالنسبة لإزاي.. ممكن يخطفوك وبعدها أيّ حاجة تتخيلها ممكن تحصل ولأقصى حد..

- للدرجة دي!

- للدرجة دي وأكتر، وعلى فكرة بيتك متراقب وكمان المحكمة، ما تعرفش أنا عملت إيه علشان أقدر أوصل لك من غير ما حد ياخد باله.. يعني لو ما عرفوش ينفِّذوا خطتهم هنا أو وإنت في طريقك للجلسة، هيكملوا قُدام المحكمة، إحنا بس عاوزينك تدخل المحكمة من غير ما حد يتعرّف عليك، ومفيش مكان أأمن عليك من المحكمة، وهناك تغيّر لبسك وتدخل تترافع..

- مين هم إللي عاوزني؟.. إنت بتتكلم عن مين؟!

- أنا.

- أمال كنت بتتكلم بصيغة الجمع ليه يا جمال؟!

بعد لحظة تردد طالت قليلًا، أجابه جمال:

- أنا وإنجي.

- إنجي!!!

- أيوة إنجي، وهي إللي كانت بتقوللي كل حاجة، وهي إللي اتصلت بيّا الفجر وقالتلي ألحقك قبل ما تخرج..

- إنجي!!!.. إزاي بس؟! أنا مش مصدق.. مش فاهم حاجة..

- أيوة، وهي كانت همزة الوصل بيني وبينك.

- يعني ما كانش محامي من مكتب شلتوت هو إللي بيقولك على الأخبار ولا إدَّالك مستندات زيّ ما كنت بتقولي..؟

- جرى إيه لذكائك يا سعدي؟

- إشمعنى؟

- إللي يسمعك يقول إنك ما كُنتش شغّال عند شلتوت وعارف إن مفيش بني آدم عنده بيعرف أي معلومة أو يقدر يوصل لأي ورقة تخص ناس معينة..

بالطبع لم يخُن سعدي ذكاؤه ليخفى عليه ما حدَّثه عنه جمال، لكن في ذات الوقت، آخر ما توقعه أن تكون من يمده بالمعلومات هي إنجي.. حتى بعد ذاك اليوم الذي التقى بها بفيلا شلتوت وكيف وجد أن كوب النسكافيه المخفوق الذي قدَّمته له كأنه كان هناك نقش على سطح رغوته ببعض حبيبات النسكافيه بكلمة "go" وهو ما دعاه لاختلاق كذبة مرض أخته، والتي اعتبرها في وقتها مجرد صدفة أو دلالة ورسالة من السماء تُنذره وتؤكد حدسه، أو على أقل تقدير إذا لم تكن علامة من الله وأن إنجي هي مَن نقشت ذلك عن عمد، فإن ما دعاها لذلك شيء ما يتعلق بها وليس به..

قطع جمال تواتر أفكارسعدي قائلًا:

- على فكرة هنتأخر على الجلسة.. يلّا روح إعمل زيّ ما قلتلك.. مفيش وقت..

- تمام خمس دقايق وهبقى جاهز.

بالفعل، نفَّذا الخطة إلى أن وصل سعدي سالمًا لدار القضاء وترافع عن المتهم وحظي بالنصر كالعادة ثم اختفى عن الأنظار أسبوع كامل، وقبل أن يفعل أعطى لجمال رسالتين وأخبره أن يعطيهما لإنجي ومعهما ورقة كُتبَ فيها ما يتوجّب عليها فعله، وكذلك أعطاه رقم هاتف إبتسام ليَتَّصل بها و يُبلِغها رسالة..

***



بعد يومين من محاكمة أحمس الدليل...

داخل مكتب شلتوت..

دخل عليه شاب يبدو من ثيابه أنه ينتمي لتلك الفئة من البشر المُلَقَّبة بالطبقة الراقية، وبعد إلقاءه التحية جلس ووضع حقيبة جلدية من إحدى الماركات العالمية المعروفة أمامه على المنضدة الزجاجية المُستديرة الشكل التي تتوسط المقعدين المواجهين لمكتب شلتوت الزجاجي..

بمجرد أ ن بدأ الشاب بالتحدث فُتح باب الحجرة بطريقة مُباغِتة ودخل عدة أشخاص دون إستذان أو كالمعتاد دون مكالمة من إنجي لتُخبره بمقابلة أو بشخص يريد الولوج إليه حتى لو كان من طاقم العمل الخاص به، وعرَف أحدهم نفسه لشلتوت والذي كان يتقدم الجمع:

- المُقدِم سعيد كرم من مكافحة المخدرات..

انتفض شلتوت غاضبَا وملامح الدهشة تكسو ملامحه وصاح:

- وإزاي تدخل بالطريقة دي وعاوز إيه؟

- عندي أمر بتفتيش مكتبك..

- تفتيش..! إنت عارف أنا مين؟! وواخد بالك إنت فين أصلًا؟!

أجاب الضابط بعدم إكتراث:

- عارف يا افندم وواخد بالي، وبعد إذنك مش عاوز أي تجاوز

وخصوصًا إني مش بعمل غير شغلي..

قاطعه شلتوت متسائلًا بلهجة حملت الكثير من التعالي مُمتزِجة بلا مبالاة:

- معاك إذن نيابة؟

رد الضابط وهو يناوله ورقة قد حملت الكثير من الإمضاءات والأختام التي يبدو عليها الطابع الحكومي:

- إتفضل.

التقطها شلتوت، وبعد أن قرأها ثم أعاد قراءتها عدة مرات وتحقَّق جيدًا من أختامها، قال:

- إتفضل شوف هتعمل إيه..

بدأ الضابط ومن معه بتفتيش جميع أدراج مكتبه وأسفل المقاعد وكل ركن من أركان الغرفة، نظر الظابط إلى الخزنة وقال:

- دي خزنة حضرتك؟

- أكيد..

- ليها رقم سري؟

- أكيد..

- الرقم مع حد غيرك؟

- لأ طبعًا دي كلها أوراق في منتهى السرية..

- إفتحها لو سمحت..

تقدم شلتوت نحوها وأدخل الرقم السري عدة مرات ولم يُفلِح بفتحها، فقال الضابط:

- خير يا دكتور!!

- مش عاوزة تتفتح..

- هي إللي مش عاوزة ولاّ إنت إللي مش عاوز تفتحها؟

- حضرة الظابط لو سمحت بلاش تلميحات ملهاش لازمة..

أمر الظابط أحد أفراده بفتحها مُستخدمًا صاروخًا كهربائيًا قد اعتادت الشرطة على حمله معهم عند إقتحام المكاتب والشركات، ومع فتحها مد الضابط يده داخلها ليَخرج منها عدد من الملفات وكيس مُمتلئ بمسحوق أبيض اللون وسأل شلتوت:

- إيه الكيس ده؟

- معرفش..

- ما تعرفش إزاي؟ مش دي خزنتك؟!

- معرفش.. معرفش..

وهنا ولأول مرة منذ دخول الظابط التفت للشاب وسأله:

- وإنت بتعمل إيه هنا؟

- جاي أستشير الدكتور في قضية..

رمقه الضابط بنظرة لها معنى، ثم قال بتهكُّم:

- قضية .. ها..!!
- أيوة يا أفندم.. قضية..
- ماشي.. ماشي.. ويا ترى الشنطة دي بتاعتك..؟
- أيوة بتاعتي..
- وجواها إيه يا ترى؟
- ملف القضية وفلوس الأتعاب..
- مِتأكد؟
- طبعًا..

رجع الضابط خطوتين للخلف أو ربما ثلاث حتى يكون الجميع داخل مدى رؤيته ووجّه حديثه للشاب بلهجة تحذير:

- إنت هتفتح الشنطة دي دلوقتي ويا رب تكون فاكر الأرقام السرية بتاعتها ومش ناسي زيّ دكتور شلتوت، بس مش دي المشكلة لإنك هتفتحها برضاك أو غصب عنك.. إنما بحذَّرك كونك موجود وقت التفتيش وخصوصًا إن في أحراز يبدو إنها ممنوعات، لحد الطب الشرعي ما يوافينا بتقريره.. كلنا كده وبربطة المعلم هنطلع على القسم ومنه هتترحلوا على النيابة، ولو ثبت إن لك أيّ علاقة من قريب أو من بعيد بالقصة دي، طبعًا هتكون متهم زيّك زيّ الدكتور بالظبط.. إنما...

قاطعه الشاب بتلهّف:

- إنما إيه حضرتك؟

- لو من دلوقتي قولت لنا أي حاجة مخبَيها، أو أيّ معلومة هتفيدنا في التحقيق، هنعتبرك شاهد مَلِك وساعتها الوضع هيكون بالنسبالك مُختلف تمامًا..

بعد نظرة من الشاب للشنطة الجلدية ثم رمقه لشلتوت وأعقبتها رمقة أخرى للضابط تحدث الشاب موجهًا حديثه للأخير:

- بصراحة كنت جاي أستلم كيلو هيروين.

ثم فتح الشنطة التي كانت على المنضدة ثم أشار للنقود للضابط وقال:

- ودول مليون جنيه دفعة لحد الكمية كلها ما تجهز..

هنا صاح شلتوت:

- دي مؤامرة.. ومؤامرة رخيصة أوي.. هو أنا أهبل؟ أنا لو هعمل حاجة زيّ كده، أعملها هنا في مكتبي..؟ أنا أول مرة أشوف البني آدم ده..

رد الضابط بتلك اللهجة المُثلَجة التي يستخدمها أغلب مَن ينتسبون للشرطة:

- واضح إنك كبرت يا دكتور لدرجة إنك ما بقِتش بتهتم بالتفاصيل أو يمكن ذكاءك خدعك إن مكتبك هو أأمن مكان تعمل فيه عملية زيّ كده ومحدش ممكن يشُكّ خالص..

- يا افندم دي مؤامرة.. ممكن أعمل تليفون..؟
- مع إنه ممنوع بس مفيش مانع.. مع إني مُتأكد إن ما حدش هيرد عليك.
- يا حضرة الظابط ما تنساش إني أحمد شلتوت.
- مش ناسي..

بالفعل حاول شلتوت الإتصال بعدد من الأرقام، لكن أحدًا لم يُجِب..

هنا أمر الضابط طاقمه بتجميع الأحراز وسمح لخبير البصمات برفع كل ما تسنَّى له من بصمات، ثم أمر بوضع الكلابشات الحديدية في يد كلًا من شلتوت والشاب، ثم أكمل أوامره بتشميع الحجرة بل المركز كله بالشمع الأحمر بعد رحيلهم..

هنا خرّ شلتوت مغشياً عليه...

***

قبل يومين من القبض على شلتوت..مساءَ..

عرج شاب لداخل المركز وخلفه اثنين حاملين خزينة حديدية مغلفة بتغليف المصنع وتحدث لأحد السكرتيرات المُنتشيات على يسار المدخل:

- أنا أحمد عرابي من شركة سيفكوم وجاي علشان أغيّر الخزنة إللي كنتم اتصلتم وطلبتم تغييرها علشان فيها مشكلة.

(قالها وهو يُبرز لها وثيقة تحقيق شخصية عبارة عن كارنيه يحمل شعار الشركة وصورة له واسمه بالكامل)

- للأسف محدش بلغني إن حد جاي يغيّر خزنة!

- إللي تشوفيه.. بس أنا متأكد من العنوان وأمر التوريد إللي معايا مكتوب فيه تاريخ النهاردة.. وعلى العموم أنا بعتذر وهتصل بالإدارة عندي أبلَّغهم إنه في خطأ حصل..

قالها واستدار نحو الباب للخروج ومُشيرًا لمساعديه بالمُضِيّ خلفه.

لكن السكرتيرة استوقفته قائلة:

- ثواني أتأكد من الموضوع.. يمكن يكون السهو عندنا..

- تحت أمرك.

أجرت السكرتيرة مكالمة هاتفية سريعة ثم التفتت إليه مُجيبة:

- تمام إتفضل معايا.

تَبِعها ومَن معه إلى أن أدركوا مكتب إنجي والتي قالت للسكرتيرة

بمجرد رؤيتها:

- معلش الغلطة عندي.. نسيت أبلغكم إن الدكتور بلغني إمبارح إن في حد جاي يغيّر الخزنة لأنها تقريباَ بتعلَّق في فتحها وقفلها..

عادت السكرتيرة وتركت الرجال مع إنجي، والتي بدورها اصطحبتهم لداخل حجرة شلتوت إلى أن استبدلوها وقامت بشكرهم ثم غادروا حاملين الخزنة المعيوبة معهم.

كان الشاب هو (أشرف)، ذلك الشاب الذي أثبت (سعدي وجمال براءة والده)، والذي طلب منه سعدي صنع خزينة نسخة طبق الأصل من خزينة شلتوت بُناءاَ على الصور والفيديو اللذان أعطاهما له جمال وطلب منه إحضارها لمنزله بعد تصنيعها ومعاودة أخذها مرة أخرى اليوم التالي لتوصيلها لمكتب شلتوت ليكون قد وضع بها ذاك الكيس الذي احتوى على كيلو من مخدر الهيروين والذي قد تقاضاه من الغرباوي كجزء من أتعابه وقام بوضع رقم سري للخزينة لا يعرفه إلا هو..

كذلك قام سعدي بالإتصال بالغرباوي طالباَ منه إرسال الشاب الذي اتفق معه عليه مسبقًا كباقي أتعابه والذي على استعداد للإعتراف بتهمة لم يرتكبها من أجل حفنة من المال، وهو جزء من اتفاقهما المُسبق وهكذا أحيانًا تكون الحياة، البشر يكونون جزء من إتفاقيات بشر آخرون كأيّ سلعة أو بالأحرى كأي شيء.

عندما وصل إليه الشاب في اليوم التالي أخبره سعدي بأنه سيذهب غدًا للقاء شلتوت بمكتبه كأنه أحد العملاء الذي يرغب في استشارته

في قضية ما.. وأعلمه بأنه أثناء تواجده هناك سيتم إقتحام المكان من قبل الشرطة وقام بتلقينه إجابات عندما يُسأل عن سبب وجوده وسيخبرهم بعد مماطلة وتمثيل الخوف والإرتباك قدر ما يستطيع "بأنه أتى ليستلم شحنة من المخدرات ويقدم لهم الشنطة التي يحملها، والتي تحتوي على مليون جنيه ويخبرهم بأن المبلغ مجرد مُقدَّم لحين إستلام باقي الشحنة"..

وما أن انتهى من تلقين الشاب ما أراده، قام بتسريب معلومات لمُرشد بإدارة مكافحة الممنوعات عن الميعاد والمكان الذي سيتم فيه التسليم والإستلام..

***

من بين الممرات المُتعرَجة الضيّقة التي تفصل بين المقابر وبعضها، كان حارس المقابر سائرًا مُتكئًا على عكاز خشبي مُتقدمًا شخص كدليل له، لشخص أراد أن يصل لمقبرة المهندس (عمر نحلة).. كانت الممرات وعرة وضيقة حيث مقابر الفقراء -كنفس حال شوارع وطرقات بيوتهم في حياتهم- إلى أن اشار بيده باتجاه مقبرة بين المقابر المتناثرة، قائلًا:

- دي المقبرة إللي بتسألي عليها يا ست هانم.

وقفت أمامها تنطر بصمت ورهبة وكان لباسها الأسود اللون وذلك الوشاح الأسود الذي غطَّت به شعرها يعكسان رهبة وهيبة المكان..

كانت تلك السيدة هي إنجي التي حملت رسالة من سعدي لأبيه

وكانت وصيته بأن تقرأها بصوت مسموع ثم تضعها على الضريح وتمضي.. فبدأت بالقراءة:

"بابا.. وحشتني.. وحشتني أوي.. أنا آسف إن بقالي فترة طويلة لا جيت ولا اتكلمت معاك، بس ليّا عذري.. كنت طول الفترة إللي فاتت بعمل حاجتين.. أولًا: كنت بنفِّذ وصيتك إني أحاول أقف ضد الشر والظلم حتى لو كلِّفني ده عمري كله. وثانياً: حاولت آخد لك حقك.. ما تستغربش.. حقك إللي هو مكنش المفروض حد في أخلاقك ولا تعليمك يموت مديون، في نفس الوقت إللي فيه المرتشين والأفّاقين عندهم ملايين مش عارفين يعملوا بيها إيه.. حقك إنك ما كنتش تعيش طول عمرك خايف من بكرة.. خايف من مجرد إن واحد من ولادك يجيله دور برد علشان مش معاك تمن علبة دوا.. حقك إنك كنت تقدر تعالج مراتك من غير ديون ولا سلف.. مش هكدب عليك أنا برضو كنت طول الوقت إللي فات بحاول آخد حقي أنا كمان وأثبت لناس كتير إني أحسن منهم وبكتير، زيّ شباب كتير مستنِّي فرصة واحدة بس.. حقي إني ذاكرت وتعبت وسهرت مش علشان أشتغل في كافيه، مش علشان الكافيه وحش أو قليل إنما علشان العدل.. ابنك يا حاج إدِّى لمجموعة من الناس الواكلين كل حاجة درس مش ممكن ينسوه.. ناس أقرب للشياطين، ممكن يعملوا كل حاجة وأي حاجة علشان مصلحتهم.. بالمناسبة إبتسام كويسة أوي وخلِّفت ولد زيّ القمر وسمِّته (عمر).. إبتسام عملت كتير أوي وأفضالها عليا أد الدنيا دي كلها.. تصوّر لحد دلوقتي ما تعرفش إني عارف إن أول مكافأة أخدتها من شغلي وإديتهالها علشان تجيب حاجة جديدة

لنفسها، إنها طبعًا ما جابتش أي حاجة وإنها كانت سالفة فلوس من جارتنا.. إبتسام دي حد جميل أوي يا حاج.. كانت زعلانة مني، بس لما هتعرف الحقيقة إللي كنت مخبَيها طول الوقت عن كل الناس ما عدا إنت طبعًا وجمال صاحبي وأخويا والوحيد من العايشيين إللي قولتله سري، أنا متأكد إنها هتسامحني وكمان هتفرح بيّا.. عاوزك تدعيلي يا حاج وهنتقابل قريب.. قريب أوي.."

بعد أن أنهت إنجي قراءة الرسالة -إحدى الرسالتين اللتين أعطاهما جمال لها- ، طوت الورقة كما كانت ثم وضعتها في المظروف ووضعته على الضريح ومضت من حيث أتت..

بعدها توجّهت مباشرة لمكتب البريد الأقرب للمقابر والذي يستمر العمل به للفترة المسائية حتى استقرت أمام شباك البريد المسجل السريع وناولت الموظف مظروف كُتب عليه "الراسل سعدي نحلة"، وما كان من الموظف إلا أن سألها:

- اسم المُرسل إليه وعنوانه؟

- السيد النائب العام بصفته.. مقر النيابة العامة..

بعد أن دفعت الرسوم، وبخطوات مسرعة اتجهت للخارج مستوقفة سيارة أجرة، وما أن استقلّتها قالت:

- محطة مصر، ويا ريت بسرعة لو سمحت، وهديلك إللي إنت عاوزه..

***

اليوم التالي..

نقر مدير مكتب النائب العام باب حجرة الأخير إلى أن سمع صوت من الداخل يسمح له بالدخول، وما أن دخل، بادره مسرعًا:

- في جواب وصل لسيادتك..
- إقراه وشوف فيه إيه، ورِد عليه زيّ ما بتعمل..
- أنا قريته سعادتك، بس ده بالذات أعتقد حضرتك لازم تقراه بنفسك
- إشمعنى؟
- ده من سعدي نحلة.

بمجرد أن اخترق الاسم طبلة أذنيه مد يده ليختطف الخطاب من مدير مكتبه وبدأ بقراءته بصوت مسموع:

"السيد المستشار/ محامي الشعب

سيادة النائب العام

"أكتب إليك هذه الرسالة لعلمي التام بحرصكم على هذا البلد العظيم وتفانيكم في تحقيق العدالة، ولكن العدالة يا سيدي ينقصها الكثير لتكون ناجزة ومكتملة و دون ثغرات يستغلها الملتويين ليلَبِسوا الحق بالباطل وينصروا الظالم ويدهسوا المظلوم..

سيدي مرفق لسيادتكم كل القضايا التي توليتها مع المستندات التي

أخفيت عن العدالة أو تم العبث بها والكفيلة لاعادة فتح التحقيق مرة أخرى وتحقيق العدالة الحقيقية..

أيضًا مُرفق بعض المستندات الخاصة بالدكتور أحمد شلتوت المحامي والتي من شأنها إيضاح كيف يتم اختراق القانون، ولتكون خير شاهد على مجموعة من البشر يُدنِّسون عن عمد طهارة ثوب العدالة.

سيدي.. لا أعفي نفسي من المسئولية بالرغم من أنني فعلت كل هذا لكي أثبت عمليًا ما كنت أؤمن به.

سيدي.. حارس حصن العدالة.. أعتقد بأنه قد أزف الوقت لنتحرك جميعًا لسد ثغرات صغيرة في حائط القانون الشامخ تلك الثغرات التي يهرب من خلالها الكثير..

وتفضلوا بقبول فائق الإحترام..

المحامي/ سعدي عمر نحلة

بعد أن قرأ الرسالة، طواها مجددًا ثم ناولها لمدير مكتبه، قائلًا:

- ماشي.. إحفظه مع الحاجات إللي هتتعرض عليًا بُكرة الصبح ضروري وهعمل اللازم أول ما أفضى من إللي من عندي، واتصل بمكتب السيد الوزير خد ميعاد لبكرة ضروري..

- تمام، سعادتك..

نفس اليوم .. قبيل غروب الشمس...

على أحد شواطئ أطراف مدينة الأسكندرية

كان سعدي جالسًا على الرمال مُتأملًا البحر بأمواجه ومده وجزره.. الجالسون حوله كانوا قلة قليلة من الناس، حيث كان فصل الشتاء قد بدأ يُعلِن عن نفسه، فكان هناك بعض الشباب الجالسون سواء فرادى أو مجموعات، وبعضهم من استغل نُدرة الناس للإستمتاع سواء بالسباحة أو بقيادة الموتوسيكل المائي أو مجرد الإستمتاع بالنظر للبحر بدون صخب أو إزدحام..

كان يبدو عليه أنه يتأمل فيمن حوله، بينما الحقيقة كانت كونه شاردًا في تلك الرحلة التي استمرت ما يقرب من الست سنوات..

الرحلة التي انتوى فيها منذ البداية أن يُصحَح ولو القليل من الأخطاء ومُحاولًا إِعطاءعبرة لِمَن يعتبر ولِمَن لا يعتبر، تلك الرحلة التي امتلأت بالمخاطر وكانت على شفا خطوات من التُهلكة..

الرحلة التي أ ظهرت له جانب من الحياة لم يكن ليَدركه دون الخوض فيها..عرف أن إبتسام لم تكن وحدها، ذلك الجندي المجهول الوحيد الذي سخَّره الله له، إنما أيضًا جمال وإنجي اللذان لم يتوقع أن يكونا بجانبه في تلك الرحلة.. وتحديدًا إنجي، ولولاهما لما استطاع أن يُنهي رحلته كما أراد.. لولاهما لدُفن حيًا دون أن يحقق شيئًا ولو ضئيلًا، ودون أن يدري أحدًا بأمره، كالكثير من البشر..

أوقفت سرب أفكاره المتلاحقة لمحته لإنجي وهي قادمة من بعيد

عارجة بين الرمال وقد حملت حذاءها بيدها خيفة من أن تغرز بين الرمال الناعمة، فتناسى كل شيء، وكيف له أن يتجاهل مَن أحب؟ بل مَن اختارت طوعًا أن تحمي ظهره من أعداء كادوا أن يفتكوا به، وبمجرد أن اقتربت منه بادرته بالحديث:

- عملت كل إللي كتبتهولي بالظبط.

- مش عارف أقولك إيه ولّا أشكرك إزاي..

- ولا تقول أي حاجة، ولا كمان تشكرني..

قالتها وهي تجلس بجانبه على الرمال وكتفها كاد يلتصق بكتفه، تطايرت خصلات من شعرها بفعل بعض الرياح الخفيفة ليلامس وجهه، وأخذا ينظران سويًا للبحر، ثم أردفت:

- قبل ما أنسى.. جمال قالّي أبلّغك إنه إتصل بإبتسام وقالّها زيّ ما أنت قولتله بالظبط؛ "إنك هتغيب شوية لإنك عندك شوية شغل غلسين وإنك حاولت تتواصل معاها بس ما عرفتش بسبب شبكة التليفونات والنت"..

  نظرت له وسألت:

- إنت مسافر ولّا إيه؟

- حاجة زيّ كده..

- وليه ما كلمتهاش بنفسك؟!

- ما كُنتش هقدر أسمع صوتها ولا صوت عمر ابنها، وخصوصًا إني

عارف إنها ممكن تكون آخر مرة..

- مش هتقوللي هتسافر فين..؟

- قبل ما أقولك، عاوز أسألك.. ليه عملتي كده؟ .. إنتي تقريباَ ضحِيتي بكل حاجة.

- السؤال عاوز أيام وليالي علشان أجاوب عليه.

- مش عارف هكون بقلِّد الأفلام العربي لو قلتلك أنا مُستعد أسمعك العمر كله..

- ما أفتكرش إنك هتكون بتقلِّد الأفلام لإني مُتأكدة إنك فعلًا مُستعد لكده وأكتر كمان..

مع ا نتفاضة قلب سعدي فرحًا، استطرد:

- ممكن أفهم؟

- هفهِّمك باختصارعلى أد ما أقدر لأن الحكاية طويلة وسطورها كتير، وإللي بين سطورها أكتر بكتير..

فتحت زجاجة مياه معدنية ورشفت منها رشفة طويلة وكأنها ترتوي من ظمأ سنوات، أعادت غلقها ثم استطردت بعد أن مالت بكتفها الأيمن على كتفه الأيسر إلى أن استندت عليه وكأنها تريد إستعارة بعض الدفء منه:

- أكيد تعرف سبايا الحرب..؟

بإيماءة منه دلَّت على الإيجاب، واصلت:

- أنا عشت سنين زيّ سبايا الحرب أو سمِّيها أسيرة حرب، ومش هكرر إللي قالهولك جمال عني، أقصد عن قضية بابا الله يرحمه وإزاي اشتغلت مع شلتوت "جمال حكالي على فكرة، لكن بعد وفاة بابا وأنا بنت صغيرة لوحدي في الدنيا لقيت شلتوت بيمدّلي إيده.. الإيد إللي كنت شايفة وقتها إنها هتحميني من الدنيا بناسها وظروفها.. هتحميني من لحظات خوف محدش في الدنيا يقدر يحسّها غير إللي عايشها.. وما كانش قُدامي غير إني أحُطّ إيدي في إيده.. إيده إللي هي نفس الإيد إللي مع الوقت خنقتني وبقت زي الطوق إللي مش قادرة أتنفس منه، وعلى فكرة حتى لو كان الطوق ده دهب أو حتى ألماظ بس كان خانقني لدرجة إني أوقات كتير كنت بحس إني فعلًا مش قادرة آخد نفسي..

بعد استنشاقها لنفس عميق، أكملت:

- تعرف يا سعدي.. أسوأ إحساس ممكن حد يحسّه إيه؟
- إيه؟
- إن كل الناس أو على الأقل أغلبهم يكون شايفك سعيد وعندك كل حاجة مع إنك إنت أصلًا أتعس خلق الله.. المصيبة إنك مش قادر تحكي ولا تتكلم ولا تقول عكس إللي هُمّ شايفينه.. لأن محدش هيصدَّقك من ناحية وكتير منهم هيفكروا إنك بتغزي العين ومن ناحية تانية مهما قلت مش هتعرف توصف إللي إنت حاسّه.. إحساس قاتل.. زيّ السم إللي بيموّتك على مراحل.. أو الغرغرينة إللي انتشرت في الجسم وكل يوم يستأصلوا من الجسم جزء..

إحساس سخيف وفظيع...

- فاهمك جدًا.

- شلتوت، وفَّرلي كل حاجة بعلاقاته وفَّرلي الأمان، وبفلوسه وفَّرلي الراحة وبنفوذه وفَّرلي سهولة الحياة بس للأسف كان التمن غالي..

- إللي هو؟

- التمن كان إني أكون جزء من ممتلكاته زيّ أيّ حاجة بيمتلكها..

- بمعنى؟

- بمعنى إني كنت جماد في صورة إنسان بيتنفس.. مش بمشي خطوة إلا لما بيكون هو محددها ومش بتكلم كلمة إلا بيكون سامعها، وما بتحركش حركة إلا لما بيكون عارفها، تقدر تقول كنت زيّ الإنسان الآلي ..

- وليه كان بيعمل كده؟

- تقدر تقول حب جنوني وغيرة أكتر، جنان.. وإحتمال وارد إنه يكون حب الإمتلاك والرغبة في التحكم..

- وعلاقتك كانت بيه إيه؟

- و الله مفيش عندي رد، ومش عشان مش عاوزة أرد لكن فعلًا مش عارفة...

- إزاي بس.. يعني زوجته في السر مثلًا؟

- لأ خالص، ويا ريتني حتى كنت كده على الأقل كان بقى ليّا أي صفة حتى لو كانت الصفة دي محدش يعرفها غيري، إنما أنا كنت بالنسباله مجرد حاجة بيمتكلها.. الناس إللي زيّه بيحسبوا أي خطوه بالمليميتر ومكنش ممكن يتجوز على مراته إللي أهلها إنت عارفهم أكتر مني حتى لو كان الجواز ده في السر..

- أنا تقريباَ مش فاهم قصدك.

- علشان أريّحك، أنا ما كانش في بيني وبين شلتوت أي علاقة من أي نوع.. إلا لو اعتبرت كوني مديرة مكتب وهو صاحب المكان، دي نوع من أنواع العلاقات!!..

- غريبة!!

- غريبة فعلًا وده مش لأنه مكنش عاوز، لا.. بالعكس كان يتمنى وطلب غير المرة ألف مرة، بس أنا إللي كنت برفض.. في الأول كان الرفض كل مرة بحجّة مختلفة، لحد مع الوقت بقى الرفض لمجرد الرفض وهو تقريباَ اتعوِد على كده..

- برضه غريبة!!

- لو عرفت شلتوت كويس أو بمعنى أدق فهمته كويس مش هتشوف إن ده غريب، لإنه وإللي زيّه وصلوا لمرحلة إنهم مش بياخدوا حاجة غصب بطريقة واضحة وصريحة..

- إزايّ؟! دي كل حياتهم غصب؟!

- بالعكس.. الغصب ده اتعمل للناس إللي لسه في مرحلة بداية

القوة.. إنما شلتوت كان وصل لمرحلة أبعد من كده، إنه بأساليب هو وشلِّته يعرفوها كويس، يخليك إنت إللي تروحله لحد عنده وتطلب منه يعمل معاك إللي هو أصلًا عاوزه..

- ما هو ده برضو غصب..

- غصب بس مش تقليدي، يعني تقدر تقول غصب ضمني أو تبقى مغصوب بس بتصريح وكمان بطلب وموافقة منك، وده قمة الغصب والفُجر والألم النفسي..

- وليه الطريقة دي ما نفعتش معاكي؟

- فعلًا ما كنتش قادرة.. فكرة إني أسلِّم نفسي لحد مش قادرة أستوعبه أصلًا كانت وما زالت فكرة مستحيلة مهما كانت الضغوط إللي بتعرضلها وده غير إنه كان معايا وضع مختلف شوية عن غيري..

- بمعني؟

- إنه فعلًا كان وما زال بيحبني وحبه ليّا كان أهم خط دفاع ليّا..

شردت لثواني مع مشهد الأمواج وكأنها تسترجع الماضي، وأردفت:

- ومع الوقت هو اتعوِّد على كده وبقيت بالنسباله زيّ قطعة الديكور إللي شايلها معاه في كل مكان ويفرّجها للناس.. تقدر تقول زيّ دبوس الكرافت أو الجاكت الشيك.. الناس إللي يتمنوا بس يلمسوها، وده كان بيرضي غروره، وده غير طبعًا إنه فعلًا وثق فيّا ثقة عمياء واستغل ده في إني كاتمة أسراره وسكرتيرته، وأنا فعلًا

كنت أمينة معاه لأقصى درجة كنوع من أنواع ردّ الجميل أو العرفان، وطبعًا القصة لم تخلُ من عقاب..

- إللي هو؟
- إني زيّ ما أنا ما حَرّمت نفسي عليه، هو كمان حرمني من وعلى الناس كلها..
- يعني؟
- يعني لا له ولا لغيره.. أسيرة يا سعدي.
- أكلِّمك بصراحة؟
- يا ريت..
- برغم كل إللي حكيتيه بس برضه أي حد في مكانك كان هيفكَّر يحافظ على حد زيّ شلتوت بكل طاقة عنده.. كفاية الحياة إللي موفَّرهالك في زمن كلنا عارفين حال الناس فيه إيه..

داعبت خصلات من شعرها، ثم أردفت:

- يمكن يكون عندك حق، بس برضه ما قدرتش.. في بداية معرفتي بيه كنت مُنبهِرة بكل حاجة فيه مع إنه كان لسه في بداياته، إنما مع الوقت لما كبر وبدأت أدخل في تفاصيله أكتر وشفت وسمعت كمية المؤامرات والإستهتار بالناس ومستقبلهم جاتلي حالة من القرف إللي كنت بسببها حتى الإبتسامة بتصنّعها في وشه.. ما كنتش قادرة أعيش جوه دايرة الكذب والإفك والحياة إللي بألف وش ووش، وكنت في كل لحظة بتمنَّى اليوم إللي أخرج برة الدايرة

دي وأعيش حرة وأشم هوا نضيف.. لحد ما ظهرت إنت...

- إشمعنى أنا؟

مع هبوب نسمات هواء باردة، زجّت راحتها اليسرى في التجويف ما بين ساعده الأيمن وصدره واستندت برأسها على كتفه وأجابت:

- لأن مع أول يوم ظهرت فيه وكنت حاسة إنك هو.. من أول يوم شفتك فيه وأنا فاهمة إنك نوع من الأشخاص التي بتبقى وراهم حكاية.. نوع كده من الأشخاص إللي على إيدهم هتتغير حاجات كتير..

- هو مين؟

- إللي هيخلَّصني من كل ده.. إللي هيخليني أعرف أشم هوا نضيف.. شفت ده في عينك.. كنت عارفة من أول لحظة إنك مش زيّهم، ومع مرور الوقت كنت حاسة إحساس غريب إنك بتعمل كل ده علشان حاجة تانية خالص ما حدش فاهمها..

- برضه غريبة، لأن كان ممكن جدًا يكون إحساس غلط!!

- وارد طبعًا.. بس اللمعة في عينك كانت زيّ لمعان عيون التعلب في ليلة إكتمال القمر.. التعلب إللي مستنِّي اللحظة إللي يهجم فيها فريسته بكل قوة عنده.. لمعة عينك دي كنت بحسّها مُختلفة عن الناس القذرة إللي عشت بينهم سنين أو الناس السلبية إللي للأسف هم السبب في إللي بيحصلّنا كلنا..

ازداد تشبّثها بذراع سعدي كلما ازداد كثافة هبوب النسمات الباردة..

حتى كاد مَن يراهما يعتقد أنهما حبيبان يهيمان عشقًا، واستطردت:

- ومع ذلك عندك حق.. كلها كانت إحتمالات واردة أو غير واردة زيّ أيّ حاجة في حياتنا.. الحياة كلها مجموعة من الإحتمالات.. أو تقدر تعتبرها زيّ ستي وستك لما كانت بتقول: "الجعان يحلم بسوق العيش" يمكن من شدة إحتياجي لحد يخرّجني برة الدايرة دي كان يقيني إن الشخص ده إنت، بس اتأكدت لحظة ما دخلت عليا المكتب وقولتلي قرارك إنك عاوز تسيب الشغل عند شلتوت.

- أعتقد إن ده قرار عادي وممكن أي حد يعمل كده..

- بيتهيألك.. لأن ما حدش بيعمل كده غير الناس إللي جوّاها حاجة مختلفة أو مجانين.. حد ناجح ومرتّبه كبير وماسك شغل لأكبر محامي في مصر يسيب كل ده علشان يحقق ذاته.. ما أفتكرش، وخصوصًا إني متأكدة إنك مش مجنون أو مُختل..

اعتدل سعدي قليلًا ليَفسح لنفسه المجال ليحتضن يدها بكلتا يديه، وبالفعل أمسك بها دون أدنى إعتراض منها، وتحدَّث:

- كملي.. سامعك.

- قبل ما أكمل ممكن أسألك سؤال؟

- طبعًا..

- إنت ليه مش بتناديني باسمي؟!

مع إبتسامة خفيفة اعتلت وجهه، أجاب:

- يمكن مش متعوِّد بس.. إنتي تعرفي كانوا وما زالوا مسميينك إيه في مكتب شلتوت؟

- المرأة الحديدية.. صح؟

- صح.

- ناس ساذجة وبتكدب الكدبة وتصدَّقها، ومش بس بتصدقها.. لأ كمان بيعبدوا الفكرة لحد التقديس..

- عندك حق.. إحنا أساتذة في فن صناعة الآلهة للأسف.. كمِّلي يا إنجي..

مع زيادة تشبّثها بيده وتمايُلها بجذعها ليلتصق جانبها تمامًا بجانبه وكأنها تحاول الإختباء داخله حتى أصبحا وكأنَّهما جسد واحد، واصلت:

- الموقف إللي حكيتلك عنه زيّ ما قولتلك، اتأكدت منه إنك ناوي على حاجة، واتأكدت كمان من حاجة تانية كانت أهميتها بالنسبالي نفس أهمية الحاجة الأولانية..

- إللي هي؟

- إني اتأكدت إنك بتحبني، وإن ظني كان في محله.. ومع إني كنت متأكدة بإن الكل تقريباَ كان معجب بيّا لدرجة الهوس، بس إحساسي كبنت بيك وبنظراتك كان مختلف، وكنت عارفة ومتأكدة وإنت ورايا إنك كنت بتبص عليّا إزاي، حتى لو ما كنتش شايفاك بس كنت متأكدة.. لمحاتك ليّا بطرف عينك وإنت داخل

لشلتوت كانت بتقول حاجات كتير وفاضحاك ليّا بطريقة مذهلة..

وواصلت مبتسمة:

- يمكن كانت النظرات دي بتقول مرافعة أحسن من أي مرافعة إترافعتها قُدام أي محكمة.

بإبتسامة حملت بين طياتها الكثير من الخجل وجّه كلامه لها:

- للدرجة دي كنت مفقوش؟

- لا بالعكس، وإلا كان شلتوت أخد باله وكنت اترفدت من زمان.. إنما أنا بإحساسي زيّ أي بنت كنت حاسة بحب راجل ليّا، وهقولك حاجة صعب إنك تتوقَّعها برغم ذكاءك..

- يا ريت.. قولي..

- كوباية الميا إللي خدَّتها مني في اليوم ده وحطِّيت فيها وردة وأنا فضلت متابعاها أسبوعين كاملين لحد الوردة ما دبلت..

- إزاي..؟ كاميرات كانت في مكتبي؟!

- غير إن في كاميرات كانت في مكتبك، بس شلتوت لوحده إللي كان بيقدر يتابعها، إنما أنا أخدت بالي إنك كنت حريص تاخد الكوباية معاك وطريقة مسكتك ليها وكأنك ماسك إيدي زيّ دلوقتي بالظبط، وده إللي خلاني أبص في مكتبك بعد ما تمشي لإني كنت متأكدة إنك هتحتفظ بيها، وظني كان في محله..

من فرط الخجل الذي شعر به سعدي بعد كلام إنجي حاول أن يترك

يدها حتى يستطيع استعادة توازنه، لكنها لم تمنحه تلك الفرصة.. فكلما حاول هو إبعاد يدها ازدادات هي تشبثًا بها إلى أن تشابكت أصابعهما معًا.. كان المشهد رومانسي للدرجة التي لفتت إنتباه بعض الجالسين من حولهما.. كانا وكأنهما داخل مشهد سينيمائي لأحد المخرجين المبدعين، وخاصة شاب كان يجلس على مقربة منهما ويختطف نظرات لهما على فترات مُتقطَّعة كلما فرغ من إمتطاءه لموتسيكله المائي، فكان لا يفعل شيئًا إلا إمتطاء الأمواج والتأمل بمياه البحر والغوص داخل المشهد الرومانسي لسعدي ورفيقته إنجي.

بعد ما يقرب من الدقيقة قضاها سعدي في مداعبة أناملها بأنامله، وتَلَمّس كف يدها بسبابته وكأنه يكتب شيئًا ما عليه، استطرد سعدي:

- كمّلي يا إنجي.. عاوز أسمعك..

- زيّ ما قولتلك شلتوت وفَّرلي الأمان للدرجة إللي خلِّتني أنسى إحساس الخوف بيكون إزاي لحد ما طلب مني أغرب طلب من وقت ما عرفته..

- إللي هو؟

- إني أوقَّعك فيّا يوم ما جيت الفيلا.. ده اليوم إللي حسّيت فيه بخوف مالوش وصف..

- خوف من شلتوت ولا على نفسك؟

- لا من شلتوت ولا على نفسي، إنما خوف عليك.. شلتوت كده كده بيعشقني ومش هيقدر يئذيني ولا هيسمح لحد بكده.. اه ممكن

يضايقني أو يخنقني بزيادة، إنما دي كان مقدور عليها.. كمان أنا كل دوري مجرد مصيدة مش أكتر ولا أقل، وبالتالي مش هخاف على نفسي..

بسماعه لكلماتها استشعر رجفة سرت بكامل جسده،وتحدث هامسًا:

- فعلًا مش عارف أقول إيه، ولا كلمة ساعفاني إني أعرف أرد على إللي بتقوليه..

بعد لحظة صمت منه ومنها، سألها:

- ما رفضتيش طلبه ليه؟

- يا ريت كان ينفع..

- وليه يا ريت؟

- لإنه ببساطة هدِّدني إني لازم أنفِّذ، ومش هعيش دور الملاك وأقولك إني كنت أقدر في لحظة أترمى في الشارع وأخسر كل إللي أنا فيه برغم كل القرف إللي كنت عايشاه.. ومع إني كنت متأكدة زيّ ما قولتلك من شوية إنه مش هيجيله قلب يئذيني للدرجة الفظيعة.. بس برضه كان في إحتمال ولو صغير، وخصوصًا إنه كان باين عليه جدًا إنه تحت ضغط نفسي غير طبيعي وممكن يتصرّف تصرفات مش محسوبة.. وفعلًا ما كانش عندي إستعداد ولا طاقة إني أترمي لأحضان دنيا بشعة في لحظة ومن غير أي ترتيب.. ومع ذلك ما كانتش دي المشكلة الرئيسية عندي، الفكرة كلها إني كنت ممكن أموت من القهرة لو ده حصللي من غير تمن ومن غير ما

آخد حق سنين وأيام من عمري من شوية جلَّادين.. كنت وقتها فعلًا هزعل على نفسي لدرجة كانت ممكن جدًا توصلني لفكرة الإنتحار.. وما تنساش حاجة مهمة جدًا كمان؛ إن أبويا مات من القهرة إنه اتظلم وكان لازم كمان أجيبله حقه..

- فهمتك..وفاهم إنك بشر وكمان فاهم إنك عاوزة تضحيتك ما تكونش على الفاضي.

- إسمحلي أقولك إني ما فهمتنيش أوي..

- إزاي؟

- لإن وقتها تفكيري ما كانش في نفسي وبس، إنما كانت المشكلة فيك.. وعلشان كده تفكيري وهمِّي كان عليك أكتر مني، لإن ببساطة حتى لو رفضت كانوا هيلاقوا البديل وساعتها ما كُنتش هبقى ضامنة النتيجة..

- نتيجة إيه؟

- يعني إنت كمان بشر وممكن تقع.

- صحيح..

- إنما لو أنا وافقت، أنا إللي هحميك مني..

- يا خبر أبيض على الكلام! أنا مش مصدق إللي بسمعه..

- وما خوفتيش إني مقدرش أقاومك؟

- الفكرة إني كنت متأكدة إنك مش هتقدر تقاوم وإني هقدر أخليك

تعمل أي حاجة وكل حاجة، علشان كده كنت لازم أنبَهك ومن غير شلتوت ما يشك فيّا، ولإن المكان كان متراقب وهو كمان كان في الدور إللي فوق كان لازم أعتمد على ذكاءك وقوة ملاحظتك وقبلهم توفيق ربنا علشان كده رشّيت شوية بودرة نسكافيه على الوش المضروب وبخلّة أسنان رسمت على وش النسكافية "go" والحمد لله إنك فهمت..

- الحقيقة إني لما شفت الكوباية ما فهمتش وقتها هي الكلمة مقصودة ولّا مُجرد صدفة حصلت مع تقليب النسكافيه، ولا مجرد خيال ووهم في دماغي، وخصوصًا إني ما كُنتش مرتاح لمكالمة شلتوت.. زيّ بالظبط لما تَبَصّي للسما وتحسَي إنك شايفة حاجة مكتوبة أو مرسومة والحقيقة إن مفيش حاجة أصلًا.. بس مع ذلك أخدت الكلمة إللي على وش النسكافيه بعين الإعتبار وبدأت أجمّع أفكاري إنه مقصود، وساعتها فكرت إنك لو فعلًا عملتي كده عن عمد، فالسبب الوحيد إنك كنتي عاوزاني أمشي.. مع إنه كمان في إعتباري إنه مجرد صدفة لكن اعتبرتها علامة أو إشارة من ربنا إني لازم أمشي من المكان ده بأسرع ما يمكن وعلشان كده اخترعت حكاية مكالمة الجيران.

- الجزء المهم ويمكن يكون الأخير في الحكاية..

- إتفضلي..

- لما شلتوت طلب مني كده أنا فهمت علطول أد إيه هم عاوزين يئذوك، لأن مهما وصفتلك مش هتتخيل أنا إيه بالنسبة لشلتوت،

ومعنى إنه يطلب مني طلب زيّ ده إيه.. من وقتها إحساسي اتأكد إنك الشخص إللي على إيده هتتغيّر حاجات كتير طالما إن الحرب معاك وصلت للدرجة دي وقررت إني أكون ضهرك بس من غير ما تعرف ومن غير ما حد خالص يعرف أو يحسّ بحاجة، بس في نفس الوقت كان لازم تكون في همزة وصل بيني وبينك..

- وإخترتي جمال إنه يكون همزة الوصل؟

- بالظبط لأن جمال أمين وابن بلد وبيكره شلتوت وإللي معاه، والأهم إنه بيحبك فعلًا.

- يااه على اللفة الطويلة..

أمسك بخصلة من شعرها وأخذ يداعبها ويلفَّها حول إصبعه، وأردف:

- تعرفي أنا دلوقتي بس حسيت قد ايه أنا غبي.

- ليه بتقول كده؟!

- لأن طول الوقت كنت فاكرك مجرد بنت حلوة وجسم كله أنوثة وما خطرش على بالي لحظة إنك تكوني بالذكاء وقوة الملاحظة دول، وإن دماغك فيها كل الحسابات والتباديل والتوافيق على رأي الجماعة بتوع الرياضيات..

ضحكت بصوت عالي ثم همست بأذنه:

- كنت فاكرني غبية يعني؟!!

- لأ طبعًا.. مش لدرجة الغباء وكنت عارف إنك ذكية، إنما مش

للدرجة دي..

- وتصديقًا لكلامك؛ طول الوقت كنت بحاول أبيّن لكل إللي حواليا إن مفيش في دماغي غير مظهري وإهتمامي بتفاصيل أنوثتي، وزيّ القطر في شغلي وكأني إنسان آلي لحد ما تيجي اللحظة المناسبة.. تقدر تعتبره نوع من أنواع التخفِّي..

- لو ما كُنتيش في ضهري طول الوقت ما كنتش عرفت أعمل أي حاجة..

- في رحلتك دي يا سعدي ما كنتش هتقدر تقف لوحدك مهما كانت مهارتك أو ذكاءك، كان لازم ناس تانية تكون بتساعدك.. الإنسان لوحده ضعيف مهما كانت قدراته أو مواهبه أو حتى ذكاءه.. الكترة غلبت الشجاعة يا حضرة المحامي..

- عندك حق.. عندك حق لدرجة مخيفة.

- دي الدنيا يا سعدي.. وكنت ممكن تموت من غير ما حد يعرف عنك حاجة، والأهم إنك كنت هتموت قبل ما تكمل رحلتك وتحقق هدفك وتوصل لحلمك..

- صح..

- وهتعملي إيه دلوقتي بعد ما أكيد عرفوا إنك كنتي معايا..؟

- ولا أيّ حاجة..

- إزاي؟

- أولًا لإنهم ما يعرفوش، وثانيًا لإنهم خلاص انتهوا..

- ما تنسيش إنهم لو حتى ما يعرفوش إنك ضلع في إللي حصل، أكيد شاكّين شك يقترب من اليقين، وكمان الناس دي ما بتنتهيش لإن لهم بقايا وتوابع محتاجة سنين علشان تنتهي بالكامل..

- حتى لو كلامك صح، كفاية إني اشتريت حريتي والحرية تمنها كبير ولازم يتدفع بشكل أو بآخر، ولو ما كُنتش عملت إللي عملته كنت هفضل أسيرة أو هاخد حريتي من غير أي مقابل من أي نوع، وكنت هعيش العمر كله إنسان آلي مش قادر حتى يقول آه..

- عمومًا خلي بالك..

- الأهم إنت إللي هتعمل إيه؟

- ناوي أمشي..

- يعني إيه؟

ردّ وهو يشير بسبابته نحو شاطئ البحر:

- شايفة القارب الصُغيّر إللي قُدامك ده؟

- آه.. ماله؟

- هقعد فيه وأمشي..

- تمشي تروح فين؟

- أي مكان هيودِّيني له..

- وده جبته منين ده؟

أشار بيده صوب كُوخ خشبي صغير على طرف الشاطئ، وقال:

- في يوم من أيام الشتا الصعبة كان عندي جلسة في إسكندرية في مُجمّع المحاكم إللي على البحر.. قبل الجلسة كان قدامي وقت طويل وخصوصًا إني وصلت إسكندرية بدري تحسّبًا من أي حاجة تحصل في الطريق والجلسة تفوتني، وفعلًا وصلت في حدود الساعة سبعة الصبح وكان لسه فاضل ساعتين على بداية الجلسات ومكنش في بني آدم ماشي في الشارع من شدة البرد والمطر اليوم ده.. حتى العربيات.. كل فين وفين عربية تعدِّي.. منظر البحر سحرني، وخصوصًا ومية المطر وهي بتدوب جوه أمواجه الفايرة وقتها.. لقيت نفسي بمشي على الكورنيش لحد ما وصلت هنا.. مكنش في حد خالص وأكيد أي حد كان شافني وقتها كان بيقول عليّا مجنون.. المهم سرحت وأنا واقف تحت المطرة وببص للبحر ووسط كل ده لقيت صوت بيكلمني.. كان راجل عجوز بينده عليا وبيقول:"يا بيه.. يا بيه.. مالك؟ فيك حاجة؟.. واقف في البرد والمطرة كده ليه".. وهو بيتسند على عكاز طلع من على الرملة للرصيف ومسك بدراعي وشدِّني معاه لحد ما نزلنا تاني على الرملة ومشينا لحد ما وصلنا للكشك الخشب ده.. كان حالي زي المتخدَّر بالظبط ومش عارف ليه لغاية دلوقتي.. المهم دخلت معاه وحط بطانية على كتفي وعمل لي كوباية شاي على موقد

من شوية خشب.. كانت أحلى وأطعم كوباية شاي دُقتها في عمري.. لسه طعمها في لساني لحد دلوقتي.. بعد شوية مش عارف أد إيه سألته:

- إنت مين وبتعمل هنا أيه؟

- أنا عمك أبو إبراهيم وعايش هنا..

بعد نظرة عميقة لمياه البحر، أردف سعدي:

- لما لقاني مستغرب كمل حكايته..: "أنا في شبابي كنت صياد وساكن في بيت في حارة من حواري بحري.. وفي يوم أم إبراهيم طلبت مني إني آخدها وا لواد الشقي إبراهيم على القارب ونلفّ بيه شوية في البحر.. فعلًا أخدتهم بعد الوليّة ما عملت ساندوتشات فول وطعمية واستلفت ترمس من جارتنا إللي فوق وملته شاي على أمل إننا هنقضي اليوم كله وسط البحر.. فعلًا وصلنا الشط ونطِّينا فوق القارب وجدفت وهي كانت بتلاعب إبراهيم وتملا كفَّها بمية بحر وترش عليه وعليّا.. يااه يا بيه كانت فرحانة أوي وبتضحك.. كنا بناكل وبنشرب.. كان صوتنا جايب لآخر البحر.. ضحكة الواد إبراهيم كانت واصلة لحد العماير اللي على الكورنيش.. كنا حاسِين إن البحر ده كله بتاعنا.. بتاعنا إحنا بس.. ملكنا.. وفجأة اتخلقت موجة من العدم وقلبت القارب.. بعدها اتخلقت موجة تانية وتالتة وعاشرة يمكن.. الموجة بلعت أم إبراهيم وابنها.. لو كنت أقدر كنت قرقشت الموجة دي يا ابني بأسناني، ومن يومها وأنا مش قادر أروح البيت تاني إللي مش

هلاقي فيه لا إبراهيم ولا أمه، وقررت إني أعيش جنبهم، يمكن يرجعوا تاني.. بنيت الكوخ ده وعشت.. ومرت عشرين سنة ومحدش رجع.. لحد يا ابني ما خطوتي ضاقت وضهري انحنى وما بقاش فيّا عزم علشان أجدِّف ولا بال علشان أصطاد، فقررت إني أبني قوارب صيد صغيرة للصيادين لحد ما مراتي وابني يرجعوا أو أنا أروحلهم.."

- وطلبت منه إنه يعمل لي قارب صغير لإن وقتها قررت إني بعد ما أخلص رحلتي الكبيرة هبتدي رحلة تانية أنا إللي أختارها على القارب إللي هيعمله عم أبو ابراهيم ووصِّيته إنه بعد ما يعمله يشيله أمانة عنده لحد ما آجي في يوم وأستلمه.. وكنت في كل مرة باجي إسكندرية بعدِّي على الراجل الطيب وأشرب معاه شاي ويورِّيني القارب وهو بيتشكِّل، وفي كل مرة كنت بروح كان شكله بيبان أكتر وكنت بعرف إني خلاص قربت أوصل..

مدَّ سعدي يده ليمسح دموع بدأت بالإنهمار من عيون إنجي التي سألته:

- وما سألكش ناوي تعمل إيه بالقارب ده؟

- خالص، ولا مرة.. مع إنه أصرّ إنه ما ياخدش ولا مليم.. واضح يا إنجي إن في ناس فهمت إن في أسئلة ما ينفعش تتسئل أو مش لازم تتسئل.. أو يمكن إجابتها أوضح وأسهل من إنها تتقال أصلًا..

نظرت صوب عينه مباشرة وقالت:

- سعدي .. القارب ده مش هيودِّيك لأي مكان، القارب ده إنت

هتموت عليه قبل ما توصل أي مكان.

- يمكن..

- لا مش يمكن ده أكيد.. إنت كده بتنتحر..

- لو عاوز أنتحر كنت شربت شوية سم أو رميت نفسي من الدور الخامس أو أي طريقة تانية، وكان الموضوع هيبقى أسهل بكتير..

- أومال تسمي إيه إللي ناوي عليه ده؟!

- أنا مش مقرر إني أنتحر يا إنجي، بس أنا ما بقتش قادر أقعد هنا..

- ليه بس؟.. إللي ممكن يعملولك مشاكل خلاص انتهوا وكمان إنت ممكن تبتدي حياتك زي ما أنت عاوز.. القرار بتاعك.

- أنا مش خايف منهم، لأن بالقبض على شلتوت مُتلبَس وكمان الورق إللي بعتّه للنائب العام كفيل بإنه ما يشوفش الشمس تاني، والأهم إن شلتوت مجرد طرف البكرة إللي هتكُرّ كل إللي معاه أو وراه، وبالتالي كلهم انتهوا.. ولا حتى خايف من غيرهم..

- أومال!!

- أنا تعبت.. تعبت نوع من التعب إللي مش هقدر أوصفه..

- مش قادرة أفهمك..

- إنجي، الدنيا بقت حمل تقيل عليّا لا قادر أتحمله ولا قادر أنساه وأعمل نفسي مش شايف..

- ويكون الحل إنكِ تموَت نفسك.. ويكون مصيرك زيّ أم إبراهيم..

- قلتلك والله مش دي نيتي، أنا حلمي إن القارب ده ياخدني لمكان أقدر أعيش فيه.. لمكان فيه ناس أقدر أفهمهم وأتعامل معاهم بحرية من غير حسابات ولا مؤامرات.. أعيش فيه حياة بسيطة من غير هموم ومسؤوليات بتضغط على الأعصاب لحد الإنفجار.. ولو مُتّ يبقى خلاص نصيبي..

- وإللي إنت عملته هتضَّحي بيه بسهولة كده؟

- إللي أنا عملته علشان عهد كان بيني وبين نفسي ثم أبويا، مش علشان أفتخر بيه وأبيّن للناس أد إيه أنا بطل.. إللي عملته علشان أحاول أكون بداية لناس تكمِّل ورايا لإن الرحلة لسه ما انتهتش، دي يا دوب لسه في البداية.. لسه في أول حرف في أول كلمة على أول سطر..

- أرجوك بلاش كده.. ممكن نسافر..

تداركت نفسها مستطردة:

- ممكن تسافر أي بلد بعيدة وتعيش زيّ ما أنت عاوز.. البلاد إللي ممكن تعيش فيها حياة أجمل كتير..

- للأسف ما فهمتنيش أنا قولتلك إن الدنيا بشكلها المعروف ليّا بقت تقيلة عليّا، ما بقتش عاوزها خلاص، ومن أول يوم قررت أعمل إللي عملته وأنا بحلم باليوم ده.. اليوم إللي همشي فيه وخصوصًا وإني مُتأكد إن مفيش مكان ولا بلد فيهم إللي أنا بحلم

بيه.. كل الفكرة إنك بعد شوية إنبهار هتتنقلي لشكل أو مستوى آخر من المشاكل والصراع..

- ولو إترجيتك إنك ما تعملش كده؟
- مش هقدر، لإني ما بقتش قادر فعلًا...
- حتى لو قولتلك علشان خاطري..
- علشان خاطرك لو ربنا كتبلي الحياة هرجعلك في يوم من الأيام..

تنهّد وكأنه تنفَّس الصعداء واستطرد:

- خلي بالك منك أوي يا إنجي..
- كنت عاوزاك إنت إللي تخلي بالك مني..
- للأسف أنا ما بقاش فاضل فيّا طاقة لأي حاجة.. تصوّري إنك كنتي وما زلتي حلم من أحلامي؟
- والحلم بقى حقيقة.
- حقيقة في وقت اختفت فيه الحقايق..
- أنا حقيقة قدامك أهو..
- مش هقدر يا إنجي.. يا ريت كنت أقدر..

انتزع ورقة من جيبه مناولًا إياها لها، قال:

- ده تفويض ليكي على حسابي في البنك.. هتلاقي فيه فلوس كتير.
- هتزعّلني منك كده.. تفتكر أنا عملت كل ده علشان كده؟!

سعدي مقاطعًا:

- لو صبر القاتل على المقتول يمكن ما كانش قتله..

- تقصد إيه؟

- التفويض ده علشان تسحبي كل الفلوس وأي حد أو جهة محتاجة فلوس إتبرعي بيها.

- وده أسمِيه إيه؟

ولم تمنحه فرصة للإجابة وواصلت:

- تكفير عن ذنوب؟!

- لا يا أعز الناس.. الفلوس الحرام ما بتكفرش ذنوب ولا بتمحي خطايا، إنما طالما موجودة فالأفضل إن أيّ حد غلبان يستفيد بيها.. الغلابة كتير..

- مُتأكد إن مفيش حاجة أخيرة ممكن تتعمل وتخليك ترجع عن قرارك؟

- آخر حاجة كنت المفروض أعملها هي **الرسالة الأخيرة**، ودي الرسالة إللي إنتي بعتِّيها للنائب العام.. الرسالة الوحيدة إللي قرِرت أبعتها بعد مئات الرسايل إللي كان مكانها الوحيد هو درج مكتبي..

- واضح إني مهما قلت أو اتكلمت مش هعرف أخليك ترجع عن إللي في دماغك.

- الحمد لله إن آخر حاجة حصلت قبل ما أمشي إني قعدت معاكي القعدة دي.. اللقاء ده إللي كنت شايفه أصعب من إني أقضي على شلتوت وإللي معاه..

بعد دقائق من الصمت أفلت يده من يدها ونهض، وبدورها نهضت معه وهمس في أذنها:

- معلش لازم أمشي.. إتأخرت..

- هو إنت رايح لحاجة أصلًا عشان تتأخر عليها؟!

- حاجة جوايا بتقول إني اتأخرت.. إتأخرت أوي كمان لإني كان لازم أمشي من سنين طويلة.. هوصيكي تاني.. خلي بالك من إنجي يا إنجي..

- لو ما كنتش عارفاك كويس كنت قلت إنك مجنون.. ولو ما كنتش متأكدة إنك سعدي وأنا إنجي وفي إسكندرية، كنت قُلت إن أكيد نداهة الأرياف ندهتك..

- يا ريت كان في نداهة وكانت ندهتني ومن زمان..

- للدرجة دي؟!

- وأكتر..

- كنت بتمنى إني أكون مجنون.. بس للأسف أنا عاقل ومشكلتي الوحيدة إني وأكيد مش لوحدي مش زيّ بقية الناس...

- هترجعلي؟

- مش متأكد..
- إنت عاوز ترجعلي؟
- عاوز، ويا عالم ربنا كاتب إيه.

قالها وأمسك يدها وطبع عليها قبلة ثم قبض عليها بيده بشدة وقال:

- أشوفك على خير أيًّا كان المكان أو الزمان، وما تنسيش تسلِّميلي على جمال..
- سؤال أخير.
- طبعًا..
- لو اترافعت عن شلتوت كنت هتعرف تجيبله براءة؟
- أكيد..
- يعني هو هياخد براءة من تهمة المخدرات؟
- أكيد.. بس بعد شوية عذاب وبهدلة..
- يعني إنت كنت قاصد إنه ما يتسجنش؟
- كنت قاصد إني أوجعه وأخليه يدوق من كاس هو بنفسه سقاه لناس كتير..
- طيب معلش كنت هتطلعه براءة إزاي؟
- مش وقت شرح، وعمومًا مفيش داعي توجعي دماغك لإن خلاص ما بقاش في شلتوت تاني بعد الورق إللي اتقدم للنائب العام..

- أكيد تقصد إنه هيقدِّم طلب....

قاطعها وأكمل ما انتوت أن تقوله:

- حتى لو قدم طلب لفحص شريط الكاميرات وإللي هيبان فيه إن الخزنة اتبدلت.. مش ده قصدك؟.. أنا متأكد يا إنجي إنك عطَّلتي الكاميرات وقتها..

- يعني إحنا انتصرنا يا سعدي؟

- إللي أقدر أقوله إننا ابتدينا، إنما المشوار لسه طويل.. وزيّ ما قولتلك إحنا يا دوب كتبنا أول حرف في أول كلمة على أول سطر..

قفزت إنجي وارتمت بين أحضانه وكأن لا وجود لأحد حولهما..

بعد ثوانٍ طبع قبلة على جبينها وقال:

- أشوف وشك بخير..

قالها ومضى وترك إنجي وعيناها تفيض بالدموع.

قبل أن تطأ قدمه القارب بلحظة سمع صوت من بعيد ينادي:

- يا بيه.. يا بيه..

كان عم أبو إبراهيم يلوِّح له بحرارة، فلوّح له بدوره وصاح سعدي بأعلى صوته حتى يسمعه:

- لو شفت أم إبراهيم هقولها إنك لسه مستنِّيهم هنا...

- خلِّي بالك من نفسك يا ابني.

رحل سعدي في ذلك القارب الصغير وظلت إنجي ما يقترب من

النصف ساعة متابعة له إلى أن أصبح هو والقارب مجرد نقطة رمادية اللون على سطح مياه زرقاء ثم اختفى تمامًا عن نظرها، بل عن الأنظار جميعها وغربت الشمس.

لم تحاول حتى تجفيف دموعها وفتحت حقيبتها وأخرجت ورقة بيضاء وقلم وكتبت عليها: "كنت غلطان إنك كنت فاكر إن رسالة النائب العام كانت آخر رسالة؛ لأن الرسالة إللي أنا بكتبها دلوقتي هي **الرسالة الأخيرة**.. الرسالة إللي هقولك فيها إللي ما قدرتش أقوله من زمان، ولا حتى وأنا قاعدة معاك من دقايق، إني بحبك.. بحبك أوي وهستناك مهما طال الوقت أو فرّقت بينّا المسافات.. هستنّاك زيّ عم أبو إبراهيم، ما هو مستنّي مراته وابنه من عشرين سنة.. أرجوك إرجعلي.. إنجي".

بعد أن انتهت من الكتابة طوت الورقة على هيئة إسطوانة صغيرة ووضعتها في زجاجة الماء البلاستكية بعد أن أفرغت ما تبقّى بها من قطرات الماء، وأغلقت غطاءها بإحكام وتقدمت نحو الشاطئ إلى أن لامست أمواجه قدميها وقذفت بها بكل ما وهبها الله من قوة، وهمست باكية:

"يا رب توصلك وترجعلي بالسلامة، أو حتى إرجع وخدني معاك لأني أنا كمان عاوزة أمشي بس إنت للأسف ما خدتش بالك.. ما أخدتش بالك إني زيك بالظبط"

قذفتها بكامل قوتها باتجاه البحر وتأكدت أن الأمواج قد سحبتها بعيدًا، واختفت عن الأنظار بدورها، ثم استدارت مغادرة الشاطئ ببطء شديد..

بمجرد أن غادرت، انتفض الشاب الذي كان يجلس على مقربة منهما ومتابعًا لهما منذ بداية لقائهما إلى أن ألقت إنجي بالزجاجة وكان على يقين بأن تلك الزجاجة تحمل رسالة لحبيبها الذي اختفى، فهرول صوب الشاطئ مُمتطيًا موتسيكله المائي في محاولة منه لإلتقاط تلك الزجاجة لينطلق بعدها بأقصى سرعة علَّه يستطيع أن يلحق بسعدي ليعطيه الرسالة.. **الرسالة الأخيرة..**

لكن سعدي قد ابتعد.. ابتعد كثيراَ..

تمت

مصطفى عبد العزيز

